



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٠٨٢٩

جامعة دمشق
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الاتجاه الشعبي في شعر العمدة عباسي الأول

١٠٠٢٨١٧

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير



إعداد
طاهر حجاز خرفان

إشراف
د. محمود الربيدوي

دمشق ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

الإهداء

للأزواج الطيبة مع كل عبي ..
والأخى عبدالقادر الذى له أنسى فضله على ما عبت

طاهر

كلمة شكر

لأنني ان للكلمات قدرة على التعبير عن
مدى شكري لاستاذي الدكتور
محمود الربداوي الذي ظل دائما وجهي
بكل عطف وحنان والذي أخذت من
جهله ووقته الكثير الكثير

طامع محمد

فهرس المبسرسيات

الصفحة	
٦	المقدمة :
١٢ - ١٠٣	<u>الباب الاول : عوامل الاتجاه الشعبي</u>
١٣	التمهيد : نظرة على ثقافة العصر العباسي الاول .
٢٣ - ٤٧	<u>الفصل الاول : الحالة الاقتصادية :</u>
٢٥	أ - الصناعة والتجارة
٣٠	ب - الزراعة والاقطاع
٣٢	ج - موارد بيت المال
٣٤	د - الخراج
٤٥	هـ - ظاهرة الاستصفاء
٤٧ - ٧٢	<u>الفصل الثاني : الحالة السياسية :</u>
٤٩	١ - التمهيد
٥٥	٢ - الواجهة السياسية
٧٣ - ١٠٣	<u>الفصل الثالث : الحالة الاجتماعية</u>
٧٤	- تركية المجتمع العباسي
٨٠	١ - الفقير ومظاهرة
٩٤	٢ - تمييز مال المسلمين ومظاهر الترف
٩٩	٣ - العدالة والقضاء
١٠٤ - ٣٠٤	<u>الباب الثاني : الاتجاه الشعبي . .</u>
١٠٥	التمهيد : تحديد مفهوم الاتجاه الشعبي

الصفحة

الفصل الأول : اغراض الاتجاه الشعبي :

١٣١ - ٢١٧	١ - الفقر ومظاهره
١٣٣	٢ - العمل
١٦٢	٣ - المدح والهجاء
١٧١	٤ - رشاء المتباع
١٩٥	٥ - التعامل مع البيئة الشعبية
٢٠٠	٦ - الفكاهة والتنذر
٢٠٣	٧ - تسلط المال

الفصل الثاني : دراسات الاتجاه الشعبي الفنية :

٢١٨ - ٢٧٠	أ - الاوزان
٢٢٠	ب - القوافي
٢٣١	ج - الالفاظ
٢٣٥	د - في ثنايا الشعر
٢٤٨	هـ - بناء القصيدة

الفصل الثالث : مواقف شعراء الاتجاه الشعبي

٢٧١ - ٣٠٤	١ - الموقف اللامبالي
٢٧٤	٢ - الموقف الجنائدي
٢٨٥	٣ - الموقف المتمرد
٢٩٩	

الخاتمة :

فهرس المصادر والمراجع

المقدمة

ان اختيارنا للعصر العباسي الاول ميدانا لبحثنا لم يأت اعتباطا بل جاء لاسباب كثيرة منها الاستقرار السياسي النسبي الذي عرفه هذا العصر والذي كان له دور كبير في بروز كل ما كان يختمر من قبل من اتجاهات وثيارات فكرية وفنية ، ومنها ان في هذا العصر بدأت تتضح معالم المجتمع الجديد اكثر من اى وقت سابق، فقد كانت الدولة الاموية من قبل عربية في معالمها العامة بينما شارك في انشاء الدولة العباسية عدة شعوب، ولم تكن هذه المشاركة صورية كما كانت من قبل بل كانت فعلية في الحكم والسياسة وما الى ذلك .

ان العصر العباسي الاول كان اهم عصر وضحت فيه بنى المجتمع الاسلامي الجديد بجميع تناقضاته لان ما قبله كان يعتمد على العنصر العربي وحده في تسيير الامور المختلفة في اغلب الاحيان ولان ما بعده كان عهد تفرقة وتشتت . ان هذا العصر هو العصر الذهبي في تاريخ الحكم العربي فقد امتد فيه نفوذ الخلافة العباسية على جميع الاقاليم باستثناء الاندلس وهذا ما جعل راية الاسلام مرفرفة على جميع تلك الاقاليم وبذلك ضاركت تلك الشعوب المنضوية تحت هذه الراية تمتزج بعضها ببعض وتتبادل التأثير فنتج عن ذلك كله حضارة عربية اسلامية كبيرة قدمت للانسانية خدمات جليلة .

ومجتمع بهذا الاتساع والتنوع كان لابد ان يحدث فيه صراع او مصراعات عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية وكل هذه الامور تساعد على تطور الفن وبالتالي على تطور الشعر . وليس غريبا ان نجد عدة ثورات في هذا العصر منها ما كان منطلقه السياسة ومنها ما كان منطلقه الاوضاع الاجتماعية للفئات الكادحة . وقد عظم امر بعض الثورات

حتى جعل الخلافة تأرق في بغداد وتهدد بالسقوط عدة مرات .

وما بحثنا هذا الا محاولة لمعرفة رأى الشعراء في تلك الاحداث وموقفهم منها، الا ان دراسة كهذه تعترضها صعوبات كثيرة منها مايلي :

١- جهلنا بكثير مما كان يعتمل باخى ذلك المجتمع العريض والمتنوع الجنسيات والاتجاهات لان كتب التاريخ التي وصلت الينا عن تلك الفترة كانت تواريخ فيمعظمها للاحداث والاشخاص وتهمل المجتمع وقآته المختلفة والمتعددة . ان المؤرخين القدامى ، وتبعهم في ذلك المحدثون ، لم يكونوا فويتواريخهم يحاولون معرفة الدوافع التيثقف وراء سلوك بعض الشخصيات فيتاريخنا وبالتالي لم يكونوا يبحثون في الاسباب والامور التي جعلت تلك الاحداث تحدث على ذلك النحو ، وبعبارة اخرى لم يكونوا يبررون وقوعها بذكر اسبابها الحقيقية . لقد كانوا في معظم الاحيان يذكرون الحادثة مجردة من ابعادها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكانوا مثلا يذكرون الثورات مجردة من كل اسبابها بحيث تصبح في منهجهم ذاك حادثة مبتورة تافهة .

وكان علينا لفهم الشعر الشعبي ، لسان حال الجماهير الكادحة في ذلك العصر ، ان نفهم المجتمع كله بتراكيبه المختلفة وبعاداته وتقاليده وكل مايعتمل داخله من طموحات وصراعات وتضارب مصالح وتطاحن للطبقات فيما بينها . ومن هنا كان الشعر العربي عموما يصلح ليكون مصدرا هاميا لكتابة تاريخ تلك الحقبة من تطور الامة العربية الاسلامية لان الشاعر كان محكوما عليه ان يصدر عن مجتمعه وبالتالي فهو يورخ له بطريقة فنية .

٢- وزيادة على افتقار تلك الكتب التي اُرخت للعصور القديمة الى منهج سليم وتبريرات معقولة فان الذين كتبوها كانوا بشرا قبل

كل شيء وهذا ما جعل بعضهم يتبع بعض الالهواء فيبرز ما يتلاءم مع اتجاهه ويهمل كل ما خالفه ، ويكفي هنا ان نتذكر موقف المؤرخين من الدعوة العباسية وانتصارها علموني امية ، فقد اختلف فيها المؤرخون بحيث راح بعضهم يرد كل الفضل في انتصارها الى العنصر الفارسي وحده . ومثل هذه الامور تجعلنا نشك في كثير من النصوص الموثقة في كتب التاريخ تلك ، ويمكن ان نقول الشيء نفسه عن كتب الادب فهي ايضا لم تكن بمعزل عما كان يجري في تلك الفترة .

٣- وفوق هذا فان تلك النصوص التي قد تفيدنا شيئا في هذا البحث قليلة جدا ونقص بها اشعار الشعراء الشعبيين لذلك العصر . وليست هذه الندرة نتيجة قلة في انتاجهم بل الاسباب اخرى منها ان المؤرخين والمصنفين كانوا يهملون هذا الشعر لتفاوته في نظرهم لانه لا يتناول المواضيع الجادة والرصينة كما كانوا يريدون من الشعر . وهذا الاهمال ناتج بدوره عن العقلية السائدة آنذاك والتي لاتعير العامة وجمهور الناس اي اهتمام بل تعتبر كل ماله علاقة بالعامية شيئا ساقطا لا يستحق الذكر والنشر .

٤- ومن الصعوبات الاخرى ايضا اننا لم نجد دراسات من هذا النوع تدرس اداب الشعوب في تلك الحقب وتتخذ قدوة لنا وان وجد بعضها فهو لا يفي بالعرض . وهذا ما جعلنا امام وضع صعب اذ كان علينا ان نتلمس الطريق دون مساعدة لان الدراسات التي تتناول الشعر في العصور القديمة كان اغلبها ينصب على الشعراء المشاهير وتجدد الاشارة هنا الى اننا لم نستطع الحصول على بعض المراجع والصادر والتي كانت ستفيدنا في هذا البحث لانها في اقطار اخرى ودول اخرى او لانها مخطوطة لم تنشر النور بعد .

هذه مجمل الصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث ونحن متأكدون

ان بعض الجوانب ناقصة فيه ولذا نرجو من القارئ الكريم ان يقدر هذه الظروف ويغفر لنا هذا النقص .

ويعد فاننا قسمنا هذا البحث الى باهين يتناول الباب الاول العوامل المؤثرة في الادب الشعبي للعصر العباسي . ويتناول الباب الثاني الشعر في حد ذاته . وقد مهدنا للباب الاول بنظرة بسيطة عن ثقافة العصر العباسي الاول حيث تطرقنا لنشوء الدراسات الدينية واللغوية وما يتبعها .

اما الفصل الاول من الباب الاول فقد مهدنا له هو الاخر باهميية دراسة الاوضاع الاقتصادية .

وكان الفصل الاول خاصا بالعوامل الاقتصادية التي تؤثر حتى في الانتاج الادبي وبالتالي في الشعر الشعبي ، فاعطينا لمحة عن الصناعة التي تطورت نسبيا في ذلك العصر بحيث ظهرت بعض المعامل في مناطق كثيرة من الامبراطورية الاسلامية اضافة لتطور الحرف اليدوية . ثم تناولنا الزراعة والاقطاع حيث بينا ان الدولة كانت تعتبر نفسها المالك الاكبر للارض تتصرف فيها كما تشاء وتقطعها من تشاء . ثم عرفنا موارد بيت المال كالزكاة والفيء والخمس الخ ... وركزنا على الخراج الذي كان اهم مورد لبيت مال المسلمين من حيث قوانينه وطرق جبايته والزيادة فيه وثورة الفلاحين والمزارعين بسبب ذلك ، ثم ذكرنا تبذير مال المسلمين من قبل الخليفة واتباعه في امور لا تعود على الرعية بفائدة ، ثم ذكرنا ظاهرة مصادرة اموال الاغنياء في ذلك الوقت .

وكان الفصل الثاني خاصا بالعوامل السياسية حيث تحدثنا باختصار عن تنظيم الدعوة العباسية ونجاحها وما تبعها من فتك بالامويين .

وبعد ما اعطينا لمحة عن الواجهة السياسية العامة لتلك الفترة حيث عظم تدمير الناس من العباسيين بعد الفرج والابتهاج باقتدار تلك الدعوة ، ثم تعرضنا للأحزاب الكبرى فهذه هي تلك المصير حيث كان الحزب الحاكم يواجبه احزاب المعارضة بكل عنف وكانت هذه الاحزاب بدورها تهتل الفرصة للاطاحة بالنظام القائم حيث حدثت عدة ثورات للشيعه والخوارج ، حزبي المعارضة الكبيرين ، وكان بعضها خطيرا للغاية • ثم ذكرنا الثورات والانتفاضات الشعبية التي لم تكن تابعة لهذه الاحزاب والتي جاءت نتيجة للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لذلك العصر •

وجاء الفصل الثالث للتعريف بالاضاع الاجتماعية لذلك العصر فبيننا اول الامر (الطبقات) والفئات التي يتكون منها المجتمع العباسي في تلك الفترة ثم تحدثنا عن مظاهر الفقر وانعكاسها على الشعر الشعبي ثم مظاهر الترف والغنى واخيرا اعطينا لمحة عن ظروف القضاء والعدالة والحسبة •

اما الباب الثاني فقد مهدنا له بتحديد مفهوم الشعر الشعبي في ذلك العصر ففرقنا بينه وبين الشعر الرسمي وبينه وبين الشعر الذاتي • وقد بينا ان الشعر الرسمي يكون دائما داعية للسلطات القائمة شرط ان تكون هذه السلطات في تنافر مع الشعب أي مع الرعية ، وبيننا ان الشعر الذاتي ينطلق من وجدان الفرد الذاتي • أما في تعريف الشعر الشعبي فقد جعلنا الجماعية منطلقا لكل تحديد على ان يكون هذا الشعر نابعا منها بالدرجة الاولى وليس عكسا • وهنا تصدينا لبعض التعريفات الشائعة عن الادب الشعبي والتي تحمل في طياتها مغالطات واضحة كجعل الشعر الشعبي هو ما جاء مكتوبا بالعامية وكان مجهول المؤلف ، لان الكتابة بالعامية او بالفصحى ليست هي الدليل على شعبية الشعر بل الدليل هو محتوى ذلك الشعر ، وهنا ناقشنا قضية الفصاحة والعامية

في اللغة واقترحنا ان مفهوم الفصاحة يجب ان يتغير عبر العصور
تبعاً لتغير المجتمع الذي ينتج هذه اللغة اوتلك ، ثم بيننا ان جيسل
المؤلف لم يعرفته بالنسبة اليينا لايفير شيئاً في هذه القضية . ويعد
ذلك ناقشنا بعض الآراء في شعبية الشعر عند بعض الباحثين .

وكان للفصل الاول خاصاً باغراض هذا الاتجاه الشعرية كوصف الفقير
ومظاهره والحث على العمل والمدح والهجاء والرشاء ووصف تسلط المال
والتندر والفكاهة .

وكان الفصل الثاني منه خاصاً بالخصائص الفنية لذلك الاتجاه
كالتجديد في الاوزان واستعمال القصير منها وتطور القصيدة والمبالغة
وما الى ذلك .

اما الفصل الثالث والاخير فكان خاصاً بمواقف الشعراء الشعبيين
من الازواج المختلفة المحيطة بهم حيث استنتجنا ان مواقفهم كانت
ثلاثة : هي الموقف اللامبالي او الساخر والذي لم يكن يعبر تلك المشاكل
اي اهتمام او هو يبدو وكأنه لايعيرها اي اهتمام وانما كان في الحقيقة
يعبر عنها بطريقته الساخرة تلك ، واتخذنا لهذا الموقف مثالا ابدا لامة
زند بن الجون . وكان الموقف الثاني هو الحيادي السلبي وهذا يضم
شعراء الزهد لتلك الفترة الا بعض الاستثناءات في ذلك . وكان الموقف
الاخير هو الشاعر المتمرد الذي لم يكتف بالنقد والشعر والتعبير عما توجلت
منه الجماهير العريضة في ذلك العصر بل رفع السلاح فيوجه تلك الازواج
القاسية ، وكان ابو عطاء السندی مثالنا لهذا الموقف .

.....

.....

الباب الاول عوامل الاتجاه الشعبي

التمهيد : ثقافة العصر العباسي الاول

الفصل الاول : العوامل الاقتصادية

الفصل الثاني : العوامل السياسية

الفصل الثالث : العوامل الاجتماعية

تمهيد

نظرة على ثقافة العصر العباسي الاول

نحن الان امام عصر تشكلت مختلف مناحيه فاكتملت له خصوصياته
وبرزت معالمه واضحة للعيان . لقد انضوى عدد من الاجناس في ذلك
العصر تحت راية الاسلام اذ اصبحت تلك الشعوب تنتمي الى المجتمع واحد
بعد ان كانت من قبل متنافرة ودائمة الغارات والحروب ضد بعضها
البعض . ساعد دخولها تحت هيمنة الاسلام اذ على وجود نوع من الاستقرار
كان من قبل مفقودا في اغلب الاحيان . وطبيعي جدا في مثل هذه الحال
ان يتم الاحتكاك بين تلك الشعوب بالمخالطة والمصاهرة مثلا او بالجوار
او بالتحالف او بالموالاة الخ لقد انتشر الاسلام ايام الامويين
انتشارا سريعا فشمط مناطق شاسعة تسكنها مجموعة من الشعوب مختلفة
اللغات واللهجات . وبما ان الاسلام جاء بلغة العرب ، وخاصة القرآن
الكريم ، فان تلك الشعوب وجدت نفسها مدفوعة لتعلم اللغة العربية
حتى تستطيع القيام بأمورها الدينية والدينية معا خاصة اذا علمنا
ان حكام الاقاليم في العهد الاموي كانوا من العرب . وكان لابد من نشر
الاسلام وتعاليمه بتعليم القرآن والحديث والشريعة وما الى ذلك .
وهكذا نشأت العلوم الدينية في وقت مبكر اى في الوقت الذي
احتاجت فيه الشعوب الداخلة حديثا في الاسلام الى مشرعين لهذا الدين
ومعلمين له . حدث هذا في البدايات الاولى اما في العصر العباسي ، بعد
ان استقرت الاحوال والفا الناس الاوضاع الجديدة ، فقد تطورت الامور
وامبحت الشريعة مقننة مدونة تعاليمها . وكان من اهم نتائج ذلك الوضع
السياسي والاقتصادي والاجتماعي الجديد ان ظهرت المذاهب الاربعة (الحنفي ،
المالكي ، الشافعي ، الحنبلي) . وقد كان للحديث اثر كبير على نشوء

تلك العلوم الدينية ، فقد نال الحديث الشريف وهو احد مصادر التشريع الاسلامي ، القسط الوافر من الدراسات والتصنيف والتبويب وما الى ذلك حيث ظهرت في العصر العباسي الاول مجموعة من المصنفين منهم : عبد الملك ابن عبد العزيز بن جريح (١٥٠ هـ) ومعمار بن راشد (١٥٣ هـ) وسعيد بن ابي عروبة (١٥٦ هـ) والربيع بن صبيح (١٦٠ هـ) وحمام بن سلمة (١٦٥ هـ) وسفيان الثوري (١٦١ هـ) وعبد الرحمن الاوزاعي (١٥٧ هـ) والليث بن سعد (١٧٥ هـ) ومالك بن انس (١٧٩ هـ) وسفيان بن عيينة (١٩٨ هـ) وعبد الرزاق المنعاني (٢١١ هـ) وعبدالله بن مبارك (١٨١ هـ) وهشيم بن بشير (١٨٣ هـ) ويحيى بن زكريا بن ابي زائدة (١٨٣ هـ) ومحمد بن فضيل بن غزوان (١٩٨ هـ) ووكيع بن الجراح (١٩٦ هـ) وعبدالله بن وهب وغيرهم كثير (١) ...

وقد تناول هؤلاء المصنفون الحديث بتنظيمه وتبويبه وتأكيده وتفسيره اضافة الى شرح القرآن وتفسيره وذكر اسباب نزوله وما الى ذلك من العلوم الدينية الكثيرة جدا .

وكانت هذه الدراسات الدينية من الاسباب الهامة في تطور الدراسات اللغوية لدى العرب دون ان يكون لاي ثقافة اجنبية دور مباشر في ذلك خاصة في البدايات الاولى لان الامور فيما بعد تطورت اذ تأثرت تلك العلوم بثقافات اجنبية وخاصة الثقافة اليونانية .

لقد قلنا ان الدراسات الدينية كانت من اهم الاسباب في نشوء الدراسات اللغوية وذلك " لِحاجة الشعوب الاجنبية التي دخلت في الاسلام الى تعلم لغة القرآن الكريم ثم ما كان من شيوع اللحن على السنة الموالي المستعربين وعلى السنة بعض العرب انفسهم لاختلاطهم بالعناصر الاجنبية وما حدث من ضعف سلاقتهم بسبب تحضرهم " (٢) .

(١) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص : ١٢٧ اذ ارف بالمعارف بمصر ط ٦ قاهرة ٩٧٦

(٢) شوقي ضيف : المرجع نفسه ص : ١١٨

لقد برز الاهتمام بهذه الأمور منذ العصر الأموي وربما قبل ذلك كما في الرواية التي ترد نشأة النحو إلى علي بن أبي طالب وأبي الأسود الدؤلي .

لكن ازدهار هذه العلم اللغوية (اللغة - الشعر - النحو - الصرف الخ . .) قد تم فعلا في العصر العباسي الأول حيث انتظمت الدراسات فخصص بعض القوم في مختلف ميادينها . وقد نالت مدينتا البصرة والكوفة قصب السبق في ذلك ، حيث حدث احتكاك كبير فيهما بين مختلف الثقافات ، وهكذا حدثت حركة تأليف كبيرة في هاتين الحاضرتين كان من اعلامهما بالبصرة في علم اللغة ابو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ أو ١٥٩ هـ) وهو واحد القراء السبعة ، وخلف الاحمر (١٨٠ هـ) والأصمعي (٢١٢ هـ أو ٢١٤ هـ) وأبو زيد القرشي وابوعبيدة ومحمد بن سلام الجعفي ، اما في الكوفة فقد برز حماد الراوية والمفضل الضبي وابوعمر - الشيباني وابن الأعرابي ، والخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ) . اما علماء النحو فقد اشتهر منهم في البصرة عيسى بن عمرو الثقفني (١٤٩ هـ) وسيبويه صاحب الكتاب ، أما في الكوفة فأبو جعفر الرواسي ومعاذ بن سلم الهرازي والكسائي (١٨٩ هـ) والفراء (٢٠٧ هـ) وغيرهم كثير (١) ألف مصنفات عديدة في هذه المجالات بقي منها مجموعة لا بأس بها ، وان دلت على شيء فانما تدل على مدى التطور الحضاري الذي حدث في ذلك العصر .

كان انتشار الاسلام سريعا في بقاع عديدة فتعرب أهلها لسانا وفكرا بسرعة أيضا ، ودليلنا على ذلك كثرة المتخصصين في العلوم اللغوية والدينية من غير العرب ، فقد كان عدد منهم من الفرس ومن غيرهم من الجنسيات اضافة إلى ان الذين بقوا على دينهم تعلموا العربية أيضا وألفوا بها (٢) .

(١) - شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص : ١١٩ - ١٢٤

(٢) - المرجع نفسه : ص ٨٩ - ٩٢ .

ان هو٤٦ القوم الذين تعلموا العربية لم ينسوا علومهم وثقافتهم التي كانت موجودة قبل الاسلام ولم يهملوها بل حاولوا نقلها الى العرب بجميع الطرق ، وهكذا ساعد الاحتكاك المباشر بين العرب وغيرهم على دخول كثير من المفاهيم والمعارف على الثقافة العربية زيادة على حركة الترجمة التي كان لها دور كبير في نشوء بعض العلوم وفي تطور بعضها الآخر وازدهاره . لقد بدأت حركة الترجمة منذ عهد مبكر زمن الامويين واغلب الظن انها بدأت منذ الفتوحات الاولى التي قام بها المسلمون خارج جزيرة العرب كفارس ومصر . لكن الذي وصل اليها ان ماسرجويه ، السرياني اليهودي ، نقل الى العربية كتاب اهرن القس بن اعين ، ايام الخليفة الاموي مروان بن الحكم ، كما نقلت بعض كتب الطب والتنجيم والكيمياء لخالد بن يزيد بن معاوية الذي كان يبحث عن الذهب (١) ٠٠٠

ولعل السبب في قلّة الترجمة في ذلك العصر ان الدولة الاموية كانت دولة عربية خالصة بمعنى انها تعتمد في كل امورها على العرب وعلى المعارف العربية فقط ، ولعلها كانت ترى في الترجمة ما ينقص من هيبتها زيادة على ان العربية لم تكن قد تغلّغت بعد في نفوس المستعربين .

اما في زمن العباسيين الاوائل فقد تغيرت الامور واصبحت الترجمة احدى ميزات ذلك العصر الهامة ، وربما كان للدور الذي قام به الموالي على الصعيد العسكري والسياسي دخل كبير في ذلك ، فاننا نعرف جميعا ان الثورة العباسية نجحت على اكتاف الموالي والفرس منهم خاصة وهذا ما ازاح ذلك الحاجز الذي كان يشل حركتهم ويمنعهم من المشاركة الفعلية في الحياة بجميع مناحيها . ان الثورة العباسية ردت الاعتبار لاولئك الموالي وربما كانت الشعبية احدى النتائج الهامة لرد الاعتبار هذا .

(١) محمد نبيه حجاب معالم الشعر واعلامه ص : ٢٧ دار المعارف بمصر ط ٢
القاهرة ١٩٧٣

وشوقي ضيف المرجع السابق ص ١٠٩ .

ان الاسلام دين يشجع على طلب العلم ونشره ، ولذا كان من واجب المسلمين الأوائل الفاتحين ان ينشروا العلم وان يشجعوا الناس عليه ، فقد كانوا كلما فتحوا مصرا من الامصار ينشرون علمهم اولا ثم يأخذون ما وجدوه من علوم لدى تلك الشعوب . وقد كان بعض تلك الشعوب ذا حضارات عظيمة كالليونان والفرس والهند ، وهكذا راح العرب ينهلون من ذلك المعين الخصب على شرط الا يتعارض مع تعاليم الاسلام الحنيف . وفعلا ، فقد ترجموا ما يخدم الاسلام فقط ومن ذلك اهمالهم للادب اليوناني الذي كان فيه الكثير من الخروج على الروح الاسلامية ، وحتى الفلسفة اليونانية التي اولعوا بها جعلوها تتماشى مع الاسلام بدليل ان بعض الفلاسفة المسلمين حاول التوفيق بين الفلسفة والدين .

ان اهم ثقافة اشرت في الفكر الاسلامي هي الثقافة اليونانية وكل ذلك عن طريق الترجمة (١) المباشرة او غير المباشرة . وقد كان لمنطق ارسطو الحصة القصوى في ذلك التأثير اذ تأثرت به جميع العلوم العربية (٢) . اما الثقافة الفارسية فقد اشرت في السلوك العربي ايما تأشير اذ اخذ العرب عن الفرس كل ما يفيدهم في الحياة من نظم وعادات وتقاليد ومطعم وملبس (٣) الخ وبعبارة اخرى فانهم اخذوا عنهم الجانب المادي من حضارتهم بدليل كثرة المصطلحات الحياتية التي دخلت اللفظة العربية عن طريقهم . وكان الفرس من جهتهم اكثر الشعوب تأثرا بالاسلام وبالعرب ، فقد اقبلوا على الثقافة العربية ينهلون منها بنهم وشغف كبيرين ، فتعلموا اللغة وانظروها حتى ساروا من اشهر العلماء فيها وكان

(١) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ٩٦

(٢) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر وعلامه ص ٣٠

(٣) شوقي ضيف : المرجع السابق ص ٩٥

بعضهم ما زال يحافظ على لفته الفارسية فقاموا بنقل بعض علومهم السري
العربية (١) ..

اما الهند فقد كانت هي ايضا ذات حضارة عظيمة تجلت في الدراسات
اللغوية والفلسفية والسحر والتنجيم والقصص الشعبي ، وقد تأثر بها
العرب ايضا عن طريق الترجمة او الاحتكاك المباشر (٢) فقد كان للعرب
ولح شديد بالقصص الهندي ككتاب كليلة ودمنة والفليلة وليلة وقصة
هبوط آدم والسندباد الخ .. (٣) ..

وقد كانت الفلسفة الهندية قريبة من الانسان على خلاف الفلسفة اليونانية
التي اتجهت نحو السماء وقد كانت كثيرا ما تأتي في شكل حكم مجوكسة
اهتم بها العرب كثيرا واستفادوا منها (٤) ..

لقد انتقلت تلك الممارف والعلوم اذا عن طريق الترجمة التي كان
للخلفاء دور كبير فيها ، اذ شجعها العباسيون ، وقد اشتهر من الخلفاء
في هذا المجال ابو جعفر المنصور والمأمون ، ففي عهد المنصور ترجم
كتاب السند هند وهو كتاب في حركات الكواكب (٥) قام بترجمته ابراهيم
الفزاري ، ولما هرض المنصور بمعدته استدعي الطبيب جورجوس بن بختيشوع
الذي ترجم له عدة كتب في هذا المجال خاصة وان جورجوس هذا كان يعرف
من اللغات العربية واليونانية والفارسية والسريانية (٦) .

(١) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر واعلامه ص ٣٢

(٢) شوقي صيفه العصر العباسي الاول ص ٩٤

(٣) محمد نبيه حجاب : المرجع السابق ص ٣٨

(٤) محمد نبيه حجاب : المرجع السابق ص ٣٨

(٥) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٣٠-٥٣١ مط دار الفكر ١٩٦٣

(٦) انور الرفاعي : المرجع نفسه ص ٥٣٠-٥٣١

وكذلك ترجم له كليلة ودمنه والسند هند الانفي الذكر وترجمت
ايضا كتب ارسطاليس في المنطق وكتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الارشماطيسي
وكتاب اوتليديس الخ ٠٠٠ (١) ومن اشهر المترجمين قبل خلافة المأمون
يوحنا البطريق ومحمد الفزاري وعبدالله بن المقفع الذي ترجم اضافة
الركلية ودمنة كتب المنطق الثلاثة (المقولات) و (العبارة او
القضايا التصديقية) و (القياس) كما ترجم كتاب المدخل المعمروف
بابساغوجي لفورفوروريوس الصوري . وكذلك هورجيس بن جبريل ويوحنا بن
ماسويه ومالح بن بهلة ، صاحب الرشيد ، ومنكه طبيبه الهندي (٢) . ونقل
كذلك الحجاج بن مطر في عهد الرشيد كتاب اقليدس كما نقل بعض كتب افلاطون
واهم كتب جالينوس في الطب (٣) ٠٠٠

اما الترجمة في عهد المأمون فقد قفزت قفزة عظيمة وجبارة لان
ال خليفة اهتم بها اهتماما استثنائيا ، فقد كان مولعا بالعلوم كما نعرف
وكانت مجالسه تزخر بالعلماء من جميع الاصناف وقد خصص للترجمة دورا
وجلب اليها امهر المترجمين كما بعث في الافاق يطلب الكتب واجرى على القائمين
بتلك العملية ارضا حتى يتفرغوا لعملهم فقط (٤) .
لقد تطورت الترجمة في عهده كما ونوعا فمن حيث الكم ترجمت كتب عديدة
جدا في جميع التخصصات ومن حيث النوع اهتم المترجمون بالنقل السليم
للافكار ولم تعد العملية مجرد نقل حرفي كما كانت من قبل . واهم
المترجمين في عهده هم قسطا بن لوقا البعلبكي وعبدالمسيح بن ناعمة
الحمصي وحنين بن اسحق وابنه اسحق وثابت قرّة وحيي بن الاعمس (٥) ٠٠٠

(١) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ١١٠

(٢) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر واعلامه ص ٢٨

(٣) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٣١

(٤) انور الرفاعي : المرجع نفسه ص ٥٣٢

(٥) محمد نبيه حجاب : المرجع السابق ص ٢٩

واحمد بن محمد الفرغاني ويختيشوع جورججوس والحسن بن سهل بن نوبخت
وموسى بن شاعر وبنوه محمد واحمد والحسن وغيرهم ٠٠٠ (١)

وهكذا ساعدت الترجمة على تبلور بعض العلوم العربية التي ظهرت
بعد الاسلام وبسببه كعلم الكلام وعلوم اللغة عامة لان المسلمين لستم
ينشروا الاسلام وحده فقط بل كانوا اينما حلوا يبنون المساجد ، والمسجد
في القديم هو المدرسة التي تخرج منها الاف العلماء في جميع التخصصات ،
فبعد ان استتب الامر للمسلمين في البقاع المفتوحة ، "انشأوا في جميع
المدن المهمة مراكز للتعليم" ٠٠٠ (٢) ، والامر الذي ساعد ايضا على
ذلك هوشيوخ الورق وظهور المكتبات العامة ، فقد انشأ الفضل بن يحيى
البرمكي مصنعا للورق في بغداد وانشئت دار الحكمة منذ عهد الرشيد
وهي عبارة عن مكتبة ضخمة كانت تهتم بالكتب المترجمة يرتادها
طلاب العلم والمعرفة ، ومن ذلك ايضا مكتبة اسحاق بن سليمان العباسي
ومكتبة يحيى بن خالد البرمكي ومكتبة الواقدى المؤرخ المشهور (٣) ٠٠٠
وشيء كهذا كان لابد ان يؤثر في المصار الثقافية لتلك الحقبة
من تطور العرب والحضارة العربية خاصة وان العرب لم يقفوا عند ما ترجموه
لان الذي حدث انهم استفادوا كثيرا من ذلك التراث ثم تجاوزوه على عكس
ما حدث لاروپة في العصور الوسطى (٤) ٠٠٠
وتعددت مجالات التطور في ذلك العصر فظهرت في شكل علوم كثيرة لا فقد
ظهرت مثلا كتب التاريخ والسير والمغازى ، واشهر من كتب فيها قاضي

(١) انور الرفاعي الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٣٣

(٢) غوستاف لويون: حضارة الغرب ص ٤٣٣٠ ترجمة عادل زعيتر مط البابي

(٣) شوقي ضيفه العصر العباسي الاول ص ١٠٣

(٤) غوستاف لويون: المرجع نفسه ص ٤٣٤

المأمون محمد بن عمر الواقدى (٢٠٧ هـ) وتلميذه محمد بن سعد. (٣٠ هـ) (١) اما الفلك فقد بلغ اوجه في تلك الايام ، ومن اشهر علماء ذلك العصر في هذا المجال البتاني" الذي كان له من الشأن بين العرب ما لبطليموس بين الاغارقة" (٢) ٠٠ ونبغ فيه كذلك ابنا^٤ موسى بن شاكر الثلاثة الذين عينوا مبادرة الاعتدالين بضبط لم يكن معروفا من قبل ووضعا تقاويسم لاماكن النجوم وقاسوا عرض بغداد وقيدوه ٣٣ درجة و ٢٠ دقيقة اى برقم يصح بعشر ثوان تقريبا (٣) ٠ وقد اسس المأمون مرصدا كبيرا اوكل اشرافه الى يحيى بن ابي منصور واشتغل فيه مجموعة من مشاهير الفلكيين مثل علي بن عيسى الاسطرابي ومحمد بن موسى الخوارزمي والعباس بن سعيد الجوسرى ، وكان هذا المرصد بمثابة مدرسة كبيرة في الفلك تخرج المتخصصين في هذا العلم (٤) ٠٠

اما الرياضيات فقد كانت من الشهرة ما جعلها تنتشر بسرعة بين الناس ، وقد كان للعرب فضل كبير على الانسانية في هذا المجال ، فقد عرفت اروبسة الجبر عن طريقهم وعن طريق كتاب محمد بن موسى الذى امره المأمون ان يورثه بعبارة سهلة حتى يستفيد منه الناس (٥) ٠٠ اما في الهندسة فقد ادخلوا المماس الى علم المثلثات واقاموا الجيوب مقام الاوتار وطبقوا علم الجبر على الهندسة وحلوا المعادلات المكعبة وتعمقوا في مباحث المخروطات وحولوا علم المثلثات الكرية بردهم الى مثلثات الاضلاع الى وضع نظريات اساسية تكون قاعدة له" (٦) ٠٠٠

(١) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ١٢٥

(٢) غوستاف لويون : حضارة العرب ص ٤٥٧

(٣) غوستاف لويون : المرجع نفسه ص ٤٥٧

(٤) شوقي ضيف : المرجع نفسه ص ١١٥

(٥) غوستاف لويون : المرجع نفسه ص ٤٥٥

(٦) غوستاف لويون : المرجع نفسه ص ٤٥٥

ولاداعي لتعداد كل المجالات الاخرى التي برز فيها العرب كالطب والفيزياء والكيمياء والميكانيكا وماشابه ذلك ، فالمراد ان نبين مدى التطور الذي حصل في ذلك العصر بسبب تمازج الثقافات المختلفة مع بعضها بعض ..

وسوف يكون الشعر باعتبارها مجالا من مجالات الثقافة متأثرا حتما بهذه العلوم والاكتشافات فهو لايعيش بمعزل عن البيئة التي نشأ فيها . وهذا ما سنراه في الفصول القادمة .

ان هذه الحركة الكبيرة النشطة في مختلف المجالات جاءت نتيجة ظروف وعوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية مختلفة بحيث تضافرت كلها على انجاح الحضارة العربية وتطورها

.....

.....

الفصل الاول

الحالة الاقتصادية في العصر العباسي

الاول

=====

- اهمية دراسة الاوضاع الاقتصادية
- آ - الصناعة والتجارة
- ب - الزراعة والاقطاع
- ج - موارد بيت المال
- د - الخراج :

١ - تعريف الخراج

٢ - طرق الخراج

٣ - التشدد في الخراج

٤ - الزيادة في الخراج

٥ - خراج الاقاليم

- ظاهرة الاستصفاة

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXX

الحالة الاقتصادية

.....

مدخل: أهمية دراسة الأوضاع الاقتصادية

=====

تقاس المجتمعات في رقيها وانحطاطها بمستوى اقتصادها ومدى توزيع
فراغ هذا الاقتصاد على مختلف فئات الشعب ، فإذا حدث هذا
كان المجتمع راقيا يشعر فيه الجميع بالسعادة والرفاه والافهو مجتمع
محكوم عليه وعلى حكاه بالانحطاق والتدهور .
ان الظروف الاقتصادية تلعب دورا هاما في تشكيل عقلية المجتمعات ولذا
كانت دراستها والقاء الضوء عليها ضرورة في بحث كالذي نتناوله لاننا
سنركز اهتمامنا على جماعة من الشعراء قاسمهم المشترك هو المعاناة من الاختلال
الاقتصادي في عصرهم .

ولابد ان نحدد في البداية نموذج الاقتصاد في ذلك العصر اي بعبارة
اخرى ماهي ملامحه ومعالمه ؟ هل كان عبوديا او اقطاعيا او رأسماليا
ام كان كل هذه مجتمعة ؟ ان المتتبع لظواهر الاقتصاد في ذلك العصر يرى
ان الطابع المهيمن هو " اسلوب الانتاج اقطاعي المتداخل مع بقايا العبودية
المنحلة والقطاع التجاري المتنامي الى جانب نمو الصناعات الحرفية
المتطورة نسبيا ... (١) فالقطاع اذا كان يلعب الدور الاكبر في ذلك
العصر ، لا لكونه يحكم زمام الامور بواسطة فئة تحافظ على مصالحه بل
لان البروالة نفسها كانت هي المالك الاكبر والمستثمر الاول للاراضي المتمثلة
في قطاع الخليفة واهله واعوانه من وزراء وقواد وجميع رجال الدولة (٢)

(١) حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ج ٣ ص ٣٨ دار

الفارابي ط اولى بيروت ١٩٧٨

(٢) حسين مروة: المرجع نفسه ج ٢ ص ١٣ دار الفارابي ط اولى بيروت ١٩٧٩

ومن أجل هذا كانت الدولة تقوم من حين لآخر باستصلاحات مختلفة وتقييم أنظمة سقاية ذات حجوم ونوعيات عالية (١) لم تأت لصالح اليملاكين المتوسطيين والفلاحين الصغار بل جاءت لصالح الدولة نفسها حتى تزيد من إنتاج أراضيها. وهذا الاهتمام بالزراعة كان علو حساب القطاعات الأخرى كالصناعة والتجارة ملغى الرغم من أنها - أي هذه القطاعات - عرفت انتعاشا ملحوظا في ذلك العصر مما أدى إلى تطور الاقتصاد النقدي وازدهار رأسمال تجاري قوى ، الأمر الذي كان له دور كبير في تطور الدولة العباسية (٢) وكل هذه الأوضاع الجديدة تركت بصماتها واضحة على الحياة الاجتماعية في جميع ميادينها مما في ذلك الفن بجميع أجناسه المعروفة في ذلك العصر والفن أيضا لا يمكن إلا أن تنعكس عليه ظواهر عصره ومنها "الاعتبارات الاقتصادية المهيئة للظروف التي ينتعش بها" (٣) ولاداعي للاستشهاد هنا بالنظريات التي جاءت في هذا الصدد إذ يكفي أن في شعرنا القديم إشارات كثيرة إلى هذا الواقع سوف نتعرض لها فيما يلي من فصول .

آ - الصناعة والتجارة

=====

إلى جانب الحرف اليدوية التي تطورت كثيرا في العصر العباسي الأول نجد صناعات متطورة منتظمة نسبيا في مصانع منتشرة على امتداد الإمبراطورية الإسلامية شرقا وغربا (٤) . فقد برزت صناعة السكر في

(١) طيب تيزيني: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ص ١٨١ مط دار دمشق دمشق ١٩٧١

(٢) طيب تيزيني: المرجع نفسه ص ١٨٢

(٣) محمد نجيب البهبهتي: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٣٧٤ مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٥٠ .

(٤) طيب تيزيني: المرجع السابق ص ١٨٢ .

فارس ، ونهر الزجاج في سورية وفلسطين ، كما انتج الملون منه في بغداد
والبصرة ، وطور العرب صناعة الورق التي اخذوها عن الصينيين فظهرت
بأشكال مختلفة كالورق الحريري وورق الكتابة والورق المقوى الخ ...
وازدهرت صناعة الروائع والعمود وهي تتطلب معارف كيميائية دقيقة (١) ...
وتفننوا ايضا في صناعة الذهب كما استخرجوا " الفضة والنحاس والحديد
والخزف والمرمر ... والملح والكبريت ... والقار والنفط (٢)
وانشئت ايضا دور للطراز والسجاجيد والمنسوجات الصوفية (٣) على
اختلاف انواعها ، واشتهر نبيذ شيراز فصدز الى البلاد البعيدة (٤) وبذلك
اصبحت بغداد عاصمة الخلافة " مركز منطقة واسعة تضم مدنا صناعية
عديدة " (٥) وكانت هذه المصانع كلها تشغل يدا عاملة متنوعة من عرب
وموال ينتمون الى الشعوب التي دخلت في الاسلام حديثا .

(١) ي : هل : الحضارة العربية ص ٩٣ ترجمة احمد العدوي مكتبة الانجلو
المصرية القاهرة ١٩٥٦ و حين ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام الاجتماعي
والسياسي والثقافي ج ٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩ مكتبة النهضة المصرية
ط رابعة القاهرة ١٩٦٤

٢- سيديو : خلاصة تاريخ العرب : ص ١١٣ مط مصطفى فندي ط اولى القاهرة
١٣٠٩ هـ

(٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩

٤ - غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ١٧٣٠

٥ - ريجارد كوك : بغداد مدينة السلام ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ ترجمة فواد

جميل مط شفيق ط اولى بغداد ١٩٦٢ .

ويمكن تقسيم تلك الصناعات الى المجموعات التالية :

آ - الصناعات المعدنية في دمشق والموصل ، ففي الاولى صنعت الاسلحة

وفي الثانية صنعت الادوات النحاسية. (١)

ب - الصناعات النسيجية: حيث اشتهرت الانسجة الحريرية المشجرة في

الشام وفارس والانسجة الكتانية في مصر وفارس كذلك والاقمشة

القطنية في العراق وخراسان (٢) .

ج - الصناعات الغذائية : فقد منح الزيت وماء الورد في الشام وفارس

زيادة علمناعة العطور (٣) .

د - الصناعات المختلفة : فقد اشتهر الزجاج والصابون المصنعان في

الشام والبصرة ، والخزف والفخار في مصر وفارس والجلود والسروج

في الشام ايضا ومصر وكذلك صناعة القوارب والمراكب ... الخ (٤) .

اما المعادن فقد كانت تستخرج من مناطق عديدة توزعت كما يلي:

- المغرب العربي : الذهب والفضة والمرجان .

- مصر والسودان : الذهب والفضة والزبرجد والشب والنظرون .

- الشام : الحديد والرخام والكبريت .

- الكويت وعمان : اللؤلؤ .

- الحجاز : الذهب .

- اليمن : العقيق والعنبر .

- كرمان : الذهب والفضة والحديد والنحاس والنشادر .

(١) انور الرفاعي: الاطلام في حضارته ونظمه ص: ٣٠٢

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠١

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠٢

(٤) المرجع نفسه ص ٣٠٣

- فارس : الفضة والحديد والرصاص والكبريت .
- بلاد ماوراء النهر : الذهب والفضة والزئبق والفحم الحجري .
- خراسان : الذهب والفضة والفيروز والرخام وطين الختم والنشادر
والزئبق (١) ٠٠٠٠

ويبدو ان هذه الصناعات لم تكن كلها ملكا للدولة بل كانت ملكا
خاصا لبعض الناس بدليل الضرائب التي كانت تفرض عليها . وتجدر الملاحظة
ايضا الى ان هذه الصناعات كان اغلبها يتبع الطرق البدائية ان لم نقل
كأها وهذا يعني استخدام اليد العاملة بكثرة الامر الذي يولد علو امتداد
الامبراطورية الاسلامية فئة كبيرة للعمال من المفروض ان يكون لها دور
في الاحداث الكبيرة التي عرفتها المنطقة في ذلك العصر. ولكن هذا لا يعني
اننا نتناسى الفترة التاريخية اى ان القوة العاملة في تلك المرحلة
لم تكن تملك الوعي الكافي باهميتها وبيورها في المجتمع ، ومن المؤسف
ان المصادر القديمة لم تشر الى هذه الفئة ولا الى الظروف التي كانت
تعمل فيها ولا الى الاساليب المتبعة في العمل في مثل تلك الورشات .

وطبعي لدى وجود صناعة كهذه ان تنشط الحركة التجارية بين
اقاليم الدولة الاسلامية اولا وبين هذه الدولة ودول اخرى ثانيا ،
فقد اصبحت العاصمة بغداد " محطة البضائع المجلوبة ٠٠٠ وسوقا يتم
فيه تبادلها وشراؤها " (٢) ٠٠ .

ولهذا تعددت طرق التجارة بين هذه الاقاليم والدول ويكفي ان نتذكر
رحلات التجارة التي كانت العرب تقوم بها صيفا وشتاء على الرغم من قسوة
المساحة التي كانوا يحتلونها بالمقارنة مع ما صارت عليه الدولة الاسلامية
من اتساع وتنوع في العصر العباسي الاول .

(١) انور الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٩٦

(٢) ريجارد كوك : بغداد مدينة السلام ج ١ ص : ٦٩ - ٧٠

وهذه قائمة بالمواد التي كانت تجلب من البلدان المختلفة التي

بلاد الاسلام :

- آ - كانت تجلب من الهند مواد كالذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج
وخشب الصندل والتوابل (١) والياقوت والاماس والحقاير والارز (٢) .
- ب - وكان يجلب من الصين المسك والكافور والعود والحجارة الكريمة
والخزف (٣) وكثرت مواد الصناعة الصينية حتى اقيم بسبب ذلك
في شرقي بنداو سوق صيني كامل (٤) .
- ج - وكان يجلب مما يعرف الان بالاتحاد السوفييتي السمور الاسود وجليود
الخز والثعالب والبلور والرقيق (٥) .
- د - ومن بلاد ما وراء النهر كان يجلب الورق والسمور والسنجاب والثعالب
والمسك (٦) .
- هـ - ومن فارس الادهان والزيوت العطرية والقطن والصوف والحريير وسباك
الفضة والخفاف والسمور والامشاط والبسط (٧) .
- و - ومن الحبشة العقيق والعاج والجليود المدبوغة (٨) .

(١) انور الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص ٣٠٩ - ٣١١

(٢) انيس المقدسي : امراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ٥١ دار العلم
للملايين ط ١١ بيروت ١٩٧٧

(٣) انور الرفاعي : المرجع السابق ص ٣٠٩ - ١١

(٤) ي - هل : الحضارة العربية ص ٩١

٥ - انور الرفاعي: المرجع السابق ص ٣٠٩ - ٣١١

٦ - ٧ - ٨ - انور الرفاعي: المرجع السابق ص ٣٠٩ - ٣١١

- ي - ومن سواحل افريقيا الشرقية العطور والاطياب وخشب البنوس وريش
النعام والذهب والعاج اضافة الالرقيق الاسود (١) ...
- ك - ومن ارمينية البسط والوسائد والمقاعد (٢)
- ل - ومن مصر الحصر (٣) .
- ونظرا لكثرة هذه الواردات وتنوع مصادرها فقد فرضت على الاسواق ضريبة
كالتي فرضت على الارض ويروي (٤) ان اول من فعل ذلك هو الخليفة ابو
جعفر المنصور .

ب - الزراعة والاقطاع

=====

كانت الزراعة هي العمود الفقري في اقتصاد العصر العباسي الاول ولم
تكن هذه ميزة خاصة به وحده بل ان الانسانية كلها كانت تمر في ذلك الزمن
بالمرحلة نفسها تقريبا ، حيث كان اعتمادها الاساسي على الزراعة قبل
كل شيء ، وكذلك الحال في العصر العباسي مع العلم ان المناقشة على الرسم
من التطور النسبي ، لم ترق الى المستوى الذي يجعلها تأخذ الصدارة ، وكانت
الزراعة ايضا اكبر مصدر لجلب الاموال الى السلطة الحاكمة عن طريق
الضرائب المطبقة عليها . ومن هنا نعرف مدى الاهمية التي اعطيت
للزراعة كتشجيعها بجميع الوسائل (٥) ، حيث كانت الدولة ، كما قلنا سابقا

١٠ - ٢ - انور الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص ٣٠٩ - ٣١١

٣ - انيس المقدسي : امراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ٥١

٤ - محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية
ص ٤٣١ مط الانجلو المصرية ٢ القاهرة ١٩٦١

٥ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام الاجتماعي والسياسي والثقافي الخ ..

ج ٢ ص ٢٧٧ وانيس المقدسي : امراء الشعر العربي في العصر العباسي

هي المالك الاكبر للارض تتصرف فيها كما تشاء وكذلك تتصرف في المشتغلين فيها . ويمكن هنا ان نذكر قضية الاقطاعات المعروفة في ذلك العصر ، فقد ذكرت لنا مصادر التاريخ ان مناطق بكاملها كانت تقطع لبعض الاشخاص كتعويض على ولائهم للسلطان (١) .

وكانت الاراضي تؤخذ عنوة اذ كان بعض الولاة يفتصبها من اصحابها ويقطعها آخرين (٢) نظرا للاستغلال الذي كانوا يتمتعون به في اطار الدولة الواحدة . وهذا ما يسميه حسين مروة بالاقطاعية اللامركزية (٣) مما يساعد الولاة والعمال علو التحول الوملاكين كبار للارض ، ومن اجل المحافظة على مراتبهم تلك راحوا يرشون مركز السلطة في دار الخلافة بالاموال والهدايا التي اخذوها بالقوة من اصحابها ، فمن ذلك ان هارون الرشيد كان مرة جالسا للنظر في الهدايا وكان بجانبه يحيى البرمكي ، فقال الرشيد : " اين كانت هذه الاشياء ايام ابنك الفضل؟ فقال يحيى : اطال عمر امير المؤمنين ، لقد كانت هذه الاشياء ايام ولاية ابني الفضل في بيوت اهلها في مدن العراق وخراسان " (٤) . وكانت هذه الهدايا التي تحدث عنها الرشيد كثيرة جدا وربما غالى الرواة فيها بعض الشيء لكنها مع ذلك تبين لنا ان الولاة كانوا يأخذونها من اصحابها ويرشون بها الخليفة حتى يحافظوا على مراتبهم . وهذا يعني من جهة اخرى انهم كانوا يستعملون جميع الوسائل الممكنة للحصول على الاموال حتى

(١) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج ١ ص ٨٥ - ٨٦ مكتبة الخانجي ط اولى القاهرة ١٩٣١ .

(٢) ابو يوسف : كتاب الخراج ص : ٧٢ المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٦ هـ

(٣) حسين مروة : النزعات المادية ج ٢ ص ٢٤

(٤) البيهقي : تاريخ البيهقي ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ترجمة يحيى الخشاب وصادق

نشأت مك الانجلو المصرية ١٩٥٦ .

اشقلوا كواهل الفلاحين وجماهير الكادحين بالضرائب زيادة على سوء طرق جبايتها .

ج - موارد بيت المال

اهم موارد بيت المال في ذلك العصر هي الخراج والعشور (١) والزكاة والغنيمة والجزية والفيء والمكوس واحياء الموات واستخراج المعادن الخ ٠٠٠ (٢) ويمكن ان نعرف هذه الامور باختصار كما يلي:

١ - اما الشرف فهو ضريبة على الارض مقدارها عشر غلتها نقدا او عينا وهي تؤخذ على الاراضي التي اسلم اهلها وهم عليها بدون حرب، والتي ملكها المسلمون عنوة وقسمها الخليفة عليهم وارض الموات اذا كانت في ارض عشر الخ (٣) ٠٠

ب - اما الزكاة : فهي ضريبة فرضها الله على المسلمين جميعا وهي احد اركان الاسلام الخمسة التعبدية وهي ذات مصادر خمسة هي:

١ - زكاة السوائم والمواشي .

٢ - زكاة النقد (الفضة والذهب ، بعد ان يحول الحول ومقدارها $1/40$ او $2/5$ % .

٣ - زكاة التجارة ومقدارها $1/40$ او $2/5$ % بعد بلوغ النصاب وبعد ان يحول عليها الحول .

٤ - زكاة المعادن والركاز اي المعادن الغفل والكنوز .

٥ - زكاة الزرع والثمار بعد بلوغ حد معين (٤)

ويتم اتفاق الزكاة حسب قوله تعالى : " انما الصدقات للفقراء

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٧٧

(٢) غوستاف لويون : حضارة العرب من : ١٧٢

(٣) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٢٣ - ٢٢٥

- والمساكين والعاملين عليها والموظفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين
وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم (١٧) .
- ج - اما الغنيمة فهي ما يكسبه المسلمون في الحرب وهي تتكون من اربعة
اقسام هي : (اسرى ، سبي ، ارضين ، اموال) (١)
- د - واما الجزية فهي مبلغ من المال يدفعه اهل الذمة مقابل حماية
المسلمين لهم وهي تقابل الزكاة عند المسلمين وتسقط اذا اسلموا ولا
تؤخذ على النساء والصبيان والشيوخ الطاعنين والعميان والمجانين
ورجال الدين الخ . (٢)
- هـ - اما الفية فهو كل مال وصل من المشركين الى المسلمين عفوا من غير
قتال الخ . (٣)
- و - اما المكوس فهي ضريبة عن كل تجارة برا او بحرا وهي اعشار السفن
واعشار البضائع الواردة الى بلاد الاسلام واخماس المعادن الباطنة
وغلة المستغلات والاموال التي لا وريث لها وما يخرج من البحر الخ (٤)

ونظرا لاهمية هذا القطاع فقد اهتمت الدولة العباسية بالمسائل
المالية اهتماما بالغا ، ووضح دليل على ذلك هو البيانات المفصلة
التي وصلت الينا عن دخل الدولة العباسية والتي ذكرتها مصادر عديدة
عربية واجنبية (٥) . واما بيت المال ، نقدية او عينية ، كثيرة
جدا حتى تبدو خيالية لاتكاد تصدق ، فلوعرفنا فقط تركات الخلفاء ، وهي
مبالغ كانوا يقتطعونها من بيت المال ، بل كان بيت المال بيتهم
يتصرفون فيه كما يشاؤون ، لاندهشنا لتلك المبالغ ، فقد ذكر ان تركة
المنصور كانت ستمئة مليون درهم واربعة عشر مليون دينار فاذا فرضنا
الدينار مساويا خمسة عشر درهما كان المجموع (٨١٠) مليون درهما
واذا فرضنا الدرهم يساوي اربعة قروش مصرية ونصف القرش حاليا او خمسة

١ - ٢ - ٣ - ٤ - انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٢٣ - ٢٢٢

٥ - ي - هل : الحضارة العربية ص : ٨٩

(٦) - سورة التوبة ، آية (٦٠)

عشرة قرشا سوريا كان المجموع خمسمئة الف ليرة سورية ومئة وواحد وعشرين مليون ليرة سورية (١٢١٥ ٠٠ ٠٠٠) وهو مبلغ عظيم في ذلك الوقت ولاستبعد امكانية المقالات فيمثل هذه الأرقام لكن الدولة في ذلك الوقت امتدت رقعتها شرقا وغربا وشملت مناطق غنية ولم يكن الحصول على تلك المبالغ شيئا مستحيلا .

ويروى (١) أيضا ان المحمول الريت المال فيعهد الرشيد كان سبعة الاف وخمسة قنطارا سوريا وذلك يعادل الكثير غير الضريبة العينية التي تشمل الحبوب والانسجة وغيرهما. وقد بلغ دخل الدولة الاجمالي في عهد الرشيد في بعض السنين (٥٣٠ ٣١٢٠٠٠) درهما و (٤٥٠٠٠٠٠٠) دينارا (٢) هذا وكانت شركة الرشيد على الرغم من التبذير والاسراف اللذين شهرا بهما تسعئة مليون درهما (٩٠٠٠٠٠٠٠٠) درهما (٣) .

وكان اهم مورد لجلب المال هو الخراج ولذا سنتوقف عنده بعض

الشيء .

د - الخراج

أ- تعريف الخراج :

هو مقدار معين من المال او من المحصول او منهما معا يؤخذ عن الارض التي فتحها المسلمون عنوة اذا ما عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ، ويؤخذ عن الارض التي افاها الله على المسلمين

(١) احمد شلبي : في قصور الخلفاء العباسيين ص ٦٦-٦٧ مك الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٤

(٢) احمد فريد رفاعي : عصر المؤمن ج ١ ص ١٣٥ مط دار الكتب المصرية طبعة رابعة القاهرة ١٩٦٨ .

(٣) الجهشيارى : الوزراة والكتاب ص ٢٨٨ تحقيق مصطفى السقا ، مط مصطفى البابي الحلبي ط اولى القاهرة ١٩٣٨ .

فملكوها ومالحوها اهلها علما ان يتركوهم بخراج معلوم يوءدونه اللى بيت المال (١) اما الارض التي لاخراج عليها فتسمى عشيرة حيث تأخذ الدولة عشر منتوجها .

٢- طرق الخراج :

كان الخراج منذ فجر الدولة الاسلامية الى عهد الخليفة المهدي يستعمل طريقة المساحة ومعناها ضربية معينة تقدر عليها مساحة معينة من الارض تجبى سنويا دون النظر الى العوامل الطبيعية والظروف الخاصة بالارض واصحابها (٢) والتي كانت تؤثر على انتاج الارض اذ كثيرا ما كانت تختلف كميات المحصول من سنة لآخرى، لكن الدولة لم تكن تراعى ذلك حيث بقيت الضريبة ثابتة ، وفي هذا اجحاف وضرر لاهل الخراج .

ولما تولى المهدي الخلافة اراد ان يبدأ عهده بتحسين ظروف معيشة الرعية حتى يمتص غضبها ونقمتها وحتى لا يترك للخصوم فرصة يوءلبون بها الناس على السلطة او منفذا للداعيين الى العدالة يدخلون منه في صراع مع العباسيين ونفوذهم . بدأ عهده اذا بالعدول عن نظام المساحة والعمل بنظام المقاسمة (٣) ، فحدث بذلك تطور بالغ الاهمية بين السلطة والرعية لان هذا النظام كان عموما ومن حيث المبدأ ، يسالح الفلايين والمزارعين ، حيث تتقاسم الدولة مع الافراد المنتجين ما ينتج من محصول بنسب متفق عليها بغض النظر عن مقدار المساحة وبهذا يتغير الخراج بتغير كميات المحصول (٤)

(١) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٢٦٥ مكتبة النهضة المصرية ط ١ اولى القاهرة ١٩٣٩

(٢) ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية في الدولة الاسلامية ص ٤١٧

(٣) ضياء الدين الرئيس : المرجع نفسه ص ٤١٦ - ٤١٧

٤- ضياء الدين الرئيس : المرجع نفسه ص : ٤١٧

وقام بتنفيذ هذا النظام ابو عبيد الله ، وزير المهدي ، فحدد
نسب المقاسمة كما يلي : النصف على الاراضي التي تسقى سيحا (١) والثلث
على الاراضي التي تسقى بالدوالي * والربع على تلك التي تسقى بالدوالي (٢).

٣- التشدد في الخراج :

رأينا من قبل ما امتلأت به خزائن الدولة من مبالغ ضخمة وكان
اغلبها جاء من الخراج الذي كان ينقل سنويا الى مركز الخلافة بعد ان
يصرف شيء منه على الاقاليم وكان في كل اقليم عامل او عمال يقومون بجباية
الخراج وكانت مهمتهم هي الحصول على الضريبة المفروضة بشتى الوسائل
والطرق ومنها التعذيب الجسدي بجميع اصنافه ، فقد ذكر الجهشيارى (٣)
ان المهدي امر ان يعامل اهل الخراج باللين واليسر ويحث بالرسل الى
جميع العمال برفع العذاب عنهم ، وهذا دليل واضح على ان المزارعين
كانوا يعذبون في جميع الاقاليم . لم يستفد المزارعون من هذا القرار
العادل لان المصادر التاريخية تثبتنا انهم بقوا يعذبون على امتداد
الدولة الجاسية . كان هذا القرار شعاع نور بسيط في ليل طويل
من الظلم والاضطهاد والتعسف في جباية الخراج ، جعل خزائن الدولة
تمتلئ بالدراهم وبتنانير الذهب على حساب الجماهير الكادحة .
وبهذا وقعت الدولة في خطر كبير ، فانها كها للمزارعين هو انهاك لها
ايضا ، اذ جلا اكثر الناس عن الاراضي بسبب القهر وثقل الضرائب فتركوها
خرابا . ولعل اصدق تعبير عن هذه الفكرة ما قاله جعفر بن يحيى من ان :

(١) سيحا : اي تسقى بالماء الجاري (لسان العرب)
* الدوالي : جمع دالية وهي شيء يتخذ من خوصه خشب يسقى به بحبال تشد
في رأس جذع طويل (كتاب الخراج ليحيى بن آدم تحقيق ابي الاشبال
احمد محمد شاكر ص ١١٥ المطب السلفية القاهرة ١٣٤٧ هـ .
(٢) ضياء الدين الرئيس الخراج والنظم الاسلامية ص ٤٢
(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٤٢-١٤٣

" الخراج عماد الملوك واسرع الامور فيخرب البلاد تعطيل الارضيين وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور ، ومثل السلطان اذا اجصف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الارضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع ، فهو ان شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية اخرى ، وما ادخل على نفسه من الضعف والوجع اعظم مما دفع عن نفسه من الم الجوع
وانا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الارضين فيتركونها فتخرب الارض ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ويضعف الخراج وينتج من ذلك ضعف الاجناد وانما ضعف الجند طمع الاعداء فيها للسلطان" (١) .

ولاهمية الخراج طلب هارون الرشيد من ابي يوسف ، قاضي القضاة ان يولف له كتابا فيهذا الشأن ، وموضوعات هذا الكتاب تفنينا عن التعليق عليه حيث تتناول موارد بيت المال والطرق المثلي لجبايتها والشؤون التي تصرف فيها . لكن الذي يهمننا منه ان صاحبه شاهد معاصر على الاساليب البشعة التي كان يتبعها عمال الخراج في الحصول على الاموال حين يقول : " انهم - (عمال الخراج) - يأخذون ذلك فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي" (٢) ويقول ايضا : " انهم يقيمون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار مويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله ، شنيع في الاسلام" (٣) .
حدث كل هذا بعد ان اصدر المهدي امره بالكف عن تعذيب المزارعين الذين كانوا قبله يعذبون بالسباع والزنابير والسناير. (٤)

-
- (١) الايشيبي : المستطرف فيكل فن مستطرف : ج ١ ص ١٠٨ مط دار الفكر بيروت ممورة عن مط الاستقامة مصر ١٣٧٩ هـ .
 - (٢) ابو يوسف : كتاب الخراج ص ١٢٨
 - (٣) ابو يوسف : المرجع نفسه : ص ١٣١
 - (٤) الجبشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٤٤ - ١٤٣

ونجد على امتداد العصر العباسي الاول نصوصا كثيرة تدل على التشدد واستعمال جميع الطرق والحيل لاختاد اموال الناس ، ففي سنة (١٥٥ هـ) لجأ المنصور الرحيلة اراد بها معرفة عدد سكان البصرة والكوفة حتى يجيبهم عن اخرهم ، فأمر ان يقسم فيهم خمسة دراهم لكل فرد ، فلما عرف عددهم امر بجبايتهم اربعين درهما لكل فرد فقال شاعر منهمم بسخرية مؤلمة: (١)

يا قرومي ما لقينا من امير الموء منينا
قسم الخمسة فينا وجانا الاربعينا

ويذكر الكندي (٢) ان موسى بن مصعب تشدد في استخراج الخراج بمصر وزاد على كلفدان ضعف ما تقبل به ولجأ الى الرشوة في الاحكام وجعل ضريبة على الاسواق والدواب مما جعل الشاعر يقول :

لويعلم المهدي ما الذي يفعله موسى واويوب
بأرض مصر حين طلابها لم يتهم فيالمنح يعقوب

وطبعي ان امرا كهذا كان سيواجه من قبل المزارعين والفلاحين بالرقص الذي يتمثل عادة في الامتناع عن دفع الخراج اولا ثم الثورة على صاحب تلك القوانين الجائرة ثانيا .

وهذا الخليفة هارون الرشيد نفسه عندما عاد مرة الوريغداد من احدى رحلاته اخذ الناس بالبقايا فتم استخراجها بالضرب والحبس. (٣) وفي عهده ايضا اساء واليه على المؤمل ، يحيى بن سعيد ، السيرة في اهلها وظلم الناس وطالبهم بخراج سنين مضت فجلا اكثر اهل البلد . (٤) وفي عهد الرشيد كذلك عين على خراج مصر اسحاق بن سليمان الهاشمي

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك: ج ٨ ص ٤٦ تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٧ وابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٥ مط دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥
(٢) الكندي: الولاة والقضاة ص ١٢٥ مط الاباء اليسوعيين تهذيب رفن كست بيروت ١٩٠٨
(٣) الطبرى : المصدر السابق ج ٨ ص : ٢٧٢
(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ج ٦ ص : ١٥٣

بعد عزل عبدالله بن المسيب، فأخذ اسحاق هذا في عادة النظر في امر
اخراجها فلم يرضه ما كان يوافقهم من قبل وزاد عليهم زيادة فاحشة
فكرهه الناس لذلك توسلوا به فخرجت عليه جماعة من اهل الحوف من قبيلتي
قيين وقضاة فحاربهم (١) وكان على عترة اسان علي بن عيسى الذي قتل
اهلها وجمع اموال اهل جليلة وحملها الى الرشيد الفدرة حربية فيها عشرة
الاند درهم (٢) وفي زمن الواثق بالله كان محمد بن عبدالملك الزيات يعذب
المصادرين والناس في تنور به مسامير (٣) *

هذه فكرة بسيطة عن الاساليب التي كان يلجأ اليها عمال الخراج
والولاة في استخراج الخراج من المزارعين ، وامر كهذا كان لابد ان يعود
على الاقتصاد الوطني للدولة الاسلامية بنتائج سلبية لان تلك القوانين
الجائرة والتي اثقلت كاهل الفلاحين جعلتهم يرحطون ويتخلون عن
فلاحة الارض زيادة على الثورات التي تسببت فيها تلك المعاملات القاسية *

٤- الزيادة في الخراج:

هذا التشدد في جباية الخراج مرده الى ان المزارعين لم يكونوا
يستطيعون دفع ما فرض عليهم من الضرائب التي كان بعض العمال او الولاة
يزيدون فيها باستمرار ، فنتج عن ذلك كثير من التذمر الذي تلته الانتفاضات
والثورات *

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٢

ص ٨٧ دار الكتب المصرية ط اولى القاهرة ١٩٣٠

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٢٨

(٣) ابن الطقطقي : الفخرى في الاداب السلطانية ص ٢١٤ المط الرحمانية

والامثلة علنتك الزيادة المجحفة في الخراج كثيرة جدا فكما ذكرنا سابقا لم يرض والي مصر ، اسحاق بن سليمان ، بما كان يؤخذ من قبل فزاد على القوم زيادة ادت بهم الى الخروج عليه ومحاربتة (١) وامتنعوا مرة اخرى عن اداء ضريبة الخراج في ولاية الحسين بن جميل مما اضطر الدولة العمبارتتهم واخذها بالقوة (٢) وحتى الخليفة المأمون نفسه له قصة مع اهل قم الذين طمعوا في ان يخفض عنهم الخراج كما فعل مع اهل الري ، لكنه لم يستجب لطلبهم ، فامتنعوا عن تادية ما فرض عليهم فوجه المأمون اليهم الجيوش وزاد عليهم في الخراج فجاءوا سبعة الاف درهم بعد ان كانوا يتظلمون من الفي الف درهم (٣) .

ولاداعي للكثار من الامثلة ففي هذا الكفاية ، والملاحظ ان المصادر ذكرت لنا احوال اهل مصر اكثر من غيرهم حتى بدوا وكأنهم هم وحدهم الذين كانوا يثورون علنتك القوانين الضريبية الظالمة ، لكن ممن المؤكد ان سكان الاقاليم الاخرى كانوا يلجؤون ايضا الى الثورة اذا ما احسوا بالظلم علنتا الرغم من ان المصادر لم تذكر ذلك الا قليلا لان الكتب التي وصلت اليها كتبها اما مصريون او عراقيون بمعنى اخر كتبها من كانوا يسكنون مصر او العراق ولم يقيض للاقاليم الاخرى رجال ليكتبوا عنها او ان ما كتب عنها قد ضاع لان العادة عند المؤلفين القدامى جرت على كتابة تواريخ الاقاليم كتاريخ الموصل او تاريخ واسط ومما لذلك .

(١) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص : ٨٧

(٢) الكندي : الولاة والقضاة : ص : ١٤٣

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٦١٤

٥ - خراج الاقاليم :

كان خراج الولايات اما نقديا او عينيا أوهما معا ، وكان هذا الخراج يوعى به الدار الخلافة بغداد في اوقات محددة . ويذكر لنا الثعالبي نماذج من ذلك ، فقد كان يحمل سنويا ثلاثون الف تفاعه مع خراج حمص ودمشق الذى بلغ اربعمئة الف دينار (١) . وكان خراج الاهواز سنويا خمسة وعشرين الف درهم مع ثلاثين الف رطل من السكر (٢) ، وكان يحمل مع خراج ارمينية والذى قدره ١٣ الف الف درهم ثلاثون بساطا محفورا وثمانون قطعة من الرقم وثلاثون بازيا ، وكان خراج اصبهان واحدا وعشرين مليون درهم مع عشرين الف رطل من العسل ومثلها من الشمع (٣) . ويبلغ خراج الموصل اربعة وعشرين مليون درهم مع عشرين الف رطل من العسل (٤) وحمل من الرى مئة الف من الرمان والفوطل من الخوخ المقدم مع خراجها الذى كان اثنى عشر مليون درهم (٥) . اما مصر فقد كان يضرب بها المثل في الكثرة عينا ونقدا ، فقد كانت الخيل والدواب ودق الطرز مع خراجها الذى بلغ فويعض السنين اربعة ملايين دينار (٦) .

-
- (١) الثعالبي: ثمار القلوب فيما المضاف والمنسوب ص: ٥٣٢ تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، دار نهضة مصر ١٩٦٥ م
 - (٢) المرجع نفسه ص ٥٣٧
 - (٣) الثعالبي : المرجع نفسه ص ٥٣٨
 - (٤) الثعالبي : المرجع نفسه ص ٥٣٨
 - (٥) الثعالبي: المرجع نفسه ص ٥٣٩
 - (٦) الثعالبي : المرجع نفسه ص ٥٣٠

وربما كانت هذه الأرقام مبالغا فيها غير ان كتب التاريخ حفلت
لنا قاعدتين للخراج فيعهدى الرشيد والمأمون تؤكدان العهد هذه الأرقام،
والملاحظ ان القاعدتين متشابهتان وربما كانتا في عهد خليفة واحد ، وهما :

أولا : صورة لقائمة منقواعم الخراج فيعهد الرشيد (١) :

٨٠ ٧٨٠ ٠٠٠	درهم	١ - اثمان وغلالت السنواد :
١٤ ٨٠٠ ٠٠٠	"	٢ - ابواب الممال بالسواد :
١١ ٦٠٠ ٠٠٠	"	٣ - كسكر :
٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	"	٤ - كوردجاجة :
٤ ٨٠٠ ٠٠٠	"	٥ - حلوان
٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	"	٦ - الاهواز
٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	"	٧ - فارس :
٤ ٢٠٠ ٠٠٠	"	٨ - كرامان
٤٠٠ ٠٠٠	"	٩ - مكران
١١ ٥٠٠ ٠٠٠	"	١٠ - السند ومايليها :
٤ ٦٠٠ ٠٠٠	"	١١ - سجستان
٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	"	١٢ - خراسان
١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	"	١٣ - جرجان
١ ٥٠٠ ٠٠٠	"	١٤ - قومس
٦ ٣٠٠ ٠٠٠	"	١٥ - طبرستان والريان ودنياوند
١٢ ٠٠٠	"	١٦ - الرى
١٢ ٠٠٠	"	١٧ - اصفهان
١١ ٨٠٠ ٠٠٠	"	١٨ - همذان ودستبي
٢٠ ٧٠٠ ٠٠٠	"	١٩ - البصرة والكوفة

٢٠ - شهرزور وما يليها	٢٤.٠٠٠ ٠٠٠ درهم
٢١ - الموصل وما يليها	= ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠
٢٢ - الجزيرة والديارات والفرات :	= ٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠
٢٣ - اذربيجان	= ٤ ٠٠٠ ٠٠٠
٢٤ - موغان وكرخ	= ٣٠٠ ٠٠٠
٢٥ - جيلان	(مئة رأس الخ ٠٠)
٢٦ - ارمينية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم
٢٧ - قنسرين والعواصم	٤٩٠ ٠٠٠ دينار
٢٨ - حمص	= ٣٢٠ ٠٠٠
٢٩ - دمشق	٤٢٠ ٠٠٠ دينار
٣٠ - الاردن	= ٩٦ ٠٠٠
٣١ - فلسطين	= ٣٢٠ ٠٠٠
٣٢ - مصر	= ١٠٩٠٠ ٠٠٠
٣٣ - برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم
٢٤ - افريقية	= ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠
٢٥ - اليمن سوى الثياب	٨٧٠ ٠٠٠ دينار
٣٦ - مكة والمدينة	= ٣٠٠ ٠٠٠

ويكون الورق * مع العين اوقيمة العين : خمس مئة الف الف
وثلاثين الف الف وثلاث مائة الف واثنى عشر الف درهم اوبلغة عصرنا :
خمس مئة وثلاثون مليون درهم وثلاث مئة واثنى عشر الف درهم .
صورة اخرى لقائمة من قوائم الخراج ولكن في عهد المأمون : (١)

* الورق : الدراهم المضروبة وربما سميت الفضة ورقا (لسان العرب)

(١) احمد فريد الرفاعي : عصر المأمون : ج ١ ص ٣٢٠ - ٣٢٢

درهم	٢٧٨٠٠٠٠٠٠	١ - السواد
=	١١٦٠٠٠٠٠٠	٢ - كسكر
=	٢٠٨٠٠٠٠٠٠	٣ - كوردجانة
=	٤٨٠٠٠٠٠٠	٤ - حلوان
=	٢٥٠٠٠٠٠٠٠	٥ - الالهسواز
=	٢٧٠٠٠٠٠٠٠	٦ - فارس
=	٤٢٠٠٠٠٠٠٠	٧ - كرمان
=	٤٠٠٠٠٠٠٠	٨ - مكران
=	١٦٥٠٠٠٠٠٠	٩ - السند وسايليه
=	٤٠٠٠٠٠٠٠٠	١٠ - سجستان
=	٢٨٠٠٠٠٠٠٠	١١ - خراسان
=	١٢٠٠٠٠٠٠٠	١٢ - جرجان
=	١٥٠٠٠٠٠٠٠	١٣ - قومس
=	٦٣٠٠٠٠٠٠٠	١٤ - طبرستان والريان ودينباوند
=	١٢٠٠٠٠٠٠٠	١٥ - السرى
=	١١٣٠٠٠٠٠٠٠	١٦ - همذان
=	١٠٧٠٠٠٠٠٠٠	١٧ - البصرة والكوفة
=	٦٧٠٠٠٠٠٠٠	١٨ - شهرزور
=	٢٤٠٠٠٠٠٠٠٠	١٩ - الموصل ومايليهها
=	٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٠ - انريجان
=	٣٤٠٠٠٠٠٠٠٠	٢١ - الجزيرة
=	١٣٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٢ - ارمينية
=	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٣ - برقة
=	١٣٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٤ - افريقية

دينار	٤٠٠ر٠٠٠	٢٥ - قنسرين
=	٤٢٠ر٠٠٠	٢٦ - دمشق
=	٩٧ر٠٠٠	٢٧ - الاردن
=	٣١٠ر٠٠٠	٢٨ - فلسطين
=	٢٩٤٠ر٠٠٠	٢٩ - مصر
=	٣٧٠ر٠٠٠	٣٠ - اليمن
=	٣٠٠ر٠٠٠	٣١ - الحجاز

ويكون المجموع بالدراهم بعد تحويل الدينار على اساس ان الدينار يساوي ١٥ درهما : اربع مئة وثمانية وتسعين مليون وثمان مئة وخمسة وخمسين الف درهم اي : (٤٩٨٨٥٥٠٠٠) درهم .

و - ظاهرة الاستصفاة

=====

انها ظاهرة قلما نجا منها وزير حتى في العصور المتخلفة للدولة العباسية ولعل السبب في ذلك دون تعميم - يعود العتكال اولئك الوزراء على جمع الاموال بشتى الطرق مطبقين بذلك مبدأ الخليفة المنصور نفسه حين اوصى ابنه المهدي بانه لا يزال عزيزا مادام بيت ماله عامرا (١) وهي ظاهرة قديمة بدأت مع فجر الدولة الاسلامية فقد كان عمر بن الخطاب يحاسب الولاة لدى عزلهم ويأخذ منهم ما زاد على اموالهم الاصلية ، اما في العصر العباسي الاول فانها سنة سنبا ابو جعفر المنصور بعزل وزيره المورباني ومصادرتة واستصفاة ماله ووجهه (٢)٠٠ ولاتهمنا كثيرا الاسباب

(١) ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٤١٥

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ٢٤

التي كان الخلفاء يعزلون من اجلها وزراءهم فرما كانت وجيهة كشكوى الناس من ظلم بعضهم ويطشه وربما كانت ذاتية او لظروف سياسية معينة او فقط من أجل الحصول على المال لان هذه الظاهرة عمت بعد ذلك سائر رجالات الحكومة بل وحتى الرعية واصبحت اسرع مصدر للحصول على المال، (١) لكن الذي يهمننا هو تلك الاموال المقدسة التي وجدت عندهم لدى عزلهم واستصفاهم . من اين اخذوها وكيف تحصلوا عليها ؟ فقد عزل المهدي ابراهيم بن صالح واليه علم مصر واخذ منه ومن عماله ثلاث مئة الف دينار . (٢) اما جعفر بن يحيى فقد وجد فيداره بركة فيها اربعة الاف دينار وزن كل واحد منها مئة دينار ودينار كتبه على الوجه الاول منه :

يلوح على وجهه جعفر

واصغر من دار الملوك

وعلى وجهه الثاني كتب :

أذا ناله معسر يسر (٣)

يزيد على المئة واحدا

ويروى ايضا ان عثمان بن عمار كان على سجستان ايام الرشيد فطولب بخمسة الاف درهم وحبس، (٤)

وفي عهد المأمون طغى والي اذربيجان ، علي بن هشام ، طغيانا شديدا فظلم الناس واخذ منهم الاموال مما حمل المأمون على قتله، (٥)

(١) احمد فريد رفاعي: عصر المأمون ج ١ ص ٣١٢

(٢) ابن تغرى بردى : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٩ وما بعدها

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٤١

٤ - ابن الجراح : الورقة ص ١٦ تحقيق عبدالوهاب عزام وعبدالستار فراج مط دار المعارف ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٣

٥ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٢٦

وفى أيام المعتصم عزل الوزير الفضل بن مروان وصور فأخذت منه أموال كثيرة يقول البيهقي (١) أنها بلغت مليوناً وستمائة الف دينار بينما يقول ابن تغرى بردى (٢) أنها كانت عشرة الاف دينار *

أما الواثق فقد التفت الى الكتاب فحبسهم، فقد أخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين الف دينار ومن سليمان بن وهب أربعة عشر الف دينار، ومن إبراهيم بن رباح وكتابه مئة الف دينار ومن أحمد بن الخصيب وكتابه طيون دينار و من نجاح ستين الف دينار ومن ابي الوزير مئة وأربعين الف دينار (٣) *

كما لاحظنا من قبل كانت الاموال التي تاتي الى دار الخلافة كثيرة جدا ومع ذلك فقد كان الخلفاء يلجؤون الى ظاهرة الاستصفاة هذه وذلك لانهم كانوا بحاجة الى المال باستمرار وهذا ينتج عن سوء التخطيط لانهم لم يعرفوا كيف يستفيدون من تلك الاموال ثم انهم كانوا يبذرونها في وجوه لانفع عاما فيها بل كان بعضهم يصرفها على ملذاته ويهمل حق الشعب في تلك الاموال ، هذا مع العلم ان الفقه الاسلامي حدد وجوه صرف اموال المسلمين. وكانت هذه التحديدات معروفة لكن احدا لم يكن يطبقها من الخلفاء العباسيين الا في بعض الامور النادرة *

(١) البيهقي : المحاسن والمساويء ص ٥٣٠ دار صادر بيروت ١٩٧٠

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩٣٣

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ج ٧ ص ١٠

الفصل الثاني الحالة السياسية

.....

- ١ - تمهيد :
- آ - تنظيم الدعوة العباسية
- ب - الفتك بالأمويين

٢ - مواجهة السياسية :

- آ - تدمير الناس من بني العباس
- ب - الحزب الحاكم : العباسيون
- ج - احزاب المعارضة :
- ١ - الشيعة
- ٢ - الخوارج
- د - الثورات والانتفاضات .

.....

.....

تمهيد :

دام حكم بني امية حوالي مئة عام اي منذ مقتل علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الى ان انتصر السفاح علي مروان بن محمد ، لكن في الحقيقة دام حكمهم اكثر من ذلك ، فمنذ ان اصبح عثمان بن عفان خليفة وشوكتهم تزداد قوة ، فجعلوا من الشام مركزا لهم وبقي معاوية ابن ابي سفيان فيها مدة طويلة يتصرف وكأنه هو الخليفة .

لقد عانى الشعب خلال حكمهم وعرف الويلات تلو الويلات وخاصة اولئك الواقدون الجدد على الاسلام اذ كانت دولة بني امية تتعصب للعرب ولعل هذه المقولة التي اطلقها الجاحظ فيها شيء من المبالغة لان العرب لم يستفيدوا من بني امية اللهم اولئك الاغنياء الذين هم في اغلب الاحيان رؤساء قبائل ، اما عامة العرب فكانت كغيرهم من الموالي .

لقد ناقض الامويون تعاليم الاسلام باحياء عصبية القبليّة ويكفي ان نذكر نقاش جرير والفرزدق والانس ومدى انتشار انصار كل واحد منهم بين الناس لمعرفة مدى تلك الهوة التي حفرها بنو امية حتى يستطيعوا السيطرة على الملك لانهم كانوا يضررون العصبية بعضها ببعض فيلهو القوم عن المطالبة بتحسين اوضاعهم وما شبه ذلك .

ثم ان بني امية هم اول سلالة حكمت المسلمين والعرب و جعلت الخلافة وراثية فيياسرة واحدة مما جعل الثورات عليهم تزداد يوما بعد يوم وخاصة من قبل الخوارج والشيعة حتى او هنوهم وتسببوا في انهزام اخيرا امام بني العباس .

أ - تنظيم الدعوة العباسية

ليس في نيتنا ان نخوض في هذه المسألة التي تحدث عنها عدد كثير من الباحثين لكننا مع ذلك نقول ان الدعوة العباسية استفادت جدا من الحركات الثورية قبلها واعتبرت بها فتجنبنا الاخطاء التي وقعت فيها تلك الثورات ، كانت الحركات من قبل تأتي محدودة في الزمان والمكان اكانها تنحصر في منطقة كالحجاز او الشام وترتكز في غالبيتها على العصبية العربية ولم تكن لها الجيوش الكافية والمنظمة تنظيما يساعدها على مواجهة القوات الحكومية علرغم من شجاعة افرادها وصحة مبادئهم وبكلمة واحدة كان ينقصها التخطيط الكافي المتناسي الذي ياخذ بالحسبان جميع الاحتمالات ويحتاط لشتى الظروف حتى يكسب لها النجاح .

الحركة العباسية قديمة فالزمن اي ليست وليدة الفترة التي طفت فيها على السطح . كان القاسمون عليها يخططون فيصمت متبعين مبدأ الشقية حتى حانت الفرصة المناسبة فانقضوا على اعدائهم وخصومهم الامويين ولولا كفاءتهم لما استطاعوا التغلب عليهم فمن ذلك انهم اهتبلوا الفرصة التي كان فيها البيت الاموي ضعيفا منقسما على نفسه .

لانريد ان نبحث في الاسباب التي جعلت الثورة العباسية تعتمس لكن لبا س لو قلنا انها كانت نهاية الثورة العباسية ، اعلنت برنامجا خاصا ساعدها على الانتصار بحيث استطاعت بفضلها ان تكسب الجماهير وان تجلب اليها العديد من المتذمرين ، واهم ما في هذا البرنامج هو تغيير الاوضاع التي كان يعيشها المجتمع العربي الاسلامي آنذاك فقد كانت الدولة تعامل المسلمين من غير العرب على انهم في مستوى اقل من العرب ، وكانوا

يحرموننا المناصب والمصروفات ، اما العرب فقد كانوا يقاسون من الظلم
ايضا وعدم تطبيق الشريعة الاسلامية فجميع الامور زيادة على الاوضاع
الاقتصادية المتردية التي كانوا يعانون منها جميعا ، عربا وغير عرب

واستغل العباسيون ورقة اخرى رابحة وهي قرابتهم من الرسول
صلى الله عليه وسلم ، ونحن نعرف مدى احترام الناس لهذه القرابسة
وكيف كانت وما زالت مشغلا يحرك الجماهير ويدفع في قلوبهم الشجاعة
والحرارة والطمأنينة ، كانوا يتبركون بهذه القرابة ويرون فيها خلاصا
لهم ولانفس ان شعار الدعوة العباسية كان : " الرضا من آل محمد " .

وكان ظاهر البرنامج براقا فقد كان العباسيون ينادون بحقهم
الوراثة في الخلافة على الرغم من ان الرسول (ص) نفى ان يورث
الانبياء ، وكانوا يروجون ان بني امية سلبوا السلطة وليسوا باهل
لها وانهم ظلموا الناس وقهروهم واثقلوا عليهم بالضرائب ؛ استغل
العباسيون اذا كل تلك الاوضاع ، فقد وجدوا في السخط العام على بنى
امية خير معين يستقون منه الانصار ويكونون منه الجيوش ويجمعون الاموال
الامر الذي جعل هذه العناصر التي دخلت حلبة الحكم والسياسة ومنهم
الفرس - تلعب في مستقبل الدولة العباسية ادوارا خطيرة وتحتل المناصب
العالية حتى استحوذت على السلطة في اخر المطاف .

واشترك اخيرا في الثورة الفقراء والمعدمون من فلاحين وعبيد ،
والاغنياء المتوسطون الذين لم يكن لهم نفوذ في العهد الاموي ، والعرب
وغير العرب اضافة لجميع الفئات التي كانت شائرة من قبل على
الامويين .

بعد انتشار الثورة حصر العباسيون السلطة فيهم بعد ان كانوا
ينادون للرضا من آل محمد فابعدوا الشيعة بمختلف فروعها . وبدهي

انهم جعلوا هذا الرضا منهم ، وكان عليهم حينئذ ان يظهروا بمظهر
الائمة الاتقياء ، الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى هذا
الاساس كان لخلفاء بني العباس وجهان بعد تلك الدعاية الضخمة التي
قاموا بها اثناء ثورتهم من ان اولئك الملوك الامويين ابتعدوا بالخلافة
الاسلامية عن اصولها وجعلوها كسوية وراثية ، وبعد كل هذا نجس
للعباسيين حياتين ، عامة وخاصة . فمن جهة كان حكمهم يتخذ صيغة
(التيقراطية) بمعنى انهم خلفاء الله في ارضه وكانت هذه الصيغة
هي ، الشكل التاريخي (الايديولوجي) لهذه السيطرة (١) ومن جهة
ثانية كانت لهم " شخصية مستورة هي شخصية الملوك المترفين
المدفوعين اجتماعيا وموضوعيا لان يستمتعوا بكل ماتحت ايديهم من
الخيرات المادية التي تجبى لهم من جهد الاخرين " (٢) .
وقد وقع العباسيون فيما لمزالق نفسها التي وصوابها النظام السابق ،
فقد ادى نظامهم الى " حكم استبدادي من طراز اكاسرة الفرس السابقين " (٣) .

(١) حسين مروة : النزعات المادية في الفلسفة الاسلامية ج ٢ ص ١٩٨

(٢) المرجع نفسه : ج ١ ص ١٩٨

(٣) ي - هل : الحضارة العرقية ص : ٨١

ب - الفتك بالامويين
=====

كانت معركة الزاب هي الفيصل في الصراع الذي برز الى السطح بين العباسيين والامويين ففيومها انهزمت جيوش مروان بن محمد اخسر خلفاء بني امية وتفرقت فلوله وبدأ الانتقام الكبير من المنهزمين حتى ان بعض المؤرخين يسمي اول خليفة عباسي بالسفاح لكثرة ماسفك من دماء بني امية واعماله السيف فيهم (١) وان كانت هناك تفسيرات اخرى لهذا اللقب .

وامر السفاح ولاته في الامصار والاقاليم بتتبع الامويين والقضاء عليهم اينما كانوا ، واستغل بعض الشعراء هذه المناسبة فراحوا يحرضون على قطع شجرة بني امية واستعمالها ، فقد ذكر ابن الاثير ان سديفا الشاعر دخل على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد اكرمه فقال سديف :

ان تحت الضلوع داء دويبا

لايغرنك من ترى من رجال

لاترى فوق ظهرها امويبا

فضع السيف وارفع السوط حتى

فقال سليمان : " قتلتنيواشيخ " . ودخل السفاح واخذ سليمان فقتل (٢) . وهناك رواية اخرى تحكى ان الشاعر العبدى دخل على عبدالله بن علي بفلسطين وعنده من بني امية لؤثان وثمانون رجلا فانشد الشاعر قائلا :

(١) سيديو: خلاصة تاريخ العرب ص ١٠٦

(٢) ابن الاثير : الكامل ٤٢٩/٥ وابن الطقطقي : الفخرى في الاداب السلطانية

اما الدعاة الى الجان فهاشم
بنو امية دوحة ملعونة
أ أمي مالك من قرار فالحقي
ولئن رحلت لترحلين ذميمة

وبنو امية من دعاة النار
ولهاشم في الناس عود نزار
بالجن صاغرة بأرض وبار
وكذا المقام بذلة وصغار

فأمر عبدالله بنده فوضعوا على بني امية العمدة حتى ماتوا . (١)
وثمة رواية اخرى حول عبدالله بن علي بفلسطين حين دخل عليه شبل بن
عبدالله مولى بني هاشم وعنده من بني امية ثمانون رجلا فانشد
شبل هذه الابيات وهم على الطعام: (٢)

لا تقبلن عبد شمس عثارا
اقصم ايها الخليفة واقطع
ذلها اظهر التودد منها
ولقد غاظني وغاز سرائي
انزلوها بحيث انزلها الله بدار الهوان والاتعاس

واقطن كل نقلة وغراس
عنك بالسيف شافة الارجاس
وبها منكم كحر الجواسي
قريبهم من نمارق وكراسي

وقال احد شيعة بني العباس كذلك: (٣)

اياكم ان تلينوا لاعتذارهم
لو انهم امنوا ابدوا عداوتهم
اليس في الف شهر قد مضت لهم

فليس ذلك الا الخوف والطمع
لكنهم قمعوا بالذل فانقمعوا
سقوكم جرعا من بعدها جرع

(١) ابن رشيق : العمدة في صناعة الشعر ٤٧/١ تحقيق محمد محي الدين

عبد الحميد مط حجازي ط ١ القاهرة ١٩٣٤

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٤٣/٥ ونسبها ابن المعتز الى سديف

ابن ميمون (طبقات الشعراء ص ٣٩ دار المعارف ط ٢ القاهرة ١٩٦٨

(٣) الاصفهاني: الاغانى ج ٤ ص ٣٥١ طبعة مصورة عن دار الكتب .

حتى اذا ما انقضت ايام مدتهم
هيهات لابد ان يسقوا بكأسهم
متوا اليكم بالارحام التي قطعوا
ريا وان يحصد الزرع الذي زرعوا
قد حكموا ثم ماضوا ولا نفعوا

ولكن يجب الا نظن ان هؤلاء الامويين قتلوا بسبب هذا الشعر فما قبول
سديف وشبل الا حلقة بسيطة في سلسلة الانتقام التي كان يبنيها
لها العباسيون منذ زمن طويل والتي اوجبتها ظروف موضوعية وذاتية
معاً في حركتها التي كانت تتجه نحو التدمير والدمار

العباسيون - الواجهة السياسية

آ - تدمير الناس من بني العباس :

قبل ان نتحدث عن الاحزاب السياسية في العصر العباسي الاول لابد
لنا من نظرة سريعة عن موقف الناس من العباسيين والذي يمكن ان
يدفعهم لان يتضمو لهذا الحزب او لذاك . لقد انتصر العباسيون بسبب
برنامجهم المعلن وهو (الدعوة للرضا من آل محمد) حيث يجلب هذا
الرضا الطمأنينة للعباد ويقيم العدل والعدالة بينهما ويرسي
المساواة التي نادى بها الاسلام والتي خرج عنها بنو امية فينظرون
الكثير من الشعوب الداخلة في الاسلام حديثا ، فمن ذلك ان نشطت
ظاهرة استفحلت فيما بعد وهي ظاهرة الشعوبية التي ينظر اليها
الكثير من الباحثين على انها سلبية وهي كذلك غير انها جاءت نتيجة
ظروف معينة تسببت فيها سياسة الامويين من قبل والعباسيين من بعد ،
وكانت من بعض معانيها الاستقلال الوطني والوطنية .

جاءت الدعوة العباسية اذا مضمحا لمختلف الشعوب التي كانت تهيمن

عليها السيادة الاموية ، دعوة تفاعل الناس بقراية القاعمين عليها
من الرسول (ص) ، وكانت آمالهم عريضة في التغيير من ذلك الوضع
ونشدان المثل الاعلى للعدالة والمساواة .

وبعد فترة استتب الامر للحكام الجدد وهلل الناس لذلك لكن انكشف
الامر في فترة قصيرة وجلا كل خفي فتبين للقوم ان ليس " جور النظام
العباسي وعسفه ... بأقل من النظام الاموي . " (١) فبعد سنة واحدة
فقط من تولي بني العباسي السلطة بقيادة السفاح " خرج شريك بن شيخ
المهري ببخارى على ابي مسلم ونقم عليه وقال : ما لك هذا اتبعنا آل
محمد ، ان تسك الدماء وان يعمل بغير الحق ، وتبعه على رأيه اكثر
من ثلاثين الفا ... " (٢) وهكذا بدأ التذمر ينتشر شيئا فشيئا
بين الناس حتى تحول فيما بعد الى ثورات كثيرة انهكت الدولة العباسية .
فقد ذكر الامعي ان المنصور " لقي اعرابيا بالشام فقال : احمد الله
يا اعرابي الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا اهل البيت ، قال : ان
الله لا يجمع علينا حشفا وسوء كيل بولايتكم والطاعون " (٣) .
وهذا دليل واضح على ان الناس لم يكونوا راضين عن ولاية بني العباس
والاسباب التي دعت الناس الى السخط كثيرة منها ظلم الولاة في جباية الخراج
والزيادة فيه كما ذكرنا سلفا ومنها الزيادة في الاسعار مثلا حيث يقول
ابو العطاء السندی :

شاکر مصطفى: دولة بني العباس ج ١ ص : ١٧٠ - ١٧١ طبع وكالة المطبوعات

ط اولی الكويت ١٩٧٣

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٤٤٨

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٧ مط دار الفكر ١٩٧٤

بنى هاشم عودوا الى نخلاتكم فقد قام بحر التمر ما ما بدرهم
فان قلت رهط النبي وقومه فان النصارى رهط عيسى بن مريم (١)

ولاننى ان هذا الشاعر مدحهم فيما لبداية ثم انقلب عليهم حين لم يجد
في حكمهم خيرا هو من حقه ان يكون كذلك فعوض ان يزيد العباسيون
من رهاوية الرعية باتباع سياسة حكيمة في الامور الاقتصادية ، وجدنا
الخليفة المنصور يلزم الناس بلبس القلائس الطوال التي كانوا يعملونها
من القصب والورق ويكسونها بالسواد ، شعار العباسيين ، حتى قال ابودلامة
ساخرا : (٢)

وكنا نرجي من امام زينة فزاد الامام المصطفى في القلائس
تراها علوهام الرجال كأنها دنان يهود جلت بالبرانس
ونخب العباسيون كذلك رجاء القوم في اقامة العدل والمساواة بينهم
حتى قال ابو العطاء السندی مرة اخرى : (٣)

ياليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

(١) يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة الوتباية القرن الثاني الهجرى
ص ٤٣٩ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨ م

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٤٤ وابن الاثير : الكامل
٦١/٥ والحصرى القيرواني : جمع الجواهر في الملح والنوادر (ذيل
زهر الاداب) ص ١٠٧ مط عيسى البابي الحلبي ط ١ القاهرة ١٩٥٢
وابن كقرى بردى النجوم الزاهرة ٢٠/٢

(٣) شاعر مصطفى : دولة بني العباس ج ١ ص ١٧١

ويماثله حسرة مطيع بن اياس حين يقول : (١)

حذا عيشنا الذى زال عنا حذا ذاك لاحذا ذا
اين هذا من ذاك سقيا لذا ك ولسنا نقول سقيا لهذا

وتتساوى الامر فيعين المستهل بن الكميت حين رأى ان العباسيين لم
يغيروا شيئا من شقاء الناس وخوفهم حين يقول : (٢)
اذا نحن خفنا فهزمان عدوكم وخفناكم ان البلاء لراكد

هذا الحنين الذى نلمسه فيشعر هو "علاء الشعراء" الى العهد السابق
ليس في الحقيقة حيننا العالماضي وتتمنيا برجوعه لكنه يأس من الحاضر
ومرارة منه لانهم حين شعروا بالظلم اثناء الحكم السابق ثاروا عليه
واستطاعوا ازاحته ، اما الحكم الجديد فقد خدعهم بشعاراته بحيث
ساعدوه على الاستيلاء على السلطة ومن هنا جاءت خيبتهم لان لهم يدا في
هذا الوضع الجديد ، حينئذ شعروا بالمسؤولية فاحتد المزارع في انفسهم
وراحوا في لحظات اليأس الكبرى يتمنون عودة الحكم السابق ويبكونه .
لكنهم مع ذلك تحلوا بشجاعة نادرة عند اعلامهم على سنخهم ، وتعددت الامثلة
في التمردى للسلطان لدى عامة الناس فقد ذكر الطبرى ان المهدي خطب
يوما فقال : " عباد الله ، اتقوا الله ، فقام اليه رجل فقال : وانت
فاتق الله ، فانك تعمل بغير الحق " (٣) ولقي مرة شعيب بن حرب
هارون الرشيد فقال له : " يا هارون ، قد اتعبت الامة والبهاكم ، فقال :
ممن الرجل؟ فقلت : رجل من المسلمين " (٤) .

-
- (١) البهيتي : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٣٧٣
(٢) ابن الجراح : الورقة ص ٨٣
(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ١٨١/٨
(٤) شوقي ابو خليل : هارون الرشيد ص ٤٨ دار الفكر ط اولى دمشق ١٩٧٧

ولم ينحصر هذا السخط في الخلفاء فحسبك تعداهم الى كل من له علاقة بالسلطة من امراء وقواد وعمال وولاة الا ان الناس كانوا يرجعون اللوم كله الى الخليفة ، رأس السلطة ، الذي عينهم جميعا كما قال احد الشعراء : (١)

ان الامير اذا استعان بخائن كان الامير شريكه في المأثم
وقريب من هذا المعنى ما قاله احمد بن ابراهيم : (٢)

اميرنا يرتشي وحاكمتنا يلوط والرائش شر مارأس
وانفجر هذا السخط لديه حتى قال من القصيدة نفسها : (٣)

انطقني الدهر بعد اخراس لنا عيات اطلن وسواسي
لا احسب الجور ينقضني وعلى الامة وال من آل عبيد اساس
ويثور بعينهم الاخر على النظام الملكي من اساسه ويرى فيه الشر اينما
حل مستفيدا بذلك من اى القرآن الكريم كما يقول الشاعر (٤) .
ان الملوك بلاء حيثما حلوا فلا يكن لك في افنائهم ظل

-
- (١) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس : ق ١ ص ٥٧٤ تحقيق محمد مرسى الخولي الدار المصرية للتأليف والترجمة
 - (٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص : ٣٢٩ المطبعة البهية المصرية القاهرة ١٣٤٦ هـ
 - (٣) المسعودى : المصدر نفسه ج ٢ ص : ٤١ واين العماد : شذرات الذهب في اخبار من ذهب / ٤١/٢
 - (٤) ابن عبد البر القرطبي : المصدر السابق ق ١ ص ٣٤٠ .

ب : الحزب الحاكم : العباسيون

ان التركيبة السياسية في العصر العباسي متشعبة متعددة معقدة كتفقيدهم مجتمعهم نفسه ، لكننا لو نظرنا الى واجهتهم السياسية لوجدناها تزخر بما يلي : حزب حاكم واحزاب معارضة فيها الثوري وفيها المسالم وفيها السرى وفيها الذى يعمل في وضخ النهار ، لان بني العباس لم يلقوا ابدا التأييد الكامل اللهم الا في ايامهم الاولى حيث كان لهم انصار كثيرون ، وبفضل قوة اولئك الانصار استطاعوا ان يمتلوا العرش لمدة من الزمن طويلة لانجد لها مثيلا لدى السلالات الاخرى التي وصلت الى الحكم في تاريخ العرب ، وان كان عصرهم الذهبي يتمثل في القرن الاول لخلافتهم الممتدة ما بين حكومي السفاح والواثق حيث كان الخليفة هو صاحب الكلمة المطلقة وصاحب الامر والنهي دون منازع ، وكان مطاعا تنفذ اوامره بقوة السيف في جميع الاقاليم التابعة لامبراطوريته لا يكاد يشاركه في الرأي احد ، وكان مستبدا يقتل من يشاء ويمنح الحياة لمن يريد ، يفتي من يشاء ويفقر من يشاء . كان له في ذلك القرن مهابة كبيرة فينفوس الناس لكنه تحول مع الايام الى لعبة طيعة في يد الطامعين في الحكم والمتسلطين عليه من ترك وفرس وغيرهم حتى صار القواد العسكريون يعينون الخليفة ويعزلونه ما ارادوا ذلك فوضع الخليفة كرمز لاغير لاسباب سياسية دون ان يكون له ادنى نفوذ .

ومنذ البداية وحتى في عصرهم الذهبي كان الصراع حادا وشرسا بين العباسيين انفسهم حول السلطة ، وقد بلغ عددهم كما يذكر ابن الاثير في عهد المأمون ثلاثة وثلاثين الفاء (1) وطبيعي ان يدخل الطمع السوس نفوس بعضهم وما الذي يمنعهم وهم الاسرة الحاكمة ؟ وهم رهط الرسول

(صلى الله عليه وسلم) وقومه ؟ لقد امتلأت فترة حكمهم بالدسائس
والمؤامرات وتلك شجرة دخل منها الوهن اليهم واسهم في تحطيمهم وفي
جعلهم في النهاية لعبة بين ايدي العسكريين ، وكان للخلفاء انفسهم
اليد الطولى في ذلك دون ان يشعروا ، فمن كقاعص نظامهم انهم لم يضعوا
قواعد ثابتة لولاية العهد ، اذ كانت حسب المصادفة وليس حسب
قواعد ثابتة وقوانين واضحة ، حيث لم تكن ولاية العهد للابن الاكبر
داعما بل كانت احيانا للابن الاوسط والاصغر دون الاكبر وقد تكون لصلاح
او لابن الاخ او العم او ابن العم الخ ، زيادة على انها لم تكن تحصر
في شخص واحد بل كان يعهد بها في الوقت نفسه لاثنتين او ثلاثة بالتسلسل .
ولعل عذرهم في هذا هو خوفهم مما يخبئه الخد فقد يحدث مكروه لولي العهد
دون ان يسمي ولي عهده حين يتولى السلطة كما حدث للهادي *

والان لو نستعرض بسرعة مشكلة ولاية العهد في العصر العباسي الاول
وما حدث بسببها ، من مؤامرات ودسائس وحروب وما انعكس عنها من وييلات
على الرعية لعرفنا مدى الخطأ الذي وقع فيه النظام العباسي ، فقد عهد
ابو العباس السفاح بولاية العهد لاختية ابي جعفر المنصور ومن بعده
لابن اخيه عيسى بن موسى بن علي الملقب بالمرتضى (١) غير ان ابا جعفر
نقض العهد كما هو معروف ولجأ الجميع الوساط من تهديد ومراوغة وضغط
وترغيب حتى اضطر المرتضى ان يتنحى في النهاية فبايع المنصور لابنه
محمد وسماه المهدي ، واما في عهد المهدي فقد بدأت المؤامرات في حياته
حول السلطة فقد سمى ابنيه الهادي وهارون بالتسلسل مما اضطره
في النهاية الى تنحية ابنه الاكبر تحت الحاح زوجه واعوانها غير ان
الابن رفض الامر فخرج الاب اليه . لكنه مات في الطريق ، وما ان وصل الهادي
الى الحكم حتى بدأ مناورات من اجل تنحية اخيه هارون الرشيد وتعيين

(١) عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الاول : ص ١٢٣ مكتبة الانجلو المصرية
طبعة اولى القاهرة ١٩٧٣ .

ابنه بدله ، لكن المنية عاجلته هو الآخر قبل ان يتم له ذلك فآلت
الخلافة الى الرشيد (١) .

وعلى الرغم من ان الرشيد عانى من مشكلة تعدد اولياء العهد
الا انه لم يعتبر بها حتى عرف الناس اكبر مخنة بسببه حين عين ابنا
الثلاثة الامين والمأمون والقاسم حتى قال بعض الشعراء في ذلك (٢)
اقول لغمة في النفس مني ودمع العين يطرد الظرادا
خذى للجهول عدته بحزم سلقى ما سيمنعك الرقادا
فانك انيقيت رأيت امرا يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى بقسمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بسلام لبيض من مفا رقه السوادا
اراد به ليقطع عن بنييه خلاقم وبيتذلوا السوادا
فقد غرس العداوة غير آل واورث شمل الفتهم بدادا
والقح بينهم حرا عوانا ولس لامتنا بهم القيسادا
فويل للرعية عن قليل لقد اهدى لها الكرب الشادا
والبسها بلاء غير فان والزمها التضضع والفسادا
سنجرى من دماغهم بحور زواخر لا يرون لها نفسادا
فوزر بلائهم ابدأ عليه اغيا كان ذلك ام رشادا

وكما قال الشاعر فان الضحية الاولى لذلك الصراع هي الرعية
لانها ليس لها من يحميها من المتصارعين . لقد كانت الرعية ميسدان
صراعهم مع ان الرعية لم يكن يهمها لمن يول الامر لانها كانت تعلم
ان ذلك الصراع لن يعود عليها بخير سواء انتصر هذا الفريق ام ذاك .

١ - عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ١٢٣ وما بعدها

٢ - الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٧٧

وربما كان هذا موقفا سلبيا من الرعية لكننا لانلومها لو عرفنا ان الظروف لم تساعدنا بحيث لم توجد لها قيادة يمكن لها ان تستغل الظروف وتنقض على السلطة لتعيدها الى الشعب ، لان الرعية في جميع العصور تحتاج الرعية لتوجيها نحو اهداف معينة. لكن في ذلك العصر نجد ان هم الرعية قد دوما في ان تعيش في سلام وفي ان تنوش لها اسباب الحياة الكريمة كما قال الشاعر : (١)

اذا العيش ساعدنا سنا نبالي من كان الامامنا

لانها فعلا لم تريحنا من الصراع الدائر حول السلطة الا المتاعب فقد كثر الفقر والبضائع كما قال عمرو بن عبد الملك الوراق : (٢)

لم يبق في بغداد الا حروء حافلة الفقر كثير العيال
ان صار ذا الامر الرحد صار الوالقتل علوكل حال
ما بالنا نقتل من اجلهم سبحانك اللهم يا ذا الجلال

واحسن وصف للدمار الذي لحق بالناس هو ما قاله الاعمى من قصيدة رائعة : (٣)

تقطعت الارحام بين العشائر واسلمهم اهل التقى والبصائر
فذاك انتقام الله من خلقه بهم لما اجترموه من ركوب الكبائر
فلا نحن اظهرنا من الذنب توبة ولا نحن اصلحنا فساد الضرائر
ولم نستمع من واعظ ومذكر فينجع فينا وعظناه وآممر
فأبك على الاسلام لما تقطعت عراه ورجى ضره كل كافر

(١) مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ١٨٤
مط دار المعارف القاهرة ١٩٦٣

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٤٦٠

(٣) الرفاعي : عصر المأمون ج ٣ ص ٣٠٥ - ٣٠٦

فمن بين مقهور عزيز وقاهر
ومار رئيس القوم يحمل نفسه
ولا يستطيع البر دفعا لفاجر
تمته لا تلوى عا زجر زاجر
تسك على اقترانه بالخناجر
كريم ومن جار في مجاور
فيبكي لها من حمة كل ظائر
وتبكي عليه بالدموع البوادر
فغيب عني اليوم عزي وناصري
وقتل وانهاب الهوى والذخر
خرجزلا خمر ولا مأزر (١)
ثوافر امثال الطباء النوافر
وملهى رأته عيلاه وناظر
ويدد منها الشمل حكم لقادر
فأضحوا احاديثا لباد وحاضر

فاصبح بعض الناس يقتل بعضهم
ومار رئيس القوم يحمل نفسه
فلا فاجر للبر يحفظ حرمة
تراهم كامثال الذئاب رأات دما
واميح فساق القبائل بينهم
فابك لقتلى من صديق من أخ
ووالدة تبكي بحزن على ابنها
وذات خليل اصحت وهي ايسم
تقول له قد كنت عزا وناصر
وابك لاحراق وهدم منازل
وابراز ريات الخدور حواسر
تراها حيارى ليس تعرف مذهبا
كان لم تكن بغداد احسن منظرا
بلى هكذا كانت فأذهب حنتها
وخط بهم ما خط بالناس قبلهم

ان هذه القصيدة تبين لنا مدى بشاعة الحرب الاهلية التي يختفي فيها
النظام وتتعطل فيها جميع النشاطات كما قال الخريمي : (٢)

الكرخ اسواقه معطلة يستن عيارها وعابرها

وهناك قصيدة اخرى تصف لنا حياة الناس اثناء تلك المحنة وهي شبيهة
بقصيدة الاعمى ولكن لامانع من ذكرها وهي لاحمد فتيان بغداد (٣) :

(١) الشطر الثاني في هذا البيت مكسور وربما كانت (ولا بمازر)

(٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ٣١٠

(٣) الرفاعي: عصر المأمون ج ٣ ص ٣٠٧ - ٣٠٨

فقدت غمارة العيش الانيق
ومن سعة تبدلنا بضيق
فأثنت اهلها بالمتجنيق
ونائحة تنوح على غريق
وباكية لفقدان الشفيق
مضمخة المجاسد بالخلوق
ووالدها يفر الى الحريق
مضاحكها كلالاة البروق
عليهن القلائد في الخلق
وقد فقد الشفيق من الشفيق
متاعهم يباع بكل سوق
بلا رأس يقارعة الطريق
فما يدرون من اي الفريق
وقد هرب الصديق من الصديق

بكيت دما علويغداد لما
تبدلنا هموما من سرور
اصابتها من الحصاد عين
فقوم احرقوا بالنار قسرا
ومأخضة تنادي واصباحا
وحوراء المدام ذات كل
تفر من الحريق الى اب
وسالبة الغزالة مقل
حيارى كالهدايا مبك
ينادين الشفيق ولاشقر
وقوم اخرجوا منظل دني
ومثرب قريب الدار ملقى
توسط من قنالهم جميعا
فلا ولد يقيم على ابيه

وفي الحقيقة ان هذه القصائد تغنينا عن ذكر الالهوال التي تعرضت
لها الجاهير اثناء تلك المحنة والتي لم يسلم منها احد .

ج - الاحزاب المعارضة :

١ - الشيعة :

لعل الشيعة اقدم حزب سياسي عربي تطور مع تطور الدولة العربية منذ
عهد آخر الخلفاء الراشدين وحتى الان علما الرغم من انقسام الشيعة
الى عدة فرق تبدو مختلفة في ظاهرها لكنها متفقة في الجوهر والهدف .
نشأت هذه الفرقة بسبب الصراع على الخلافة التي كانت ترى ان احقيتها

تمود الى علي بن ابي طالب كرم الله وجهه وولده بعده لأن عليا وولده يمثلون النسل المباشر للرسول (ص) عن طريق ابنته فاطمة الزهراء .

وقد كان للشيعة دور كبير في الثورات التي قامت ضد بني أمية فلحققتهم بسبب ذلك مصائب جمة فمات منهم خلق كثير قطلا وغدرا وكانت مصارعهم مآسي عظيمة حتى كتب ابو الفرج الاصفهاني - وهو أموي الولاء - كتابا بعنوان " مقاتل الطالبين " .

وكان لهم كذلك دور كبير في انتصار العباسيين على أساس أن الدعوة كانت للرضا من آل محمد ، ولم يكونوا يشكون في أن هذا الرضا منهم غير ان الظروف والمصادفات لعبت دورها في انتقال رئاسة تلك الثورة منهم الى العباسيين ، وبعد ما أنفرد بنو العباس بالسلطة وتبين كل شي* وظهروا ما كان خفيا ثار الشيعة من جديد لكن هذه المرة على بني عمومتهم غير أن كل ثوراتهم باءت بالاخفاق على الرغم من أن بعضها كان عارما واجتاح مناطق عديدة كما بقي بعضها مدة طويلة نسبيا وكل هذا كان يؤرق السلطة المركزية في بغداد لأنها تعرف ان اخطر خصوصها هم بنو عمومتها .

لم تكن ثورة الشيعة من أجل السلطة فقط بل صارت كما كانت في العهد الاموي أمل الرعية في خلاصها من الكابوس المهين على رأسها والفضل في الحكم العباسي ، فقد رأينا فيما سبق كيف بدأ التذمر من بني العباس وكيف انتشر وتطور حتى أصبح ثورات جارفة وعارسة .

وأول ثورة للشيعة في العصر العباسي الأول كانت ثورة النفس الزكية بالحجاز فاستولى على المدينة المنورة ومكة المكرمة (سنة ١٤٥ هـ) وبايعه أهل خراسان ومصر والشام وكذلك السند ولكن سرعان ما قتل محمد النفس الزكية مع أخيه بعد مدة قليلة من ثورتها وكان هذا الاخ ، وهو ابراهيم ، قد استولى على البصرة في السنة نفسها^(١) ويبدو أن النفس

(١) - عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الاول : هي : ٨٧ حتى ٩٦

الزكية تسرع بعض الشيء ولم يعتبر بالثورات التي انطلقت من الحجاز وهو اى الحجاز بقليل العدد ولا يمكن ان يوفر عناصر كثيرة تسهم في الحرب مع العلم ان العدد وحده لا يكفي . ثم ان التنسيق بينه وبين اخيه لسم يكن محكما بدليل ان اخاه ابراهيم شار بعده بفترة ولم يثورا في وقت واحد حتى يشنتا جيوش الخلافة العباسية .

ويخرج الحسن بن علي (سنة ١٦٩ هـ) واعلن ان حركته تستهدف منسح الظلم وسمي بصاحب فح لانه قتل بها في العام نفسه (١) .

ولعل اخطر ثورة لهم تلك التي قامت (سنة ١٩٩ هـ) بقيادة ابي السرايا او السرى بن منصور فقد حرض هذا الاخير شخصية علوية هو محمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا الا ان هذا الاخير مات فجأة وربما قتل ، بعد ان نجحت دعوته في الكوفة لافقد التحق به خلق كثير من اعراب الكوفة ونواحيها . وبعد ابن طباطبا وجهت الدعوة الى محمد بن محمد ليتزعم الحركة . واستولى ابو السرايا على البصرة مستعينا بعلوى آخر اسمه زيد النار ، وامتدت الحركة الى الحجاز لكن ابا السرايا هزم بعد ما تدخل جيش المأمون بقيادة هرثمة بن اعين. (٢)

والملاحظ كذلك ان هذه الثورة لم تستغل الخلافات العباسية في ذلك

الوقت .

وفي السنة نفسها اعفي (١٩٩ هـ) خرج علوى اخرياليمين واسمه ابراهيم ابن موسى الكاظم من احفاد جعفر الصادق فتمكن من اخلاء اليمن ، وبقيت تحت سيطرته طوال مدة بقاء المأمون بخراسان. (٣) ويبدو ان التنسيق لم يكن موجودا بين هاتين الثورتين .

(١) عبد المنعم جاد : العصر العباسي الاول : ص ١٨٠ وما بعدها

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠٨ وما بعدها

(٣) المرجع نفسه ص ٣١٣ - ٣١٤

ظل الخوارج منذ تكونت منظماتهم رافعين لواء الديمقراطية وكانت ثوراتهم لهذا السبب تندلع من حين لآخر على خلفاء بني أمية ينتصرون فيها شيئا من الزمن ثم تدور عليهم الدوائر فيخمدون على ان يقوموا مرة اخرى عندما تتوفر لهم الشروط اللازمة . لقد كانت قضيتهم منذ البدء سياسية لكنها مع مرور الايام اصبحت سياسية اجتماعية . كانوا يثورون لمشكلة الحكم فصار العدل الاجتماعى يورفض الظلم والدفاع عن الضعفاء من عقائدهم المحركة ، (١)

وهكذا ما ان كاد العباسيون يلتقطون انفسهم حتى عاد الخوارج الى الظهور في جنوب شرق الجزيرة العربية بقيادة رجل اسمه شيبان بن عبد العزيز ويكنى ابا الدلفاء وذلك عام (١٣٤ هـ) ثم امتدت حركته الى فارس وجزيرة كاوان بالخليج العربي (٢) ودامت هذه الحركة حتى خلافة ابي جعفر المنصور .

وظهر خارجي اخر في الجزيرة التي كانت داعما منطلقا ووكرا لهم اسمه ملبد بن حرملة الشيباني عام (١٣٨ هـ) .
ورفض هذا القائد مئة الف درهم قدمها اليه حميد بن قحطبة ليكيف عن القتال ، وبقي يهزم الجيش تلو الجيش من جند الخليفة حتى تمكن خازم منه في الاخير . (٣)

وفي المكان نفسه ظهر بعد عشر سنوات خارجي آخر اسمه حسان بن الصفريه ، (٤) واما اول انتفاضة لهم بسجستان فكانت عام (١٥٢ هـ) ثم عادوا مرة اخرى سنة (١٥٨ هـ) . (٥)

(١) شاكر مصطفى : دولة بني العباس ج ١ ص ٢٢٧
(٢-٣-٤-٥) عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الاول ص ١٢٩ وما بعدها

ولم ينج المغرب العربي من ثوراتهم بل كان اكثرها امتدادا حيث
ظلوا هناك وما زالوا حتى اليوم في جنوب الجزائر بمدينة (غارالداية)
التي نزحوا اليها بعد سقوط دولتهم الرستمية التي كانت عاصمتها تيهرت
والفرقة التي هناك من الاباضية ، وما زالوا كذلك بجزيرة جربة بتونس .

وقد كانت حروبهم هناك كثيرة فقد ذهب زعيم الاباضيين في المشرق
واسمه ابو الخطاب الالمغرب فجمع خوارج طرابلس وطرد العرب منها عام
(١٤٠ هـ) ثم استولى على القيروان عام (١٤١ هـ) وبذلك ظهرت اول دولة
اباضية كبيرة . (١) لكن جند الخلافة تغلب على الخوارج سنة (١٤٤ هـ)
فقتل ابو الخطاب وخلفه ابو حاتم يعقوب بن لييد الملزوزي فتمكن
من حصار القيروان مرة ثانية وحالفه في ذلك زعيم الخوارج المصربية
ابو فرة الذي جاء في زناقة وفرعها بني افرن لمشاركته في الحروب
وهكذا افتتحت القيروان . (٢) ثم تفرقوا بعد ذلك في الامصار وخبا نجمهم .

١- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الاول : ص ١٣٤ - ١٣٥

٢ - المرجع نفسه ص ١٣٦ - ١٣٧

د - الثورات والانتفاضات

=====

تمكن البيت العباسي من السلطة ورسخ نفسه فيها بجميع الوسائل على الرغم من تذمر الناس المستمر والمتصاعد . وكثرت الانتفاضات في القرن الاول من حكمهم فقابلوها بالقمع والبطش حتى تحول جيش الدولة الى اداة طيعة فييد السلطة لانحداد اية ثورة او اى تحرك مشبوه . لكن القضاء على الانتفاضات والثورات غير ممكن بل كان مستحيلا لان الاسباب الموجبة لها لم تنتف ولم تنته ، فقد ظل الناس يشعرون بالظلم وعدم المساواة لذا نجد ان " الدافع الاجتماعي هو المحرك الغالب لمعظم الانتفاضات والثورات . " (١) التي شهدتها العصور العباسية المختلفة بدليل مشاركة مختلف الفئات فيها من فلاحين وعبيد وعمال وعرب واعاجم . . . واكبر ثورة نجدها في ذلك العصر هي ثورة بابك الخرمي التي بدأت تحركاتها الاولى عام (٢٠١ هـ) في الجاويدانية . (٢) وسرعان ما انتشرت وامت مناطق واسعة وشاركت فيها قوميات عديدة من فرس وكرد وارمن وروم وغيرهم من قبائل ماوراء القفقاس . (٣) والسبب في جلب هذا العدد الصغير من الانصار هو برنامج هذه الثورة الواضح فمن اهم بنوده نزع الاراضي والاقطاعات الكبيرة من ممتلكيها وتوزيعها على الفلاحين المحتاجين . (٤) لكن هذه الثورة محذوك تعرضت للعديد من محاولات الطمس والتحريف ،

-
- ١) حسين مروة : النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ج ٢ ص ١٢
 - ٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٣٢٨
 - ٣) حسين مروة : النزعات المادية ج ٢ ص ١٥
 - ٤) حسين مروة : المرجع نفسه ج ١ ص ٦٩

فالمؤرخون لم يذكروا منها الا الجوانب السلبية اويتجاهلون بها او يشوهونها (١) وهي من اطول الثورات بحيث دامت عشرين سنة كاملة .

وقد سبقت هذه الثورة حركة المقنع التي بدأت سنة ١٤١ هـ وانتهت في اواخر ايام المهدي وكانت خراسان ميدانا لها (٢) .

اما المطرعة فسبب ظهورهم ان فساق بغداد وشارها استفحل امرهم واذاوا الناس اذى شديدا فقطعوا الطريق واخذوا الناس والصبيان علانية دون ان تتدخل السلطة لمنعهم . ونفهم من كلام ابن الاثير (٣) والطبري (٤) ان السلطان كان يستعين بهم . وكونوا عصابات عديدة كان بعضها يجبي المارة (٥) .

وتزعم المطرعة رجل من ناحية الانبار يقال له خالد الدريوش فدعا جيرانه واهل بيته واهل محله على ان يعاونوه على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فاجابوه العذك ، فشدد على من يليه من الشطار والفساق فمنعهم مما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه وارادوا قتاله فقاتلهم فهزمهم واخذ بعضهم فضربه وجسه ودفعه العالسلطان (٦) وخلصه رجل

(١) عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الاول ص ٤٠٠

(٢) ابن الاثير : المرجع السابق ج ٦ ص ٣٢٤ - ٣٢٦

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٥٥٢

(٤) المرجع نفسه ج ٨ ص ٥٥٢

(٥) المرجع نفسه ج ٨ ص ٥٥٢

(٦) المرجع نفسه ج ٨ ص ٥٥٢

من اهل الحريرة يكنى ابا حاتم وزاد على الدريوش ان دعا الناس جميعا
الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر " الشريف منهم والوضيع ، بني
هاشم ومن دونهم وجعل له ديوانا يثبت فيه اسم من اتاه منهم
فأتاه خلق كثير فبايعوا " (١)

كل هذا زيادة على الانتفاضات التي كان سببها قسوة عمال الخمرج
والاجحاف في زيادة الضرائب والتي اشرنا اليها في الفصل الاول .

.....

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٥٥٢

الفصل الثالث

الحالة الاجتماعية

.....

تمهيد : تركيبة المجتمع الحباسي

آ - الفقر ومظاهره

ب - التبذير ومظاهر الترف

ج - العدالة والقضاء

.....

....

تمهيد :

=====

لم تتضح الطبقات في العصر العباسي الاول وضوحا دقيقا بسبب المرحلة التاريخية التي كانت تمر بها البلاد عصرئذ غير ان هذا التداخل كان واضحا بالمقارنة مع نموذج الاقتصاد في ذلك العصر ، فقد رأينا بانه كان يمثل خليطا من الاقطا عية ويقايا العبودية المنحلة مع تطور نسبي للصناعات والحرف . وعلى هذا الاساس يصعب تقسيم المجتمع لكننا مع ذلك نلمس وجود فئتين او بالاحرى طبقتين مختلفتين كل الاختلاف ، طبقة الحكام وطبقة المحكومين ، طبقة الاغنياء وطبقة الفقراء ولايكاد يوجد بينهما شيء .

لقد كانت طبقة الحكام تتمتع بكل شيء وتستمتع به لانها مدفوعة اجتماعيا ، اعموموعيا ، لان تكون كذلك نظرا لانها تملك كل الخيرات وتملك حق التصرف بها كما يحلوها مما جعلها تغدق على ملذاتها الامسوال الطائفة المجيبة بمختلف الوسائل من الطبقة الثانية . وكانت الطبقة المحكوم عليها بالفقر تشعر بالفوارق التي كانت بينها وبين الاولى دون ان تمتلك الوعي الطبقي الكافي لتحليل الاوضاع والوصول الى النتيجة الحتمية التي سوف تقضي بموجها على الالسياد الاغنياء ، وكان بعض عامة الناس يرد ذلك كله الى مشيئة الله والله منه براء ؛ نتج ذلك عن العقلية الساعدة آنذاك والتي شارك اولو الامر على ترسيخها في عقول الناس حتى يظنوه قدرا محتوما ، مع العلم اننا لانجمع بحيث نجهل كل اغنياء ذلك العصر مفسدين في الارض .

ومن الطبيعي ان تظهر الى الوجود بعض بوادر الصراع بين الطبقتين وما التعرض شعرا اونثرا لتلك الاوضاع الا ضرب من الصراع ، وان لم يصل الذروته الا فيما بعد عندما تفتتت تلك التركيبية التي لم تعد تلائم تتطور المجتمع العربي الاسلامي .

تجد في ذلك العصر وفي مؤلفاته اشارات تقترب حيناً من القصد وتبتعد عنه حيناً آخر وتكون واضحة طورا وطورا تلتف في صيغ غيبية او اخلاقية ، لكنها تتحدث جميعها عن طبقات المجتمع العباسي وفئاته وشرائحه في ذلك العصر ، فهذا ابو العتاهية يقول مثلاً : (١)

واشدد بنفي الناس في الارض وعلو بعضهم على بعض

وعلى الرغم من غلاف الحكمة الذي يلف هذا القول فاننا نلاحظ تنبيه ابي العتاهية الى الصراع الدائر في عصره بين الناس ، وهذا الصراع طبعا لم يكن شديدا ولا قويا الى الدرجة التي تجعل احدي تلك الطبقات نصفي غيرها نهائيا ليخلوها الجو . صحيح ان المصالح كانت تتحكم في مواقف تلك الطبقات لكن لايجوز بأي حال من الاحوال ان نطلق عليها مدهوم الطبقات المعروف في عصرنا هذا لان العناصر والارهاصات المؤدية لوجود الطبقات بمفهومنا الحديث لم تكن موجودة بل كانت هناك بوادر ونزعات خفيفة لايمكن ان تؤدى الى الثورة بمفهومنا المعاصر .

فأبو العتاهية قد تنبه اليه هذه البوادر او الى الظواهر الناتجة عن سرّ تقسيم الثروات في ذلك العصر ، فهو يرى ذلك الصراع في شكل علو طبقة على اخرى وهذا العلو مرهون بالوسائل المادية والسياسية التي تملكها هذه الطبقة او تلك . كان يراه اختلافا في ظروف المعيشة بين الذين هم في اعلى السلم الاجتماعي وبين الذين هم في اسفله ، فهاهو يقول مرة اخرى : (٢)

الناس في الدين والدنيا ذوو درج والمال ما بين موقوف ومختلج

(١) ابو العتاهية : الديوان ص ٢٠٠ تحقيق شكري فيصل مط جامعة دمشق ١٩٦٥

(٢) ابو العتاهية : المصدر نفسه ص ٩٠

فالشر الاول يدل دلالة واضحة على مانحن بصدده .

اما خالد بن صفوان فيقول : " الناس ثلاث طبقات : طبقة علماء ،

وطبقة خطباء ، وطبقة ادباء ، ورجحة بين ذلك يفلون الاسعار ، و

يضيقون الاسواق ويكدرون المياه . " (١) وهذا كلام نفهم منه ان مفهوم

الطبقة كما نعرفه اليوم لم يكن معروفا ، فعلى الرغم من اشارته الى بعض

المشاكل الاقتصادية والمعيشية لذلك العصر فان كلامه يبقى عابثا ولا يفي

بالغرض الا من جهة واحدة وهي ان بين تلك "الطبقات" - والتي هي في

الحقيقة شرائح اجتماعية - رجحة يفلون الاسعار الخ ٥٥٥٥٥٥ . واعمال

هذه "الرجحة" دليل على الصراع القائم انذاك . ويقول الخليفة

المأمون : " الناس اربعة : ذو سيادة ، او صناعة ، او تجارة ، او

زراعة ، فمن لم يكن منهم كان عيالا عليهم . " (٢) ويقول مرة اخرى عند

ذكر اصحاب الصناعات : " السوق سفلى ، والصناع انذال ، والتجار بخلاء

والكتاب ملوك بين الناس " (٣) وليس بين القولين اى تناقض كما يبدو

للهولة الاولى ، ففي القول الاول كان المأمون يتحدث من مركز الحاكم

الذي يضع مصلحة النظام فوق اى اعتبار وذلك بالخط من كل ما يمس هذا

النظام ، ولذا نجده يرى الافادة الا من اصحاب التجارة او الزراعة

او الصناعة لان هذه يؤخذ على اصحابها ضرائب ، اما تلك الفئة العريضة

التي لاتملك شيئا فهو يراها عيالا على غيرها ، لكنه يدين نفسه بنفسه

حين يجعل الحكام مرتبطين باصحاب الحرف والصناعات لان الحكام في النهاية

هم العيال الحقيقيون في ذلك العصر على الفئات المنتجة . اما في المقولة

(١) ابن عدي : العقد الفريد : ج ٢ ص ٢٩٣

(٢) البيهقي : المحاسن والمساوي ٦ ص ١٠٣ ط دار صادر بيروت ١٩٧٥

(٣) البيهقي : المصدر نفسه ص ١٠٣

الثانية فقد اختلف الامر لان اصحاب الصناعات ، نظرا لمركزهم الخطير، كانوا يكونون ضغطا مستمرا على الحكام ، ومن هنا جاءت تلك النعوت التي وصفهم بها كندالة الصانع ويخل التجار وان كان في كلامه بعض الصدق . وهو كعادته يحط من قيمة الجماهير العربية التي لاتملك شيئا فيقول السوق سفلة ، وهناراه قد جمع بين شينين اولهما تسمية تلك الجماهير بالسوق لاحتقاره لها وثانيهما الدرجة السفلى التي الصقها بهم . اما الكتاب الذين نجوا من كلامه فلاءنهم بالاحول ولاقوة امام نفوذه لانهم مجبرون ان يكونوا تابعين له ولانهم مضطرون الى الاشتغال في دواوين الدولة .

وانا تركنا هذه المظاهر العامة وتسللنا الى التركيبة الاجتماعية في العصر العباسي الاول لوجدنا لوحة متعددة الالوان حيث اختلطت الاجناس واللغات والديانات والثقافات المختلفة التي بدأ احتكاكها يعطي ثماره بشيء من الوضوح . وبالطبع كان هذا المجتمع يتكون من العنصر العربي (ما عدا السيادة) وبعدهم الموالي وهو الاسم الذي اصبح يطلق على كل من دخل الاسلام من دون العرب وقد كان لهذا الاسم دلالات اخرى ايضا . (١) وكان عدد الموالي كبيرا يفوق عدد العرب ولذلك كان تأثيرهم كبيرا جدا في المجتمع الجديد وجعله يتسم بصفات غريبة احيانا عن العقلية العربية . وقد كان هو الاء الموالي في العصر الاموي يعدون مواطنين من الدرجة الثانية حتى جاءت الثورة العباسية فدخلوا فيها افواجا وبذلك حققوا لانفسهم مكانة كبيرة في السلطة . وقد ارتبطت حركة الشعوبية بهو الاء الموالي والتي ظهرت بوادرها منذ اواخر العصر الاموي لكنها ازدادت تطورا في العصر العباسي الاول لان بعض الموالي اتجهوا الى

(١) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٥٠

" مناواة العربية بعصبية اخرى عرفت باسم الشعوبية وهي نضال اجتماعي وفكري دافع به الموالي عن انفسهم " (١) لانهم كانوا يطالبون العرب الحاكمين بالمساواة التي نادى بها الاسلام والتي تفاضى عنها كثير من الخلفاء خاصة وان هو لا الموالي دخلوا الاسلام وماروا عربا في لغتهم وافكارهم واعمالهم، فقد برز منهم عدد كبير من العلماء فسي مختلف الميادين .

وثاني شيء في تلك التركيبة هم اهل الذمة وهم اليهود والنصارى والزرادشتيون والمابثة فقد كانوا يمثلون جزءا لا بأس به من المجتمع الجديد وكان لهم دور كبير في ثقافته وذلك في الترجمات التي قاموا بها . وقد كان الاسلام منذ البداية يعامل اهل الذمة معاملة خاصة كما نص القرآن الكريم على ذلك . وقد كان اندماج المسيحيين اكثر من اندماج اليهود في المجتمع الجديد (٢) .

وثالث شيء نجد في هذه التركيبة هو الرقيق فقد ازدهرت في ذلك العصر تجارة الرقيق لاسباب كثيرة كالحروب والفتوحات والغزوات ، فقد كان للنخاسة اسواق في كل بلد من البلاد الاسلامية تدعى احيانا دار الرقيق كما في بغداد وعليها مشرف هو (قيم الرقيق) . وكان للنخاسين عملاء هم شهرتهم وقوافلهم كما كانت النخاسة صنعة قائمة بذاتها . (٣) وقد كان هذا الرقيق يجلب من اماكن عديدة ومختلفة كالسودان وشرقي افريقيا عموما وتركيا وتركستان وروسيا والمغرب العربي الخ ولهذا فقد كان هناك

(١) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٥٣

(٢) المرجع نفسه ص ٢٥٦ حتى ٢٦٣

(٣) المرجع نفسه ص ٢٦٧

مزيج من الرقيق الحبشي والتركي والفارسي والبربري والرومي والشركسي والامني والمقلبي * ، وقد كان هؤلاء الرقيق يقومون باعمال كثيرة منها ان الزوج كانوا يعطون الاعمال الصعبة والشاقة كفلاحة الارض ولباس ان نتذكر هنا ثورة الزنج التي كان اغلب جندها من الزوج العاملين في فلاحه الارض وقد اشتهر الصقالبة بالاعمال المنزلية الخ
كما استغل بعضهم في الخدمات العسكرية (١) وقد كانوا جميعا يعيشون حياة صعبة قاسية ليس لهم فيها اي حق او مهادنة . اما النساء فقد كن يجلبن لامور اخرى كالتسرى او الجوارى والقيان ، وكان لهن فضل في اختلاط الاجناس فهذاك العصر حتى كثر ما يسمى بالهجناء وضمني اننا لانجد من نلغفاء ذلك العصر من ولد من ابوين عربيين الا ثلاثة هم السفاح والمهدى والامين (٢) وقد ساعدت القيان على انتشار الغناء وتطوره فكثير تعليمهن هذه المنفعة وبيعهن باسعار مرتفعة للاغنياء (٣) .

* صقلبي : اصبح يعني العبد في الاندلس ومنه كلمة (ESCLAVE)

انور الرفاعي الاسلام في حضارته ص ٢٦٨

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٨ - ٢٦٩

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦٩

(٣) المرجع نفسه ص ٤٨٠

آ- الفقر ومظاهره

كانت الطبقة الفقيرة تشكل الغالبية العظمى في العصر العباسي الاول، ولذا تعددت مظاهر الفقر والبؤس والحرمان كما تعددت بالمقابل مظاهر الخنى والترفع . وجاء الشعر العباسي الشعبي معبرا عن ذلك التناقض بكل وضوح على الرغم من ان مؤرخي الادب ، قدامى ومحدثين ، سكتوا عن شعراء الطبقة المحرومة تلك " وان كنا نرى اللحمة عنهم تمر عرضا والاشارة توميء اليى فاقتهم " (١) وقد جمعنا لهم ما استطعنا من اشعار والتي سنذكر بعضها في طيات هذا البحث لكننا يمكن منذ الان ان نعرف ما كانوا يعانون منه * كان الفقر المدقع معاناتهم جميعا فتحدثوا عنه فيجميع المناسبات بطرق مختلفة، وهذا امر طبيعي لان الشاعر انسان قبل اشيء اخر، فهو يعيش عصره ويتفاعل معه ويمتزج باحداثه فيؤثر فيها وتؤثر فيه وفي النهاية يصوغ حوصلة ذلك الاندماج بعصره ويمشاكله بطريقة فنية فيعطينا قصيدة شعر نابضة بالحياة، فرب ان معالجة ذلك تختلف من شاعر الى شاعر انطلاقا من انصهار خصوصيته بعصرهيات العصر . فهم اذا يكونون كلا متكامل لا تنمحيه معالم الفرد الخاصة لكنها تصب في اطار العام بحيث تكون تلك الروافد قاسما مشتركا بين الشعراء ، فمنهم من عالج الموقف بأسلوب جاد ومنهم من لجأ الى السخرية وحتى الى البهلوانية حتى يستدر عطف الناس وان كان في سخريته ينظر العالم الدنيا بمنظار قاتم السواد ومنهم من ثار على ذلك الوضع ونقم عليه محاولا تغييره بشتى الطرق .

(١) احمد كمال فزكي : الحياة الادبية فيالبصرة الونهاية القرن الثاني الهجري

ففي النوع الاول نجد شاعرا كابن يسير يتألم لوضعه وبلغت به مأساته
حدا تمنى معه الموت لابنة اخته التي كان يحبها كثيرا حتى لاتكون ضحية
للفقر ، حين يقول (١) :

لولا البنية لم اجزع من العدم ولم اجب في الليالي حنسا للظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
اخشى فظاظة عم اوجفـاء اخ وكنت اخشى عليها من اذى الكلم
اذا تذكرت بنتي حين تندبني جرت لعبرة بنتي عبرتي بسدم
تهوى بقائي واهوى موتها شققا والموت اكرم نزال على الحرم

انها فعلا لقمة المأساة ان تهوى له البقاء ويهوى موتها شققا عليها
من الجوع والحرمان والذل .

واهم ما يتمناه الفقيران يجد ما يعيل به عياله ، من ذلك ما قاله
الشاعر ابن سيابة نثرا : " اذا كانت فيجيرانك جنازة وليس في بيتك دقيق
فلا تحضر الجنازة فان المصيبة عندك اكبر منها عند القوم وبيتك اولى
بالماتم منهم " (٢)

اما مزج الواقع المر بالفكاهة فقد كان ابو فرعون الساسي وابو
الشمقمق من اربابه ، فاما ابو الشمقمق فيقول : (٣)

-
- (١) ابن المعتز : طبقات الشعراء المحدثين ص : ٢٨٢ - ٢٨٣
 - (٢) الاصفهاني : كتاب الاغانى ج ١٢ ص ٩٠ ط مصورة عن دار الكتب
 - (٣) ابن المعتز : المرجع السابق ص ١٢٧ - ١٢٨

ما جمع الناس لدنياهم
والخبز باللحم اذا نلتهم
والقلز من بعد على اثره
انفع في البيت من الخبز
فانت في امن من التبرز *
فانما اللذات في القلز **

واما ابو فرعون الساسي فيقول: (١)

انا ابو فرعون فأعرف كنييتي
وخلنسج العنكبوت برمتي
حل ابو عمرة ^{***} وسط حجرتي
اعشب تنوري وقلت حنطتي

ووقف شاعر آخر ، واسمه عاذر بن شاعر المعروف بابي المخفف شعره كله على
وصف الرغيف وله فيه اشعار ومقطوعات كثيرة فيها شيء من الهزل .
وقد قام هذا الشاعر بثورة على الاساليب الشعرية على غرار ثورة ابي نواس
حين استخف بذكر الاطلاق وابدلها بالخمير ، لكن ما خبنا استبدالها بالرغيف
فهو يرى ان السفاهة في وصف الاطلاق والنساء والخمور ، والصواب كل الصواب
في وصف الرغيف ، من ذلك قوله : (٢)

دع عنك رسم الديار
ودع صفات القفار

■ التبرز : الصوت والهلاك (لسان العرب)

■ القلز : ضرب من الشرب (لسان العرب)

(١) ابوحيان التوحيدى : الامتاع والمواهنسة ج ٢ ص ٥٣ تحقيق احمد اميين
واحمد الزين مط مكتبة الحياة مصورة عن دار الكتب بدون تاريخ

■ ابو عمرة : العرب تسمى الفقرا يا عمرة .

(٢) ابن الجراح : الورقة ص ١٢٣

وعد من ذكر قوم قد اكثروا في العقار
ودع صفات الزنابير في خصور العذارى
وصف رغيفا سريبا حكته شمس النهار
او صورة البدر لما استتم في الاستعداد
فليس يحسن الا في وصفه اشعارى

وحين كان الامر يشتد على هؤلاء الفقراء كانوا يلجؤون الى الاماني والامال
يعبرون بها عن ضيقهم وينفسون بها عن شقائهم وكرههم ، ويعيشون بها لحظات
من السعادة وسط حياة كلها غم وهم ويؤس ، ويقول احدهم فبتلك الاماني التي
كان يعرف انها اضغاث احلام فقط لاتغني ولاتسمن من جوع : (١)

منى ان تكن حقا تكن احسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

وكثيرا ما كانت المنى رأس مال المفلسين من الناس فهم يرون انفسهم فيها
وقد هبطت عليهم الاموال الطائفة كما قال احدهم : (٢)

اذا تمنيت ما لا بت مقتبطا ان المنى روس اموال المفاليس
لولا المنى مت من هم ومن حزن اذا تذكرت ما في داخل الكيس

ويجد آخر مخرجا لهوممه في التمني حين يقول : (٣)

اذا ازدهمت همومي في فؤادي طلبت لها المخارج بالتمني

اما ابو الشمقمق فيفصل ما يتمناه من دنياه باسلوب ساخر وان كان يقطر فيه

(١) الجاحظ : الحيوان ج ٥ ص ١٩١ تحقيق عبدالسلام هارون مط الحلبي ط ٣
القاهرة ١٩٦٦ / ١٩٦٥

(٢) الجاحظ : المصدر نفسه ج ٥ ص ١٩١

(٣) الراغب الامهاني : محاضرات الادباء ومحاولات الشعراء البلغاء م ١ ج ٢ ص ٤٥٤
بدون تاريخ ولاذكر للطبع

دما بقوله : (١)

مناى من دنياى هاتي التي
الجرىق الحاضر مع بضعة
وجبة دكنا ء فضاضة
ويثلة شها ء طيبة
ويدرة مملو ء عسجدا
ومنزل فيخير ما جيرة
تسلح بالرزق على غيرى
من ما عز رخص ومن طير
ويطيلسان حسن النير
تطوى لي البلدان في السير
ما بالذى انكر من ضير
قد عرفوا بالخير والمير

لكن اولئك الشعراء كثيرا ما ينتبهون من غفوة المنعويين تنبهون الى ان المنعوى
لاتداوى الخاصة ابدا كما قال احدهم : (٢)

ولقد علمت - وان نصبت لي المنى - ان الخاصة لاتداوى بالمنى

كان الشاعر يفتق من احلامه ، وهو المعبر الصريح عن تلك الجماهير الواسعة
ليجد نفسه يتخبط ثانية في مشاكله اليومية والملحة في آن واحد ، فبعد تلك
الاموال الطائلة التي تدفقت عليه في اللحم وملائم جيوه يلدغه الجوع
يبحث عما يسكن به ذلك الالم البغيض ، ويتبادر الى ذهنه ان في السوق بعض
مبتغاه ، لكن الجيب خال والاسعار ترتفع باستمرار مما حدا به الى التحدث
عنها في كثير من المناسبات ، فمدحة ابي العتاهية التي رفعها الى الخليفة
هارون الرشيد تعد ظالمة تشهد على تدهور الاسعار في ذلك العصر وقللة سبل العيش
المتوفرة لدى العامة ، اذ يقول : (٣)

(١) الجاحظ : القول في البغال ص ١٢٧ / تحقيق شارل بللامط البياي ط اولى
القاهرة ١٩٥٥

(٢) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس : ق ١ ص ١٦٨

(٣) ابوالعتاهية : الديوان ص ٤٨٧

اني ارى الاسعار اسعار الرعيعة غالية

واري المكاسب تزره واري الضرورة فاشية

ويذكر الطبرى كذلك ان الاسعار غلت " ببغداد والبصرة والكوفة حتى بلغ

سعر القفيز من الحنطة بالهاروني اربعين درهما والخمسين بالقفيز الملجم (١)

وزيادة على المشاكل الاقتصادية تظهر مشكلة اخرى وهي تحول ببغداد

واشبابها من الخواضر الكبيرة في العصر العباسي الاول الى مجتمع قريب

من المجتمع الاستهلاكي . فنحن نعرف ان اساس الاقتصاد في ذلك العصر هو الزراعة

اي ان الريف هو الذي كان المعول عليه ، اما المدن فقد كانت تنتج ما يمكن

ان نسميه بالكماليات . وهكذا صار سكان المدن عالة على البوادي والارياف

اذ كانوا يستهلكون دون ان ينتجوا ما يستهلك غذائيا ، ومع ذلك فقد كثر

الوافدون على المدن لتتركز السلطة فيها وجميع المصالح الاجتماعية وغيرها

فنشطت هجرة الاقاليم وفرغت الارياف من سكانها لاسباب كثيرة اخرى كظلم عمال

الخراج اضافة العمخرييات المدن الكبيرة . ومن نتائج ذلك كله ان تعاظم

دور التبادل النقدي وبالتالي تعاظم دور المال بعد ان كانت التجارة من

قبل تتم عن طريق المقايضة اي تبادل بضائع معينة ببضائع اخرى او بمنتجات

غذائية .

وطبعي ان يتأثر الناس بهذا التغيير في المبادلات وينعكس ذلك على

سلوكهم وتصرفاتهم ، فقد اصبح المال مقياسا للرجال واصبحت كميته هي

التي تحدد مركز الانسان في السلم الاجتماعي ؛ وفي هذا يقول عاصم المبرسم (٢) :

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ج ٨ ص : ٥٩٦

(٢) ابن الجراح : الورقة ص ٧٤

لله در ابيك اى زمان
كل يعاطيك المودة داغبا
اصحت فيه واى اهل زمان
فاذا رأى رجحان حبة خردل
يعطي ويأخذ منك بالميزان
انها المسالح تفعل في الناس هذا الفضل .

وفي دور النقود الهام يقول احد الشعراء مثبثا ما ذكرناه آنفا: (١)

بعثت في حاجتي رسولا
ولو سواه بعثت فيهما
يكنى لبادرهم فتمت
لم تحظ نفسي بما تمنعت

واصبح صاحب المال محترما ذا نفوذ ، مسموعا مطاعا ، كما قال ابو العتاهية: (٢)

اجلك قوم حين صرت الى الغنى
اذا مالت الدنيا الى المرء رغبت
وكل غني في العيون جميل
اليه ومال الناس حيث يميل

وكان أن عاش صاحب المال في رغد من العيش بينما رزح المعدمون تحت نيبس العوز والحرمان ، فمدينة كبغداد لا مكان فيها للمفلس ابدا كما قال احدهم: (٣)

سقى الله بغداد من جنة
على انها منية الموسرين
غدت للورى نزهة الانفس
ولكنها حسرة المفلس

ويقول ابو العتاهية في المزمع نفسه: (٤)

-
- (١) ابن تفرى يردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٢٧
 - (٢) الشريف المرتضى : امالي المرتضى ج ٢ ص ٢٢٨-٢٢٩ تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم مط دار الكتاب العربي ط ٢ بيروت ١٩٦٧
 - (٣) النويرى : نهاية الارب في فنون الادب ج ١ ص ٣٦١ نسخة مصورة عن دار الكتب
 - (٤) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ، ق ١ ص : ٥٢٦

اذم بغداد والمقام بها
ما عند املاكها لمرتغيب
يحتاج راجي النوال عندهم
كنوز قارون ان تكون له
من بعدما خيرة وتجريب
رغد ولا فرجة لمكسروب
الى ثلاث من غير تكذيب
وعمر نوح وصهر ايسوب

وكذلك يقول احمد بن ابي طاهر في تسلط المال ونفوذه : (١)

ولا يساوي درهما واحدا
من ليس في منزله درهم

ولهذا السبب اطلق ابو الينبيخي مثله السائر : (٢)

كم من حمار على جواد
ومن جواد بلا حمار

وحال كهذه كانت تلحق الفقراء الامر الذي دفعهم الى فعل المستحيل من اجل
الحصول على الطعام ، ومن هنا بالذات يمكن ان نجد تفسيراً لتلك الظاهرة التي
انتشرت على مدى عصور الادب العربي القديمة الا وهي ظاهرة التكسب بالشعير
مدحا وهجاء .

ونحن لانلوم الشعراء على ذلك على الرغم من ان بعضهم كان يتملك الممدوحين
ويتزلف اليهم فيقول ما لا يوافق به وهو يعلم انه غش ونفاق حتى يكسب رضاهم
ومن ثم يكسب مالهم . كان الفقر والحاجة من الاسباب الرئيسية لتلك الظاهرة
مع اسباب اخرى ثانوية . مع العلم ان الفقر لم يكن عيبا ولا امرا مكروها في
ذاته حسب ذهنية ذلك العصر لان الانسان يكون شريفا مع فقره وقد لا يكون ذلك
مع غناه كما قال ابن هرمة* (٣) :

(١) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ومحاولات الشعراء البلغاء ج ٢ ص ٤٩٨

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣٠

(٣) النويري : نهاية الارب ٧٨/٣ وطبقات ابن المعتز ص ٢١ وبهجة المجالس

لابن عبد البر القرطبي ق ١ ص ٦٤

عجبت اشيقة ان رأيتني مخلقا - فكلك امك - اى ذاك يروع ؟
قديرك الشرف الفتى ورداؤه - خلق وجيب قميصه مرقوع
ويوض اشجع السلمي الفكرة اكثر فيقول: (١)

رويدلك ان عز الفقر ادنى الي من الشراء مع الهوان
لكن هذا لايعني ابدأ انهم كانوا يرغبون في الفقر وان كان فيه شرف ، بل
كانوا يرون ان الفقر قد يوءى الالذل ، وهذا صحيح ، فيجعل الانسان يريق
ماء وجهه بالطلب والتسول كما قال احدهم (٢) :

سجدنا للقروء رجا دنيا حوتها دوننا ايدى القروء
فما بلت اناملنا بشيء علمناه سوى نل السجود

ولكنما العمل وتلك الظروف لاتأبى الا ان يضطر الانسان لسؤال الناس وان كان
لرفه يأبى عليه ذلك ، كما قال ابو الينبغى (٣) :

الا يمالك الناس وخير الناس للناس
اتنهاني عن الناس فاغتنى عن الناس
والا فدى الناس ودعنى اسأل الناس

صرح اولئك القوم بفقرهم علومض ، وتكبدوا ماتكبدوا ، فمدحوا الاغنياء
والاسياد لعلمهم يلتقطون شيئا من فتات مواعدهم ومن فضلاتهم ، وكان مدحهم تجارة
لان الاغنياء لن يعطوهم شيئا بالمجان ، كما قال ابو الشمقمق (٤) :

(١) الصولي: كتاب الاوراق ، ص ٨٨ نشره ج هيورث دن مط الصاوى ط اولى

القاهرة ١٩٣٤

(٢) الراغب الامبهاينى: محاضرات الادباء م ج ٢ ص ٥٩٦

٣ - ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣١

٤ - ابن المعتز المصدر نفسه ص ١٢٧

ولقد غورت وليس لسي الا مديحك تجارة

ويمكن ان نتصور الصراع الذي كان يحدث في نفس الشاعر بين الخيبة والامل وهو مقدم على الممدوح * كانوا يستغيثون لكن الاغنياء صموا اذانهم وصمموا على الا يعطوهم شيئا لوجه الله بل لابد من مقابله ، كما صرح الحكم بن عبد الاسدي بفقره مطلقا في اجماع عصره صرخة استغاثة مازال صداها يرن في اطراف عصرنا حيث يقول (١) :

احي نفسي - فديتك نفسي - فاني كما علمت ذاك - عديم

وكيف لا يفعل هذا والحاجة تدفعه الركل شيء ؟ فالفقير لم يعد ملومسا علما يصدر عنه من افعال كما قال احد الاعراب بصدق بدوي : (٢)

لألا تلوماني ولوما جابرا * فجابر كلفني الهوا اجرا

ولعل اسماعيل بن ابراهيم الحمدوني عبر عنهم جميعا بقوله : (٣)

من كان في الدنيا اخشوة فنحن من نظارة الدنيا
نرمقها من كذب حسرة كأننا لفظ بلا معنى

هذا بالنهبة والشعراء اما عامة الناس الذين لم يكونوا يمتلكون ملكة الشعر ليتكسبوا بها او يعبروا بها عن سخطهم فقد كانت لهم وسائل اخرى يحملون بها على ما يلطف من وضعهم ، فقد لجأ بعضهم الى الكدبية والتسول مستعملين في ذلك طرقا وحيلا تحدث عنها القدامى والمحدثون بشيء من التهكم والسخرية وجعلوها للتندر *

وتفاقم امر المحرومين من حقهم في العيش وتزايد عددهم حتى انتظموا

(١) يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة ص ٤٧٢

(٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ١٢ ج ٢ ص ٦٠٩

* جابر : العرب تسمى الخبز جابرا

(٣) الاصبهاني : الاغاني ج ٢٠ ص ٣٠٣ (دار الثقافة بيروت ١٩٦٠

جماعات جماعات فتمردوا على وضعهم التعس وثاروا على السلطان كلما وجدوا فرصة لذلك ، فمن ذلك ان تمرد اعراب بادية البصرة (عام ١٦٨ هـ) فقطعوا الطريق وانتهكوا المحارم وتركوا امور الدين ، وزاد بطشهم وقوتهم حتى تغلبوا مرارا على جند الفقة. (١) :

ولاغرابة من نهم تركوا امور الدين فقال ان وما زال دوما منفذا للكفر ، لان الانسا اذا اشتد به الفقر لن يه نذاك الا في الجوع وتوابعه فمن ذلك ما حكاه الاصمعي من ان جماعة كانت تصلي وبجا شيخ ملتف بكساء وهو يرتعد من البرد الشديد وينشد (٢) :

ايا رب ان البرد اصبح كالما وانت بحالي يا الهي اعلم
فان كنت يوما في جهنم مدخلي ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم
فتعجب منه الاصمعي وقال له : " اما تستحي تقطع الصلاة وانت شيخ كبير ؟
فأنشد يقول (٣) :

ايطمع ربي ان اصلي عاريا ويكسو غيري كسوة البرد والحر
فوالله لاصليت ما عشت عاريا ولا وقت المغيب ولا الوتر
ولا الصبح الا يوم شمس دفيئة وان غممت فالويل للظهر والعصر
وان يكسني ربي قميما وجبة اصلي له مهما اعيش من العمر
ويروى لنا الاصمعي ابياتا اخرى في هذا السياق لشيخ من تميم كان ممسكا باستار الكعبة وهو ينشد (٤) :

-
- (١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٧٧
 - (٢) الابشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ج ٢ ص ٣٣٤ - ٣٣٥
 - (٣) الابشيهي المصدر نفسه ص ٣٣٤ - ٣٣٥
 - (٤) البيهقي : المحاسن والمساوي ص ٥٨٥

ايا رب رب الناس والمن والهدى
اماتستحي مني وقد قمت عاريا
انا جيك يارب وانت كريم
واتترك قرما من قروم تميم ؟

وزيادة على ثورة الاعراب تلك تغلب الشطار (عام ٢٠١ هـ) على بغداد فأذوا
الناس اذى شديدا وقاموا باعمال غير مشرفة كأخذهم الاطفال والنساء علانية ،
وكانوا يجيئون المارة ، فواجههم الناس بما سمى بالمطوعة لمحا ربتهم حتى تدخل
الحسن بن سهل ودفعت لهم مالا فأبطلوا اعمالهم. (١)
وخرج الزط ايام المعتصم (عام ٢١٩ هـ) في طريق البصرة فنهبوا وسرقوا واخذوا
الثلاث من البيادر واخافوا الناس فحاربهم عفيف بن عنبسة وتمكن من الفتك
بهم (٢) .

وفي عام (٢٣٠ هـ) خرج عزيزة بن قطاب السلمي على رأس الاعراب فغلب على
المدينة وماجاورها ولم يستطع واليها حماد بن جرير الطبري ان يفعل شيئا
معهم ، ونازلهم فقتلوه ، واستباحوا القرى والمناهل وقطعوا الطريق ولم يتغلب
عليهم الا القائد التركي بغا الكبير (٣) .

ويسبب ذلك الوضع الناتج عن الظروف الاقتصادية والسياسية السيئة برزت
الى الوجود ظواهر اجتماعية سلبية كالبلخ والبغاء وما شابه ذلك ، فاما
البلخ فقد تحدث عنه كثير من الشعراء وهو كما نعلم يتنافى مع طبيعة العربي
المجولة على الكرم والتباهي به ، فكان البلخ عندهم يعيب ما حبه وينقص من

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٣٢٤

(٢) ابن الاثير المرجع نفسه ص ٤٤٣

(٣) ابن الاثير المصدر نفسه ج ٧ ص ١٢

قدره . اما لماذا استفحلت هذه الظاهرة في العصر العباسي الاول حتى يفرد لها كاتب كالباحظ كتابا كاملا ، فنظن الامر واضحا وهو تطور المجتمع من مجتمع ذي اقتصاد مبسط الى اقتصاد معقد يلعب فيه المال دورا اساسيا مما جعل البعض يحرص على هذا المال فحتى الخليفة المنصور شهر بحرصه على المال حتى لقب بالدوانيقي لانه كان يحاسب عماله على الدائق . فالدافع الاول للبخل هو اذا تطور الاوضاع الاقتصادية .

اما البغاء فهومن الظواهر السلبية التي تضافرت عدة عوامل لايجادها منها الانطال الخلقي الناتج عن الاوضاع السياسية والمعيشية في ذلك العصر؛ فقد رأينا كيف اندحر الفقراء مما اضطر بعضهم الى اللجوء الى جميع الوسائل شريفة ام غير شريفة لكسب المال ، وكانت هذه الظاهرة موجودة بالفصل ولوان المصادر التي تحدثت عنها قليلة . (١) ومن ذلك ما هجا به بشار احد القاسمين بتلك التجارة (٢) :

يا نافع ابن الفاجر	ياسيد الموءاجر
يا حلف كل داعر	وزوج كل داعر
تجارة احدثتها	في الكشح غير باع
لودخلت عفيفا	بيتك صارت فاجر
حتى متى ترتع في الخسران	يا بن الخاسر

وانتشرت ايضا الامراض والابوئة الفتاكة كالسل وربما الكوليرا التي لم تكن تعرف بهذا الاسم ، ففي السل يقول اشجع السلمي موجها كلامه الى مسلول : (٣)

(١) الاصفهاني : الاغاني ج ٤ ص ٣٨٨ - ٣٨٩ (مصورة عن دار الكتب)

(٢) هداية : اتجاهات الشعر ص ١٨٩

(٣) المولي : الاوراق ص ٢٩ - ٣٠

ابا الاطول طولت وما ينفع تطويل
بك السبل ولا والله ما يبرأ مسلول

كل هذا زيادة على العوامل الطبيعية القاسية كالقحط والجفاف والعواصف حيث يبدو ان الدولة لم تكن تساعد رعاياها فيمثل تلك الظروف ناهيك عن الحروب الكثيرة التي عرفها ذلك العصر مما تسبب في المجاعات والابوة الناتجة عن ذلك .

هذا وضع الفقراء عموماً فوذلك العصر ، وعلى العكس نجد الاغنياء الذين دفعهم وضعهم الممتاز الى ان يتمتعوا بخيرات الدنيا وملذاتها ، فكش التزندق الذيما هو الى نتيجة حتمية لتفسخ ذلك المجتمع بسبب كل تلك الاوضاع ، وراحت مجالس الشرب واللهو تنتشر في كل مكان فيه الاغنياء وما اللهو والغناء والقنص وجلب الرقيق الا دليل على ذلك .

.....

.....

ب - تبذير مال المسلمين ومظاهر الترف

=====

ان مظاهر الفقر التي رأينا سابقا قابلتها مظاهر الترف والغنى ، وما تبذير المال الا مظهر واحد منها . هذا المال الذي تجمع لدى الخلفاء وبعبارة اخرى لدى الاغنياء اخذ احيانا بالقوة من اصحابه بدعوى حق الدولة في فرض الضرائب المختلفة على رعاياها . وكان من المفروض ان يعود هذا المال بالفوائد على تلك الجماهير التي اخذ منها .

لقد بين القاضي ابو يوسف في الفصل الثالث من كتاب الخراج الوجوه التي تصرف فيها اموال المسلمين ، لكن الخلفاء من قبله ومن بعده لم يكونوا دائميا يقومون بصرف الاموال في وجوهها تلك بحيث تفيد العامة ومختلف فئات المجتمع ، فلم نجد في كتب التاريخ الا نبذا قليلة من ذلك مثلما يحكى عن المنصور من انه بعث الى بعض عماله مالا وامره ان يفرقه في الايتام والقواعد والحميان . (١) كما اجرى المهدي الارزاق على المجذمين (٢) وكفى الواثق فقراء مكة والمدينة حتى انه لم يوجد بهما في عهده سائل (٣) اما ما عدا امثال هذه الاعمال فقد كانت اموال المسلمين تصرف في شؤءون لاعلاقة لها بالرعية . فقد روت لنا كتب التاريخ والسير اخبارا متنوعة عن التبذير والاسراف اللذين شهر بهما اغلب خلفاء العصر العباسي الاول وان كان ابن خلدون يرى " ان الامة اذا تغلبت وملكت . . . تتجاوز ضرورات العيش وخشونته التي نوافله . . . فتكثر رياضها ونهيمتها وتنزع الى رقعة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والانية الخ . . . " (٤) .

(١) البيهقي : المحاسن والمساويء ص : ٥٨٧

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٥٧

(٣) ابن الاثير : المصدر نفسه ج ٧ ص ٣٠

(٤) ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٤٨٠ - ٤٨١ تحقيق علي عبدالواحد وافي لجنة البيان العربي ط اولى القاهرة ١٩٥٧ م

وهذا صحيح من جانب واحد فقط بالنسبة الى العصر العباسي الاول ، لان التوافل التي يتحدث عنها ابن خلدون لم ينعم بها إلا اصحاب السلطة واتباعهم اما عامة الشعب فقد كانت تعاني الجوع والحرمان ، وفعلنا نجد ان المهدي مثلا زار مرة " صاحب شرطته عبدالله بن مالك واهداه اربعمئة بطل موقرة دراهم " (١) .

ومن ذلك ان احمد بن اسماعيل ، صهر يعقوب بن داود ، سمح هذا الاخير يقول : " بنى هذا الرجل - اي المهدي - متنزها انفق عليه خمسين الف الف درهم من اموال المسلمين " (٢) .

ومن ذلك ايضا ان الهادي حين تولى الخلافة قال للحراني .. " احمّل الى اخي - يقصدهارون الرشيد - الف الف دينار واذا اغتتح الخراج فاحمل اليه النصف منه واعرض عليه ما في الخزائن من مالنا وما اخذ من اهل بيت الله فياخذ جميع ما اراد " (٣) و غني عن الذكر ان هذا الكرم كان بسبب سياسي بخية تنحية الرشيد عن ولاية العهد .

والرشيد نفسه لم ينج من هذا التبذير حيث نجده يعطي العباس بن الاحنف الشاعر اربعين الف درهم على اربعة ابيات قالها في رثاء هيلانة جارية الرشيد ، والابيات هي:

يا من تباشرت القبور لموتها قصد الزمان مساعتي فرماك
ابغي الانيس فلا اري لي موعنا الا التردد حيث كنت اراك

(١) ضياء الرئيس: الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٤٣٣

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٥٩

(٣) ضياء الدين الرئيس : المرجع السابق ص ٤٣٣

ملك بكاك وطال بعدك حزنه

لو يستطيع بملكه لفسداك

يحمي الفوءاد عن انساء حفيظة

كيلا يحل حمى الفوءاد سواك (١)

والحب حق طبيعي لكل انسان ، خليفة كان ام من عامة الناس ، لكن التأوه عليه لا يكون على حساب تعب الشعب .

اما الخليفة الامين المشهور بلهوه وتبذيره فقد اعطى المخني ابراهيم ابن المهدي - ابا الرشيد وتم الامين - ثلاثمئة الف دينار على صوت غيبر ذي بال في شعر لابي نواس سخيف ، فصرح ابراهيم هذا حينئذ بانه اخذ خمس ذلك الحين عشرين الف الف درهم ، فقال الامين : " وهل هي الاخراج بعض الكور؟" (٢) فاذا علمنا بالرجوع الى قائمة الخراج في عهد الرشيد ان خمسا وعشرين منطقة من اصل ست وثلاثين لم يصل خراجها الودك الحد عرفنا مقدار هذا التبذير .

اما المأمون ، زيادة على تبذيره كسابقه ، فقد كان شرها ، وقد ذكر احد جلسائه وهو جعفر بن محمد انه " وضع على المائدة اكثر من ثلاثمئة لون " (٣) من الطعام ، وقد تحدثت الكتب الكثيرة عن بناه ببوران وما انفق في ذلك من الاموال وما اعطى من الهدايا (٤) .

وكان الجيش من الامور التي تصرف بسببها الاموال الطائلة لكونه القوة الضاربة في يد السلطة لقمع الثوار والمتمردين ولصد هجمات الاعداء من الخارج بحماية الثور وتكليف الجيوش القيام بالغزوات . وكان الجندي

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١ ص ٩٨

(٢) المرزباني: الموشح ص ٤٠٩ - ٤١٠ تحقيق علي محمد البجاوي مط دار نهضة مصر القاهرة ١٩٦٥ و ابراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني: المختار من قطب السرور في اوصاف الانبذة والخمور تحقيق عبد الحفيظ منصور نشر موعات

عبدالكريم عبدالله ت ١٩٧٦ ص ١٦١ مآكل الخلفاء العباسيين (٣) صلاح الدين المنجد : مجلة الرسالة عدد ٦٥٨ ص ١٦١ مآكل الخلفاء العباسيين

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٤٧٨

يتقاضى راتباً أساسياً زمن مجد العباسيين العسكري قدره عشرون درهماً في الشهر (١) زيادة على ما كان يفدقه عليه الخلفاء والقواد في مختلف المناسبات فقد انفق على الجيش الذي وجهه المنصور مثلاً لانقاذ ثورة الخوارج بافريقيّة ثلاثة وستون ألفاً درهم (٢) وكثيراً ما كان القادة العسكريون ينالون القسط الأكبر من تلك الأموال كما فعل هارون الرشيد حين شار عليه يحيى بن عبد الله بالديلم فنذب إليه الفضل بن يحيى البرمكي وأمه بالأموال ففرقها بين قواده فأخذ الناس يقصدونهم وهم ينثرونها عليهم طعمة لهم (٣) وفعل الأمين والمأمون أيام الحرب بينهما الشيء نفسه (٤) أما المعتصم فقد واصل الإفشين حين قضى على بابك الخرمي بعشرين ألفاً درهم وعشرة آلاف درهم يفرقها في عسكره (٥) وهناك أمور كثيرة لاداعي لذكرها جميعاً كانت تصرف فيها الأموال بكثرة كما كانت تكلف العناية بها كثيراً من المال ومنها مثلاً ظاهرة الصيد التي أولع بها الخلفاء العباسيون والأغنياء عموماً فوذلك العصر وهذا ما يسمى بالبيزرة التي أصبحت من مقومات الدولة " تنفق عليها من بيت المال كما ينفق في غيرها من القوة والأوضاع " (٦) وقد رسمها العباسيون في الاعطيات والفرائض اى رسموا تربية الجوارح الخ (٧) .

(١) ي - هل : الحضارة العربية ، ص ٨٤

(٢) ضياء الدين الرئيس الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٤١٣

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج : ٢ ص ٨١

(٤) ضياء الدين الرئيس المرجع السابق ص ٤١٣

٥ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٧٨

٦ - ابو عبدالله الحسن بن الحسين (بازيار العزيز بالله الفاطمي) : البيزرة

ص ٥ تحقيق محمد كرد علي ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

دمشق ١٩٥٣

٧ - بازيار الفاطمي : البيزرة ص ٥

وقد اهتم اغلب الخلفاء العباسيين بالصيد فقد " كان ابو العباس السفاح شديد اللهج بالصيد ... " (١) وكان المهدي " مشغولاً بالصيد لا يكاد يثبته " (٢) وكان للرشيد " حظ من الصيد " (٣) اما الامين فقد كان " اشد انهماكا في الصيد واحرص عليه من كل من تقدمه " (٤) اما المعتصم فقد " كان اكثرهم مخالفة للصيد ... " (٥)

.....

(١) ابو عبدالله الحسن بن الحسين (بازيار العزيز بالله الفاطمي) البيزرة

ص ٤١

« يثبه : من اغب القوم : جاء هم يوما وتركيوما (المصدر نفسه ص ٤٣)

٤ - ٣ - المصدر نفسه ص ٤٣

٤ - ٥ - المصدر نفسه ص ٤٦

ج - العدالة والقضاء

=====

القضاء من ضرورات المجتمع المتمدن المتحضر حيث يتقاضى الناس في مختلف الامور التي توءد بالخلاف بينهم • وشيء كهذا يتطلب وجود نظام دقيق تحدد فيه عناصر القضاء وطرقه واساليبه ويتطلب ايضا وجود رجال اكفاء نزهين يقومون بهذا العمل ولا يخشون في الحق لومة لائم • واذا قبيض للدولة مثل هو لا الرجال فان الانسان العادي فيها سيكون بخير مادامت حقوقه لاتضيع • ولذا فقد كان القضاء يعني الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي والخلاف وقطعا لكل نزاع قد يوءد الوعا لاتحمد عقباه (١) •

و اول شيء نلاحظه في العصر العباسي الاول في هذا المجال ان سلطات القاضي وملاحياته اتسعت فقد ظهرت المذاهب الاربعة وتدخلت السياسة في القضاء وظهرت المصطلحات الفقهية المتعددة والمقننة وظهر منصب قاضي القضاة (٢) • وبعد ان كان عمل القاضي مقصورا على الفصل بين الخصومات اصبح يفصل في الدعاوى والاوقاف وتنصيب الاولياء (٣) • وهذا كله جعل للقاضي مكانة هامة في المجتمع خاصة وان كلامه كان مسموعا مطاعا ومن هنا كان اولو الامر يتشددون في الشروط التي يعين بموجبها القاضي فمنها مثلا ان يكون حرا ذا عقل ، بالغا ، عادلا ، سليما من العاهات وان يكون ذكرا • (٥) وكذلك ان يكون مسلما على انه يجوز تقليد غير المسلمين القضاء لاهل الذمة لان الاسلام

(١) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ١٥٥

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٢

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٩٢

(٤) انور الرفاعي : المرجع السابق ص ١٥٥

(٥) انور الرفاعي : المرجع السابق ص ١٦٧ - ١٦٨

ترك للذميين الخيار في ان يتقاضوا بالشرعية الاسلامية او حسب اديانهم، (١)

كان القاضي يقوم بعمله في المساجد او في الاسواق وربما تجول في البلاد، وكان له مساعدون كالحاجب والشرطي والكاتب والخازن والاعوان والترجمان احيانا والعدول وبعض المستشارين في الفقه، (٢) وكان ديوان المظالم عبارة عن محكمة استئناف يلجأ اليها الناس (٣) .

وكان لبعض القضاة سمعة طيبة جعلت الناس يسعدون بوجود امثالهم فمن ذلك ما يحكى عن محمد بن عمران الطلحي قاضي المدينة، الذي حكم علو الخليفة المنصور (٤) كما كان المهدي " اذا جلس للمظالم قال : ادخلوا علي القضاة فلولم يكن ردى للمظالم الا للحياء منهم لكفى " (٥) . ومن امثلة ذلك ايضا القاضي سوار بن عبدالله ، قاضي البصرة، الذي امتنع عن دفع ارض السقي قائد تخاصم اليه بسببها مع تاجر علو الرغم من كتاب الخليفة المنصور اليه والذي فيه : " انظر الارض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر ، فادفعها الى القائد " (٦) ، فامتنح القاضي ، فاغلظ له الخليفة الكلام قائلا : والله الذي لا اله الا هو لتدفعها الى القائد " (٧) ، فكان رد سوار : " والله الذي لا اله الا هو لا اخرجتها من يد التاجر الا بحق " (٨) فابتهج الخليفة

١-٢ انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ص ١٦٥ - ١٦٦

٣) انور الرفاعي : المرجع نفسه ص ١٦٣ - ١٦٤

٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٨

٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٧٢

٦ - ٧ - ٨ - السيوطي : المصدر السابق ص ٢٨٧

لذلك • لكن هذا لا يعني ان الخلفاء والقضاة كانوا جميعا على شاكلة واحدة بل عكس ذلك نجد • فقد كان القضاة فاسدا في كثير من الاحيان او لنقل القضاة هم الذين كانوا فاسدين والروايات علو ذلك كثيرة جدا • زيادة على ان بعض الخلفاء كانوا يتدخلون في عمل القضاة فقد عمدوا الى حملهم " على السير وفق رغباتهم ليكسبوا اعمالهم صبغة شرعية" (١) مما جعل بعض الرجال يمتنعون عن تولي مهمة القضاء مخافة الافتاء بما يخالف ما هم والشريعة الاسلامية • ومثل تدخل الخلفاء في عمل القضاة نجده فيما حدث عندما دعا الرشيد محمد بن الحسن الفقيه ، صاحب ابي يوسف الشهير ، و ابا البختري القاضي واخرج الامان الذي كان اعطاه يحيى بن عبد الله بن حسن العلوي ، وكان خرج عليه من قبل ، رسأل القوم رأيهم فيه ، فاما محمد بن الحسن فقد اقر الامان واما ابو البختري فنقضه فجازاه الرشيد على ذلك فسماه قاضي القضاة (٢) • ومن امثلة فساد القضاء ايضا ما يحكى عن ابي دلامة حين مرض ولده فأضطر الى المجيء بطبيب وشرط له جعلا معلوما ، فلما برأ الولد من المرض انكر ابو دلامة ان يكون عنده شيء غير انه اقترح على الطبيب ان يطالب فلانا اليهودي بمال هو قدر الجعل على ان يكون ابو دلامة وابنه شاهدين معه ، فلما مثل القوم جميعا امام القاضي خشي ابو دلامة ان يغرمه القاضي ذلك المبلغ فصنع بيتين في هذه المناسبة وانشدهما بصوت مرتفع حتى يسمعها القاضي ومنهما هذا البيت :

إن الناس غطوني تغطيت عنهم وان بحثوا عني ففيهم مباحث

وهذا تهديد صريح يتبين على اثره موقف القاضي من مثل هذه الامور وقوته ، لكن القاضي دفع المبلغ من ماله الخاص حتى يتخلص من الورطة التي وضعه فيها

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والاجتماعي الخ ٠٠٠ ص ٢٩١ ج٢

(٢) احمد فريد رفاعي : عمر المأمون ج ١ ص : ١٢٤

• ابو دلامة (١)

ومن عيوب القضاء في ذلك الوقت ايضا الرشوة ، " فقد بلغت الرشوة درجة انحطت معها نفوس القضاة ومنهم عبدالرحمن بن عبدالله العمرى (بمصر) الذى قيل انه اصاب من الرشوة مئة الف دينار " (٢) • واتهم كذلك القاضي شريك بن عبدالله النخعي بالرشوة وذلك عندما قيل منصب القضاء بالبصرة والذى كان سفيان الثوري قد رفضه فقال احد الشعراء المجهولين في ذلك (٣) :

تحرز سفيان وفر دينه
وامسى شريك مرصدا للدراهم •

ولقد احدثوا ايضا نظام العدول ، ويبدو ان للعدول وظيفتين هما :

" اولا : كتابة العقود بين الناس في معاملاتهم مستوفاة شروطها الشرعية ،
وثانيا : يستعين بهم القاضي على تزكية الشهود الذين يشهدون عنده فـي الخصومات " (٤) •

ويقال ان اول قاضي بمصر اتخذ لمجلسه الشهود هو ابو عبدالرحمن محمد بن سروق الذى ولاه الرشيد عليها عام (١٧٧ هـ) واول من دون اسماء العدول بمصر ايضا هو القاضي مالك ابو نعيم اسحاق بن الفرات وهو كذلك في عهد الرشيد (٥) • ويبدو ان سمعة هؤلاء العدول كانت سيئة للغاية مما دعا اسحاق بن معاذ الى هجاءهم وهجاء من ولاهم بقوله : (٦)

-
- (١) اليافعي: مرآة الجنان ج ١ ص : ٣٤٢ مط المعارف النظامية ط ١ حيدرآباد ١٣٣٧هـ
 - (٢) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٩٥
 - (٣) ابن العماد : شذرات الذهب ١ / ٢٥٠ اليافعي: مرآة الجنان ٣٤٧/١
 - (٤) محمد بن محمد بن عرنوس : تاريخ القضاء في الاسلام ص ١٣٢ المطبعة المصرية الاهلية الحديثة بالقاهرة بدون تاريخ •
 - (٥) محمد بن محمد بن عرنوس : المرجع نفسه ص ١٣٣
 - (٦) محمد بن محمد بن عرنوس : المرجع نفسه ص ١٣٣

لكيما يعيدك كلبا هزيلا
وصيرت قوما لصوما عدولا
بان العدول عديد قليلا

سأدعو الهبي حتى الصباح
سننت لنا الجور في حكمنا
ولم يسمح الناس فيما مضى

وكما نلاحظ ، لم يكن الشعر بعيدا عن هذه القضية وانى له ذلك وهو المعبر
عن هموم الناس ومشاكلهم وكل ما يصيبهم من خير وشر ؛ فقد بين الشعراء
لنا تعسف القضاة وفضحوا ارتشاههم وتزلفهم للسلطان .

ويبقى ان نشير الى ان الحسبة كانت احيانا تلتحق بالقضاء وكانت اعمال
المحتسب هامة جدا وذاتقيمة كبيرة في مجتمع ذلك العصر وهي تدل على
ما بلغت الحضارة العربية من تطور، فقد كان المحتسب مثلا يقوم بمراقبة التجار
وارباب الحرف والاسعار والموازين وكل المخالفات الاقتصادية التي قد تنتج
بسبب الفسح والاحتكار زيادة على مراقبة الاخلاق العامة وذلك بالنهي عن المنكرات
ومعاقبتها، وكذلك مراقبة العبادات هذا مع التأكد من ملاح الابنية والطرق
التي قد تتسبب في كوارث عظيمة . وهناك اعمال اخرى مختلفة يقوم بها المحتسب
مثل التأكد من حسن معاملة السادة لعبيدهم وتعليف البهائم (اي الرفق
بالحيوان) والسهر على الاطفال اللقطاء وجمع الاشياء الضائعة واعادتها
الى ذويها ومنح المعلمين من ضرب الصبيان الخ (١) .

وباختصار فان مهمة المحتسب تقوم مقام عدة وزارات اليوم حيث يمثل
هيئة رقابة عليا لجميع امور المجتمع كالشرطة الاخلاقية والتفتيش وما
الى ذلك .

.....

الباب الثاني

الاتجاه الشعبي

- التمهيد : تحديد مفهوم الاتجاه الشعبي
- الفصل الاول : اغراض الاتجاه الشعبي
- الفصل الثاني : خصائص الاتجاه الشعبي الفنية
- الفصل الثالث : مواقف الاتجاه الشعبي

❦

التمهيد

=====

تحديد مفهوم الاتجاه الشعبي :

- الاتجاه الرسمي في الشعر
- مفهوم الشعر الشعبي:
- الجماعة
- لغة الشعر الشعبي
- العراقنة
- الجهل بالمؤلف
- ندرة الشعر الشعبي
- آراء في شعبية الشعر

.....

يجدر بنا قبل ان نحدد مفهوم الاتجاه الشعبي في العصر العباسي ان نلم المأمة سريعة بمفهوم الاتجاه الرسمي والشعر الرسمي لاننا لو وفقنا في تحديده لاتضح لنا الثاني جليا . فما هو الادب الرسمي والشعر الرسمي على الخصوص ؟ الشعر الرسمي في ذلك العصر هو كل ما جاء متمشيا مع طروحات الاسرة الحاكمة ، وقد كانت تلك الاسرة بعيدة عن الشعب ولم تكن تخالط الاقطاعا معيننا من الناس هم الاعيان والاتباع والقواد وما الرذلك بينما اهملت الجماهير العريضة .

وما تلك الاشارات الواردة في المصادر والتي تدل على اهتمام بعض الخلفاء بالرعية الا من قبيل الدعاية الرسمية لكسب الناس الى جانبهم ، فبالمقارنة نجد ان مدة حكمهم كانت طويلة جدا بينما كانت المنجزات التي تمتع الشعب قليلة جدا زيادة على انحصارها في مناطق محدودة كالحواضر الكبيرة وضواحيها .

الشرط الاساسي اذا في تسمية الشعر بالرسمي ان يكون داعيا للسلطان وان يكون بعيدا عن مطالب الجماهير حين يكون هذا السلطان لايهتتم برعيته وهذا ما حدث في العصر العباسي الاول ، فقد كانت السلالة العباسية مسيطرة على الامور بعدما اخرجت الامويين بالقوة ونكلت بهم ، وكان لا بد لها من دعاية مضخمة تبين ان الخلافة حق طبيعي لها . خاصة ان المطالبين بها كانوا كثيرا ، وكان اخطرهم في نظر العباسيين هم بنو عمومتهم لانهم يستعملون السلاح نفسه في المطالبة بها وهو القرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم ، زيادة على الخوارج ، دعاة الديمقراطية في عصر لم يكن مهيبا لها . وقام جدل كبير بين مختلف قطاعات الناس حول هذه القضية فراح بعض الشعراء الانتهازيين يضررون على هذا الوتر الحساس حين لجؤوا الى قوانين الارث مستغلين الشريعة الاسلامية ففي ذلك ، فرأوا ان الرجال اسبق من النساء وراثة علما بان العباسيين

يستندون التكون جدهم العباس عما للرسول بينما يرتكز بنوعومتهم التي نسبتهم الى الرسول عن طريق ابنته فاطمة الزهراء •

راح اولئك يبينون حق بني العباس في الخلافة ويدحضون حجج المطالبين الاخرين بها فمن ذلك قول مروان بن ابي حفصة : (١)

حطم المناكب كل يوم زحام	خلوا الطريق ليمش عاداتهم
ودعوا وراثة كل اميد حام	ارضوا بما قسم الاله لكم به
لبني البنات وراثة الاعمام	انى يكون وليس ذاك بكائن

ويقول منصور النمرى ايضا (٢) :

والا فالندامة للكفور	فان شكروا فقد انعمت فيهم
وردوا ما يناسب للذكور	وان قالوا بنو بنت فحقق
مع الاعمام في ورق الزبور	وما لبني بنات من تراث

ولان النظام العباسي ، كسابقه ، لم ينبثق من الشعب ، او بعبارة اخرى غرر بالشعب مدة من الزمن حتى استولى على السلطة فادار له ظهره وعامله بأقصى ما كان يعامل به في العصر السابق ، فان الادب ، ادب البلاط الذي كان يدافع عن ذلك النظام ، ليس من الشعب في شيء ، لانه بكل بساطة شعر رسمي ويوق من ابواق الدعاية السلطانية •

وكان النظام العباسي يعرف اخلاق الشعب ويعرف الصفات التي يتمنى هذا الشعب ان تكون فيحكامه وكان لابد له من تشييت سلطته بجميع الوسائل الممكنة ومنها طبع الشعر الذي كان يلعب بحق دورا كبيرا في التأثير على نفوس الناس وخصوصا على العرب ، اذ يكفي ان نذكر ان قصيدة

(١) الاصفهاني: الاغانى ج ١٣ ص : ١٤٣ (ط مصورة عن دار الكتب)

(٢) الاصفهاني: الاغانى ج ١٣ ص ١٤٣

كان بإمكانها ان تشعل حريا ضروسا تدوم سنين طويلة ، ولهذا راح الشعراء
الابواق يصفون القاعمين على الامر بمكارم الاخلاق وبالصفات الحميدة التي
كان ينتشي لها العربي والتيورثها عن اباؤه واجداده كالكرم والشجاعة
ورجاحة العقل والتقوى ونجدة المستغيث الخ... وحاولت الدعايسة
الرسمية الصاق هذه الصفات وما شابهها باولي الامر حتى تثق فيهم الرعية.
وكلامنا هذا لايعني ابدا ان جميع اولي الامر كانوا على شاكلة واحدة بل
كان فيهم من احبه الناس حقا .

ونحن لانعمم حتونقول ان كل شاعر مدح خليفة مثلا هو من الشعراء
الرسميين او من ابواق النظام ان يجب الالئس ان الحاجة كانت تدفع
بالكثير منهم الى المدح حتى يحصلوا على شيء من المال يمسون به رمقهم و
رمق ذويهم . ان الشعراء المداحين اذا جعلناهم ينضون تحت مظلة
الشعراء الرسميين كان حكمنا عليهم قاسيا وخاطئا في الوقت
ذاته ان يجب ان تظل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية
لذلك العصر ماثلة امام اعيننا ، فنحن قد رأينا كيف ان المدح
كان احيانا تجارة يتقاضى صاحبها عليها الاموال الطائلة اذا ادرك كيف
يستعمل الالفاظ المناسبة في الحالات المناسبة . ولايعقل ان نجعل كل
مدح شاعرا رسميا فالامثلة كثيرا ما تبين لنا ان الشاعر قد يمدح
احدا في ظروف معينة ثم يهجو في ظروف معينة اخرى ، ولنا في دعبل
دليل واضح فقد مدح بعض الخلفاء وبعض الوجهاء والنبلاء ، لكنه مع ذلك
كان يمثل باستمرار ثورة على حكم عصره وعلى ظلمهم للناس .

زيادة على هذا نجد ان المداحين لعبوا احيانا دورا ايجابيا
فهم حين يمدحون خليفة ما انما يعبرون عن الصفات التي يراها الناس
جديرة بالسلطان العادل المحبوب من قبل شعبه ، وهم بذلك يوعدون واجبه

نحو الجماهير التي ينتمون اليها لانهم يعبرون عن رغباتها أمام السلطان وينجمون
اولي الامر على القيام باعمال تعود على الجماهير بالفائدة ، ولنا في ذلك امثلة كثيرة ،
سنذكرها في حينها .

بقي ان نشير الى ان الشعر الرسمي ، في العصر العباسي ، على الرغم
من ارتباطه الوثيق بالنظام الذي كان عامة الناس ساخطين عليه ، لم يكسب
بعيدا كل البعد عن الجماهير كما كانت تريد له السلطة ، فالحكام آنذاك وان
كانوا قلة ، فقد اثروا في الجماهير بتشجيعهم عادات مدينة ومحاربتهم عادات
اخرى . ولكنهم تأثروا من جهة اخرى بآراء الشعب كذلك لان عملية التأشير
والتأثر كانت مستمرة على امتداد ذلك العصر .

والملاحظ أنه حينما وجد التنافر بين الحكام والمحكومين كان هناك أدبان ،
رسمي وشعبي : يعبر الرسمي عن آراء السلطة التي تتحكم بها الاقلية ، ويعبر
الشعبي عن الجماهير التي تمثل الاغلبية الغالبة . ولا تنتفي هذه الظاهرة الا في
حالة واحدة وهي في حال انبثاق السلطة فعلا عن الجماهير بحيث تكون معسرة
عن امواتها ومحقة لرغباتها ، ففي مثل هذه الحال يصبح الادب الشعبي والادب
الرسمي شيئا واحدا لان السلطة تكون حينئذ قد امتزجت بالشعب .

وحان الوقت الآن لنحدد مفهوم الشعر الشعبي في عصرنا ذلك . فما هو
الشعر الشعبي ؟ جرت العادة أن يعرف الباحث الظاهرة التي يدرسها تعريفا
جامعا مانعا كما يقول الناطقة . لكن مثل هذا التعريف في ظاهرتنا
امر صاف للعلمية ولذا نخشى اذا نحن عرفنا الشعر الشعبي في العصر
العباسي أن نسقط في التعميم الذي يجعل الرؤية ضبابية ، وسبب
خشيتنا ناتج عن ان الشعر الشعبي الذي وصل الينا من ذلك العصر

شيء قليل جدا وان كان الذي بين ايدينا منه يعطينا فكرة عنه ، ولعدم وصوله اليها اسباب كثيرة منها ضياع الكثير من الكتب التي تكون قد تناولته زيادة علو الحصار الذي كان مضروبا عن ذلك الضرب من الشعر لما فيه من حقائق كان اولو الامر يخشون ظهورها ؛ وانطلاقا مما لدينا من نصوص يمكن ان نجازف بالتعريف التالي علوان يكون مؤقتا حتى تسمح الظروف بظهور المزيد من ذلك الشعر ، وهذا التعريف يرى ان "الشعر الشعبي هو الذي يتناول هموم الناس وامالهم وطموحاتهم وارتأفهم في جميع القضايا المطروحة على عصرهم سواء اكانت سياسية ام اقتصادية ام اجتماعية ام ثقافية شرط ان يكون هذا الشعر مادقا وان يكون بينه وبين الجماهير تجاوب تلقائي واتفاق مباشر " .

وهكذا لا يسمى اى شعر شعبيا الا اذا كان يمس حياة الشعب لان الجماعة لن تتأثر بالشعر الا اذا كان يعالج شيئا يمس حياتها " (1) . نقطة الانطلاق اذا هي الجماعة وكل ما يمسها ، ففي هذه الجماعة تختلج جملة من العواطف والافكار والمصالح والمشاكل والامال والرغبات وما شابه ذلك ، ولها كلها تأثير مؤكّد على الفرد الذي يوءثر بدوره فيجماعته التي يتأثر بها . حياة الجماعة معقدة ومتعددة الجوانب ، وهذا ما يجعلنا نعرف ان للشعر الشعبي معينا خصبا لا ينضب ابدا ، وكيف ينضب ما كان معينا على الحياة ؟ الشعراء الشعبيون يفرغون من هذا المحيط الضخم الذي هو حياة الشعب بكل ما فيها من خصب وتنوع وجدة .

والحياة لا يمكن ابدا ان نحصرها في ظواهر معينة تنقلب الى قوالب ادبية وبعبارة اخرى لا يمكن حصرها فيها غراض شعرية محددة كالغراض التقليدية المعروفة من مدح وهجاء ورثاء وغزل الخ

ان الحياة تأبى هذا التقييد في الوقت الذي لا يمكن للشاعر فيه ان

الرجاء احمد عصفور : مفهوم الشعر ، دراسة في التراث النقدي ص ٢٧٤

دار الثقافة للنشر والطباعة القاهرة ١٩٧٨ .

يفلت من قيود محيطه ومجتمعه ، فهو محكوم عليه ان يتأثر به ، اى ان يتأثر بهذا المجتمع المتغير دائما ، المتطور باستمرار ، والسدى لانتوقف فيه الحركة والنمو ابدا (١) على الرغم من ان وثيرة التغيير والتطور والنمو قد تكون بطيئة حينما حتى تبدو وكأنها لا تتحرك ، وسريعة حينما اخر حتى يبدو اللحاق بها يكاد يكون مستحيلا . وبما ان الجماهير تمثل الاغلبية الساحقة في اى مجتمع ، فان اغلبية الشعراء تكون تابعة منها . ودليلنا هو " هذا الاتصال الوثيق بين الشعر والشعب . . . الذى جعل اكثر شعراء الشعب من ابناء الطبقة العامة العاملة " (٢) فالاساس اذا فبالتمييز بين شاعر رسمي واخر شعبي هو في البحث عن اصل الشاعر ومحيطه وبيئته من العلم ان الشاعر انسان يتغير حسب الظروف المحيطة به ، فقد يكون من الطبقة المترفة ومع ذلك يشعر بالناس لانهم قد يجد نفسه في خضم الحياة ملتقيا بالشعب معبرا عن همومه فيتشرب من ذلك المحيط معاناته ويتأثر به ، وبالعكس قد يكون فقيرا ابن فقير ولكن له نفسا تواقة الى فوق ، الى قمم السلطة ، الامر الذى قد يجعله ينسلخ عن طبقته ويعبر عن الاخرى فتصبح القضية بذلك " قسمة شعر لاقسمة شعراء " (٣) وحين نقول قسمة شعر فاننا نعني بها انتماء الوجهة معينة ، فامنا انتماء الى الجماهير واما انتماء الرومائي في ذلك . فالشاعر الصادق هو الذى يعبر عن حقيقة وضعه بصدق بحيث لا يعبر عن الشعب الا من كان حقا منه ولا ينطق بشعر بعيد عن الشعب الامن هو بعيد عنه .

(١) مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٠٣ دار العلم

للملايين ط الثانية بيروت ١٩٧٥ .

(٢) شوقي ضيف الشعر وطوابعه الشعبية علوم العصور ص ٦٢ دار المعارف

بمصر ط اولى القاهرة ١٩٧٧

(٣) احمد كمال زكي : الحياة الادبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني

الهجرى ص ٣٢٢ دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٨١ .

هناك قضية اخرى شغلت بال الباحثين الا وهي لغة الشعر الشعبي .
كيف تكون اللغة حتى نسميها شعبية ؟ وبالمقابل كيف تكون حتى لانسميها
شعبية ؟ هل هناك تعارض بين اللغة الفصيحة وبين الشعبية ؟ قبل كل
شيء لابد من استبعاد قضية الفصاحة بمفهومها التقليدي والنظر اليها
بمنظار جديد يجعل اللغة فصيحة اذا كانت تعبر عن الناس الذين يتكلمون
بها في ظروف معينة . وهذا يعني ان اللغة متى عبرت عن خواطر اصحابها
واحلامهم واملهم وطموحاتهم فهي فصيحة ومتى لم تعبر فهي غير فصيحة
مع العلم ان التعبير بها يجب ان يكون مفهوما من قبل عامة الناس الذين
نتجت عنهم . ليس هناك اذا تعارض بين الفصاحة في نظرنا وبين الشعبية
فقد يما قيل لكل مقام مقال ونحن نقول لكل مقام في كل عصر مقال . وهكذا
يتغير مفهوم الفصاحة من عصر الى عصر كما تتغير الحياة وظروف الناس
ويبدأ المفهوم تصبح اللهجات جميعها فصيحة لانها تعبر عن قطاع معين
من الناس في فترة معينة من مراحل تاريخهم . وهذه اللهجات تمثل في
مجموعها اللغة العربية عبر الازمان والامصار ، فاللغة في العصر الجاهلي
ليست هي نفسها في العصر العباسي لكنها مع ذلك تبقى لغة عربية تعبر
عن مرحلة معينة ، وعوض ان نقول تلك فصيحة والاخرى غير فصيحة فمن
الاصوب ان نقول ان هذه او تلك انعكاس لوضع معين عاشه العرب في فترة
معينة . والملاحظ ان اللغة في عصر لاحق تكون اكثر اتساعا مما سبق
لانها زيادة على التراث الذي تحمله من العصر السابق فانها تزداد غنى
بالتجارب الجديدة ، وهي كذلك تنتقي ما يصلح من الماضي وتضفي عليه مفاهيم
جديدة .

اما اللغة في العصر العباسي ، فليس من السهل ان نعرف بالتفصيل
ما كانت عليه يومذاك نظرا لتباعد العهد بيننا وبينها ، لكن الشواهد التي
عبرت الزمن ووصلت اليها كقيلة بان توضح لنا القضية بعض التوضيح .

فأول شيء نلاحظه هو وجود ثغرة بين اللغة الفصحى وبين لغة الشعب ،
ودليلنا هو حركة التأليف في اللغة التي نشطت منذ العصر الاموي وبلغت
اوجها في العصر العباسي ؛ اى ان نشوء لغة جديدة بعيدة نسبيا عن اللغة
المعروفة في صدر الاسلام او منحرفة عنها كان احد الاسباب في تقنين
اللغة وتعليمها بالتالي الهمن يجهلونها . ولعل الرواية التي تحكي نشأة
النحو على يد ابي الأسود الدؤلي حين اخطأت ابنته معه خير دليل على ذلك .
لقد تطورت اللغة تطورا سريعا كالأحداث التي شهدها ذلك العصر بحيث
اصح يخشى مع تطورها ذلك على التراث العربية القديم بكل ما يعنيه من مفاهيم .
صحيح انه كان للإسلام دور كبير في ظهور حركة التأليف في كثير من العلوم
لكن هذا يعني كذلك من بعض الجوانب ان اللغة كانت تتطور بطريقة حتمية
وسريعة حتى وان كان في تطورها بعض الضرر للإسلام وللقرآن الكريم الذى نزل
بها . ومن هنا يمكن ان نقول ان الفصاحة بمفهومها التقليدى قد انتهت
في العصر الاموي الذى شهد اعظم الفتوحات التي ذهب فيها العرب بعيدا
عن جزييرتهم واختلطوا بغيرهم من الاجناس والشعوب فظهرت هنا وهناك لهجات
عامية وان كان اساسها الفصحى .

ولذا يجب ان تنتفي ثنائية الفصحى والعاميات لانها قضية تعرقل
البحث فقط دون ان تمل النتيجة اذ ماذا عسانا ان نقول عن اللهجات
العربية في العصر الجاهلي ؟ هل كانت لهجة قريش وحدها فصيحة ؟ كلا
طبعاً . ليس البحث في هذه القضية شيئا جديدا بل هو قديم قدم الدراسات
اللغوية ذاتها ولم يتوصل فيه النتيجة لانه عولج بصفة احاديثية .
واذا قبلنا بتلك الصفة فهذا يعني اننا نقف ضد تيار الحياة المتطور
اذ كيف يعقل ان تبقى العربية على حالها - اى ان تبقى فصيحة بذلك
المفهوم - وهل يجوز ان نطلب من شاعر كأبي نواس ان يكون كامرئ القيس؟

لا يمكننا ذلك اللهم الا اذا استطعنا ان نثبت الحياة في مرحلة واحدة
ونوقف سيرورتها وهذا محال .

ولعل السبب في هذا الاشكال هو ان اللغة تقديس في اغلب الاديان لارتباطها
بدين من الاديان وخاصة تلك التي لها كتب كالدين الاسلامي والمسيحي
مثلا ، فمن هنا ونظرا لارتباط اللغة بالكتب السماوية يخشى الناس اي
تجديد في هذه اللغة بل يحاربونه بشدة اما عن الوعي او عن وعي وادراك ،
ويبتغى هذا الوعي في العصر العباسي الاول ، في ان السلطة الحاكمة فيه
كانت تستعمل الدين لسيطرتها على الجماهير وتستقله بدليل اسماء الخلفاء
كالمنصور والمهدي والرشيد الخ ونفهم هذا في ذلك الاطار العام
الذي كانت تمثله العقلية الغيبية السائدة في ذلك العصر ، لقد كان
لاصحاب اللغة الفصحى في ذلك الوقت امتيازات كبيرة فهم اصحاب السيادة
عادة وهذا ما يجعلنا نفهم تلك النظرة الى اللغة العامية او الى الانتاج
الادبي الشعبي لذلك العصر والتي كانت نظرة احتقار وازدراء .

ومن هنا ايضا نستنتج مدى استعمالهم اللغة كوسيلة للحفاظ " على
الاضاع الطبقية والاجتماعية " (١) .

ونحن لانريد ان نقول ان العباسيين الحاكمين كانوا يدركون هذا
تمام الادراك بل انهم جعلوه يطبق تبعا للسياق العام لسياستهم ولتشجيعهم
لذلك النمط من اللغة كما كان يحدث في المدايح التي كان الشعراء يمدحونهم
بها فهي كلها او اغلبها في صيغ رسمية كما اريد لها على الرغم من ان

(١) شوقي عبد الحكيم : الفولكلور والاساطير العربية ص ٢٠٧ مط دار ابن

الشعراء لم يستسيغوا ذلك كله ولم يرتاحوا اليه^(١).

وهذا دليل آخر على تباين مستويات اللغة في ذلك العصر ، اولئذ انه ارضى كل مستوى لغوي ببيئة معينة من الشعب .

والنتيجة ان لغة الشعر الشعبي في نظرنا هي اللغة التي يفهمها الشعب وهي في بحثنا اللغة التي يفهمها الانسان العادي في العصر العباسي الاول .

وتجدر الملاحظة الى أن بعض الباحثين المحدثين في ميدان الأدب الشعبي قد جعلوا اللغة العامية من الأمور الدالة على شعبية الشعر بمعنى انهم لا يسمون الشعر شعبياً الا اذا كان ناطقاً بالعامية والتي تختلف في عصرنا هذا من قطر عربي الى آخر مع وجود أمور كثيرة متشابهة فيها . ولا يخفى ما في هذه الفكرة من الخطأ لاننا كما قلنا سابقاً ليس كل ما يكتب بالعامية يسمى شعبياً أو كل ما يكتب بالفصحى يسمى رسمياً بل نجد المحتوى الشعبي في هذه وتلك كما نجد الرسمي فيهما أيها .

ان الذين جعلوا العامية من خصائص الشعر الشعبي اعتمدوا هذه الصفة المرضية والتي ستزول بزوال موجباتها . ان الوضع الراهن للامة العربية جعلها تدو وكان العامية طاغية عليها وهي كذلك فعلا الا ان هذا الوضع ليس دائما وليس مستمرا بل سوف ينتفي اذا انتفت أسبابه كذلك . فمن اسباب شيوع العامية في الاقطار العربية وتباعد ها بعضها عن بعض احيانا بالرغم من وجود الصلة بينها ، فمن أسباب ذلك تفشي الأمية بين الجماهير العربية والتي تتجاوز نسبة الثمانين بالمئة أحيانا في بعض الأقطار .

الا ان هذه الدول وضع بعضها مشاريع كبيرة وبرامج عريضة

(١) - حسين عطوان : مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ص : ١٦

طبع دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٤ .

طويلة المدى للقضاء على الامية . ونجاح هذه البرامج سوف يقرب حتماً بين الجماهير العربية الموزعة شرقاً وغرباً وهذا ما يجعل لغة العرب تتوحد بصفة حتمية . والخلاص هو طبعاً في تعليم اللغة العربية . لنتصور ان جميع الاقطار العربية انتفت منها الامية واصبح كل مواطنيها متعلمين ومثقفين ، هل سيبقى بعد ذلك مبرر لكتابة الشعر بالعامية وغيره من الفنون ؟ ابدأ، وهذا يبين الخطأ الذي وقع فيه الباحثون المحدثون والذين جعلوا العامية خاصة من خصائص الشعر الشعبي . ولاداعي لذكر اسباب هذا الوضع كالفترة الزمنية التي استعمرت فيها السدول ودور الاستعمار في القضاء على اللغة العربية . ولعل ابرز دليل لنا في عمالية المسخ التيقام بها المستعمر ما حدث في الجزائر حيث لجأ المستعمر الى اصدار جرائد مكتوبة بالعامية حتى يوهم الجزائريين بان تلك هي لغتهم وكان يطلق على تلك العامية اللغة العربية في الجزائر وفوق هذا لجأ الى تعليمها في المدارس بعد افراغها من كل محتوى ايجابي كما فرض على معلمي الصبيان ان يلقنوا القرآن الكريم دون تفسير، ونحن شخصياً عشنا هذه التجربة حيث اصبحت العربية تبدو غريبة في وطنها وكأنها لغة قوم آخرين، لكن كل تلك المحاولات باءت بالافخاق كما هو معلوم على الرغم من ان تلك السياسة الاستعمارية تركت لها بعض الازناب الذين ما زالوا يجنون الى العهد البائد .

ومع كل هذا فان اللغة وحدها لا تكفي لجعل الشعر شعبياً لاننا لو اعتمدنا اللغة وحدها فستواجهنا مشكلة اخرى وهي ان الكثير من الانتاج الادبي الذي تحمله تلك اللغة ليس فيه من الشعبية شيء لانه يصدر عن الذات الفردية وليس معبراً عن الجماعة . وهذا مانجده ايضاً في الشعر الفصيح والقضية نجدها قديماً وحديثاً. ان المشكلة متشابهة سواء

في العصور القديمة ام في العصر الحديث ففي عصرنا هذا لهجة فضيحة
واخريات عاميات تقترب ان كثيرا وان قليلا من الام ، وفي الجانبين
شعر رسمي وشعر شعبي اما في القديم فاللغة الفصحى هي الغالبة نظرا
لقرب القوم انذاك من عهد الفصاحة ، لكن المشكلة نفسها موجودة
اذ ان هناك شعرا شعبيا واخر رسميا .

وتستطيع التغلب على هذا اللبس بالعودة الى خصائص اخرى في الشعر
الشعبي تكون هي الفيصل ومنها الوجدان الشعبي او الذات العامة (1) .
وهذا الوجدان العام يختلف باختلاف العصور وحسب تطور المجتمعات ، ففي
العصر الجاهلي كان النظام القبلي هو السائد وكان شيوخ القبائل واعيانها
ولغنياؤها هم الذين يمثلون السلطة الرسمية وكانت الفئات الاخرى
تمثل الجماهير العريضة ، ويكفي ان نتذكر الصعاليك وعروة بن السور
وبيته الشهير (2) :

افرق جسمي في جسوم كثيرة واحسو قراح الماء والماء يارد

ثم جاء الإسلام فتحول الوجدان العام الوجدان ديني لان الاسلام جاء ثورة
على الأوضاع وجاء نصرة للمظلومين ولصالح الطبقات المستضعفة والمحرومة
ثم سيطرت الاسر المالكة ابتداء من معاوية فأساعت كثيرا التلك الطبقات
التي لم تفرح الا قليلا بمجيء الاسلام اذ سرعان ما انتهك بنو أمية أهم
شرط في الحكم الاسلامي وهو مبدأ الشورى زيادة على الظلم الذي كاله للرية

(1) عبد الحميد يونس : دفاع عن الفولكلور ص 108 مط الهيئة المصرية العامة
للكتاب القاهرة 1973 ونبيلة ابراهيم : اشكال التعبير في الادب
الشعبي ص 1 دار النهضة مصر بدون تاريخ .
2 - الاغانى ج : 3 ص 74 مصورة عن دار الكتب

فاستيقظ الوجدان القومي عند كثير من القبائل الداخلة في الاسلام مما ادى بها في النهاية الى الانفصال عن السلطة العربية التي كانت رأس الامة الاسلامية . وتبعاً لذلك كان الشعر الشعبي يتخذ الاشكال المناسبة التي تفرضها المرحلة التي يمر بها المجتمع .

ومن المقررات التي اوردها الباحثون لتمييز الادب الشعبي العراقي (1) ، وهذا امر طبيعي لان المجتمعات تختلف دائماً في خصوصياتها . على الرغم من تشابهها في مسارها التاريخي العام ، ولا يمكن ايداً ان نجد ظاهرتين تاريخيتين متشابهتين تمام التشابه لان اختلاف الظروف المحيطة بهما في الزمان والمكان يقوم بدور كبير في صياغة شكل الظاهرة وفي ايجاد خصائصها . ومن هنا فلاعجاباً اذا كان الادب الشعبي عريقاً في مضمونه وشكله وصيغته المختلفة ، فعراقته تأتي من كونه مرتبطاً بشعب معين في فترة وفي رقعة محدوتين ، لكن هذا لا ينفي ايداً انه يغني التراث الانساني على الرغم من تميزه .

اما الجهل بالمؤلف (2) فلا يؤثر كثيراً لان المؤلف معروف نوعاً فهو اي واحد من ابناء الشعب الذي انتج ذلك الادب ، وسواء عرف المؤلف ام لم يعرف فهذا لا يقلل ايداً من قيمة ادبه مع العلم ان للادب استقلالية عن منتجه ، كالوالدين يعطيان النور لمولودهما لكنهما لن يستطيعا ايقاف نموه ، فالطفل على الرغم من والديه وكذلك الادب والادب الشعبي خاصة اذا خرج الى الوجود ، يصبح مستقلاً عن صاحبه ، ويحق للشعب حينئذ ان يضيف عليه وينقحه ويثنيه بالتجارب الاخرى دون ان يكون للاديب حق الاعتراض ، ولنا في السير مثال وخاصة السير الشعبية كابي زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن وغيرهما .

(1) عبدالحميد يونس دفاع عن الفولكلور ص 104 - 106

(2) المرجع نفسه ص 104 - 106

اما ان يجعل البعض في عصرنا هذا الجهل بالمؤلف اساسا لشعبية الشعر والادب عموما فهذا يعني اننا نخاف ذاتية المؤلف ونخشاها كأنها كابوس يفقد الشعر قيمته الفنية ، وهذا يعني اننا نتجاهل ان المؤلف واحد من الشعب يحس بما يكابده الشعب ويعانيه ويصوغه في قالب فني .
فماذا يضر لو عرفنا ان الاشعار الفلانية كتبها بيرم التونسي مثلا ؟ وماذا يضر لو عرفنا ان الفاليلة والاشعار كتبها زيد من الناس او عمرو ؟ وماذا يضر لو عرفنا ان اشعار الصغار كتبها عروة بن الورد او ابو فرعون الساسي ؟ لو كان الشعر فعلا شعبيا فلن يغير شيء البتة إذ ليس الجهل بالمؤلف ابدا اساسا في تحديد مفهوم الشعر الشعبي .

وهناك ظاهرة اخرى تعترض سبيل الباحث في هذا المضمار وهي ندرة الشعر الشعبي في مصادرنا الادبية القديمة اذا ما قورن بغريمه الشعر الرسمي ، وتبعث المراجع الحديثة سابقاتها في ذلك . واسباب ندرة هذا الشعر كثيرة منها ان كثيرا من المصادر تلفت او ما زالت مخبأة في اماكن مجهولة ولم تر النور حتى الان ومنها ان الرواة القدامى كانوا يترفعون عن ذكر الشعر المرتبط بالعامية لانه من صنع السوق كما يقولون ولانه لا يصلح لاسئمتهم الجليلة ان تطلق به وكل ذلك ناتج عن النظر السلفية التي سيطرت على كل مناحي الحياة في تلك العصور ، وهي ايضا احدى نتائج تأثير السلطة الحاكمة انذاك على الجماهير بحيث راحت تضيي الاحترام والتقدير على كل ما هو قديم ، وتزدري كل ما هو حديث وتحتقره حتى ثارت تلك القضية في العقد القديم وهي الشبهة بالقدامى والمحدثين ، وكان لكليهما انصار واشياع ، وهذه جملة من العوامل اسهمت كلها في اندثار الكثير من الشعر الشعبي في العصور القديمة ، وانفة الرواة عن ذكر مثل ذلك الشعر جاءت نتيجة الدعاية الرسمية التي شارك فيها الحكام والادباء واللعوين والمحدثون وغيرهم ممن كان

لهم مصلحة في ذلك • ويمكننا هنا أن نستشهد بقول ابن الاعرابي في قضية
القدامى والمحدثين حيث يقول : " انما شعر هؤلاء المحدثين - مثل ابي
نواس وغيره - مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، واشعار القدماء
مثل المسك والعنبر ، كلما حركته ازداد طيبا " (١) •

كانت النظرة اذا احادية الجانب ، اعطت جزءا من الادب كل الاهمية
الاستثنائية على حساب الجزء الاخر الذي تجاهلته ، فحين كان يذكر بعض
اولئك الشعراء الشعبيين مثلا في مصادرنا فانما يذكرون من اجل التندر
والفكاهة لا غير او يخط من قيمتهم صراحة تمشيا مع فكرة ازراء ما يتصل
بالشعب ، فهذا ابو هفان الناقد المشهور حين يذكر القصافي الاب يقول
عنه : " كان لا يمدح الا وضيعا مثل فرج الرخجي (٢) وطبقته فسقط كثير
من شعره " (٣) • وما احوجنا في موضوعنا هذا لمثل هذا الشعر الذي
كان يقوله القصافي في اولئك " الوضاعا " • ومثل قول ابي هفان كثير
في تلك المصادر وحتى المحدثون حين يذكرون بعض اولئك الشعراء كأبي
فرعون الساسي او ابي الشمق فانما هدفهم الفكاهة والتندر وعلى الرغم
من ان هذين الشاعرين لجا الى السخرية كوسيلة تبليغ حتى يكون لكلامهما
الصدى الانسب فان سخريتهما من النوع المأساوي الذي يبكي اكثر مما يضحك •

(١) المرزباني: الموشح ص ٣٨٤ تحقيق علي محمد البجاوي مط دار نهضة
مصر القاهرة ١٩٦٥ •

(٢) فرج الرخجي: كان مملوكا لعمدونه بنت الرشيد ولحق ولاؤه بالرشيد
فقلده الاهواز (ابن الجراح : الورقة ص ٨) •

(٣) ابن الجراح : الورقة ص ٨ تحقيق عبدالوهاب عزام وعبدالستار
فراج ط ٢ مط دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٥٣ م

وجاء الان دور مناقشة بعض الاراء حول شعبية الشعر فمن ذلك قول البهيتي من ان اخر الحكم الاموى كان فيه " نمو للشعبية في الشعر لانه عهد فكاك النفوس مما كان يغلها من قبل من اسار " (١) .

اولا: ان العهد الاموى من اوله الى اخره ، لم يكن عهد فكاك للنفوس مما كان يربطها من قبل في جميع الميادين ، فمن الناحية السياسية نعرف جميعا ان الامويين لجؤوا الى مبدأ " فرق تسد " وذلك يجعلهم القبائل تتفارب وتتصارع فيما بينها باحياء العصبية القبلية التي حاول القرآن نزعها من نفوس العرب واستبدالها برابطة اوسع واشمل هي رابطة الاسلام .

ثانيا : كلنا نعرف ما فعل الامويون بآل البيت الذين كان ينظر اليهم الشعب على انهم وحدهم مخلصوه من المحن التي هو فيها ومقاتل الطالبين شاهد على ذلك .

ثالثا : اذا كان الكاتب يقصد بفك الاسار على النفوس تلك الامور التي بدأت تظهر لدى بعض الخلفاء ولدى قطاع قليل من الناس كالاستخفاف بحدود الدين وتعاليمه فهذا لم يكن عاما لدى الشعب ولم يمل اليها وصل اليه في العصر اللاحق .

ولسنا ندري لماذا ربط الكاتب بين نمو الشعبية وفك الاسار على النفوس لان الشعبية موجودة باستمرار حيثما كان الشعب ، وربما قد تكون اوضح في الفترات التي تتعرض فيها الشعوب للتسلط والظلم والعنف كما حدث في العصر الاموى بالذات .

(١) البهيتي: تاريخ الشعر حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٣٨٣

ويقول الكاتب مرة اخرى ان الشعر الشعبي كان " يتجه الى شعبية
تقره من نفوس الناس وتباعده بينه وبين مذهب الشعر الرسمي الذي سبقه" (١) •
ونفهم من هذا الكلام ان الشعر قبله ان رسميا كله وهذا غير صحيح لان
الشعر العربي حتى قبل العصر الاموي كان يهتم بالناس الا ان ظروف كثيرة
حالت دون وصوله اليها كما قال سابقا النظرة السلفية للتراث
ومنها ان كثيرا من الشعر قبل الاسلام كان مرتبطا بالوثنية وكانت فيه
امور مخالفة للإسلام فترفع رواتنا عن ذكر مثل ذلك الشعر زيادة على ان
الكثير منه قد ضاع بسبب اختفاء بعض المصادر التي اشارت اليه ويسبب
الرواية وهي الطريقة المستعملة انذاك فينقل الاخبار من عصر السبي
عصر ، ففي الرواية تضيع التفاصيل ويطور الخبر حسب الزمان والمكان •
لكن ماذا يفهم صاحب هذه الآراء السابقة من الشعر الشعبي او من
شعبية الشعر كما يسميها؟ انه يراها " اتجلمها فطريا من الشاعر الذي
نحو من التعبير عن صاحبه في غير تقيد بالتقاليد الموروثة ، تقيدا
يجعل الشعر كله صورة مكرورة من القديم " (٢) فهو يرى اذا ان كل
شعر غير قديم وكل شعر يثور على التقاليد الفنية الموجودة قبل العصر
الاموي هو شعر شعبي • وهذه مغالطة يجب الا تقع فيها فكم من شعر "حديث"
في ذلك الوقت لم يكن الا امتدادا للشعر الرسمي وكم قديم كان يمثل
قمة الشعبية •

وهو يرى ان الشعبية العامة للشعر تحققت في العصر العباسي بعدما
سبقتها اراء سات مهدت لها في العصر الاموي (٣) • وهذا صحيح من ناحية
فقط بحيث ان تراث عصر ما يوسع حتما ان سلبا وان ايجابا في تراث العصر

(١) البهبهيتي : المرجع السابق ص ٣٣٥

(٢) البهبهيتي : المرجع نفسه ص ٢٩٤ - ٢٩٥

(٣) البهبهيتي : المرجع نفسه ص ٣٨٤ - ٣٨٦

اللاحق ، وذلك بازدهار بعض الجوانب منه وطفوها العا على بعدما كانت خافتة او باندثار بعضها الاخر الذى لم يعد يلائم العصر وان كان من قبل يحتل المقدمة ، ولنا مثال في ظاهرة التقاوض التي اختفت بعد ان سبّلت العصر الاموى ضجة وضجيجا ، وباختصار لا يبقى الا ما يتماشى مع متطلبات العصر الجديد .

وهو يفهم ايضا من الشعبية سهولة اللفظ بحيث يستعمل الشاعر الالفاظ الجارية على السنة العامة والتي يفهمها الشعب بدون كبير عناء وهذا صحيح ايضا من ناحية واحدة فقط لان الجماهير تفهم وتتذوق ما يمسه بسهولة وبسرعة اكثر من الموضوعات الاخرى التي لاعلاقة لها بها . ثم يستشهد على اقواله هذه بشعر بشار وابي العتاهية فيرى ان بشارا ادرك " وجوب ان يمل الشعر الى كل انسان وان يعالج كل موضوع " (١) . وهناك يلمس الكاتب الموضوع ويضع يده عليه لكنه سرعان ما يبتعد عنه بقوله : " نزل بشار بالشعر الرفيع من موضوعاته الرفيعة في الشعر الى كل موضوع مهما بلغت ثقافته يعالجه شعرا ليرضي طائفة من الناس " (٢) ولا يكفي ان يتناول الشاعر اى موضوع تافه وينظم فيه شعرا ليصبح شعبيا ، لان بشارا حين تناول تلك الموضوعات كان يصدر عن وجدان ذاتي مما جعل شعره فردى الاتجاه احيانا كثيرة . وهذه قضية نجدها في شعرنا العربي منذ العهد القديم وحتى الان سواء كان بالفصحى ام بالعواميات المختلفة وهي الشعر الصادر عن الوجدان الفردى ، فهذا الشعر ليس رسميا ولكنه ليس شعبيا كذلك على انه من الشعبية اقرب ويمكن ان نلحقه بالشعر الشعبي ونسميه

(١) البهبهيتي: تاريخ الشعر الخ ص ٣٥٤

(٢) المرجع نفسه : ص ٣٥٣

عامية للتفرقة فقط وهذا لايعني ابدا اننا نسيء للعامة في شيء *

نعود الى قضية الشعر الرفيع التي طرحها الكاتب حين تحدث عن بشار
والتي يفهم منها ان الشعر يجب ان يبقى في صومته عاليا نقيًا وان بشارا
اساء الى هذا الشعر حين نزل به الى الناس وموضوعاتهم الثقافية * وهنا
يجب ان نتساءل : ماذا يقصد بالرفعة في الشعر ؟ فان كانت تعني ان يكون
الشعر جزلا ومحبوكا على طريقة القدامى وان يتناول الموضوعات
" الجادة " التي تناولوها فهو لايعدو ان يكون تابعا لشعر الدعاوية
الرسمية التي تثبتت بمثل هذه الافكار حتى تسمح لها بالسيطرة على الوضع
الراهن * اما اذا كانت الرفعة ان يكون الشعر : مستوى تطلعات الجماهير
وطموحاتها فهذا هو الشعر الشعبي الحقيقي *

اما ابو العتاهية فان الكاتب يرى انه
في لفظ الشعر " (١) لكن اللفظ الشعبي وحده غير
كما ذكرنا من قبل لان الاهم من ذلك هو المضمون الذي
على الشاعر الفاظا تناسبه ، فشعر ابي العتاه
الوافر من الشهرة والانتشار بسبب لفظه وحده بل
طرحها وعالجها كالوضع الاجتماعي والاخلاقي والاق
كان ينتمي اليه * وعلى الرغم من اشتهار ابي
طغى على شعره الا انه في ذهنه ذلك كان يتصدى ل
كان يعاني منها الناس في العصر العباسي الاول *

ويرى الكاتب اخيرا ان الشعبية بجميع مفاهيمها تمت في العصر
العباسي ، وان الخليفة الاموي الوليد هو الاب الروحي للعصر كله (٢) *
ففي الشطر الاول من قوله تعميم لايفي بالفرض لاننا بينا سابقا ان الشعر

(١) البهبهتي المرجع السابق ص ٣٨٧

(٢) المرجع نفسه ص ٣٢٦

الشعبي كان وما زال موجودا منذ اقدم العصور وليس من المنطق في شيء ان ينفرد عصر واحد به دون العصور الاخرى ، وفي الشطر الثاني من قوله مبالغة صريحة اذ كيف يعقل ان يكون شخص واحد ابا فنيا لعصر زاخر بصنوف الفنون والانجازات في مختلف مناحي الحياة كالعصر العباسي ، على الرغم من ان الفرد في ظروف معينة قد يوفّر في عصره بأكمله وربما في عصور عديدة مثل الانبياء والعلماء والفلاسفة . والوليد بالذات لم يكن ابا لظاهرة الشعبية في العصر العباسي لانه اولبعيد عن الجماهير لكونه خليفة من اسرة نغم عليها الشعب كثيرا بل يمكن ان نقول ان الذين قلدوه كانوا مثله موسرين مدفوعين لان يستمتعوا بالخيرات التي تدفقت عليهم دون ان يتعبوا في الحصول عليها . لم يوفّر فيهم الوليد اذا بل وضعهم المشابه لوضعه هو الذي فرض عليهم ان يكونوا مثله وربما اكثر منه .

وخلاصة القول ان الكاتب وقع في هذه المغالطات لانه اتخذ الشكل

وعدده فيملا في الحكم على الشعر ولولا الشكل لما استطاع ان يربط بين الوليد وبين ابي العتاهية . ومرة اخرى نقول ان الشكل وان كان يلعب دورا كبيرا في تحديد الاتجاه الا انه يبقى ناقصا ما لم يدعم بالمضمون الذي يعطي المعنى الحقيقي للشعر .

وهناك باحث اخر وقع في المغالطات نفسها تقريبا وهو احمد صادق الجمال ، فهو يقول في اثنا حديثه عن الفرق بين الادبين الشعبي والعامي : " نفرق بينهما على اساس الاعتبار اللفظي اولا ، فنجد ان الادب العامي قد استقى مادته من الفصحى المصحفة والملحونة ، ومن الالفاظ الدخيلة بل ومن اللغة الجارية ، الا انه قد ظهر فيها التجريد ولاكذلك الادب الشعبي الذي يتخذ مادته من الملحون والدخيل ، الا انها الفاظ اسلوب الحديث الجارى . . . وهكذا لا يخط الادب العامي حدودا معينة لالفاظه كي يلزمها كما

هو الحال في الادب الشعبي" (١) وقد تعمدا نقل هذا النص كما جاء على الرغم من طوبوله لنبيين غموضه ، اذ يبدو جليا ان الفكرة لم تتضح لسدي هذا الباحث ، فهو يحاول ان يفرق بين الادبين ، العامي والشعبي ، وكلاهما في نظره يستقي مادته من الفصحى المصحفة والملحونة والدخيل والكلام الجارى بين الناس الا ان لغة العامي قد ظهر فيها التجريد (او التجديد) بينما يتخذ الشعبي الفاظ اسلوب الجارى التي لا تحتوى على تجريد (او تجديد) كما يفهم من السياق .

ولكن ماذا يقصد الباحث بالادب العامي والادب الشعبي ؟ الادب العامي عنده هو : " الذى دخلت لغته اللحن ويعد عن قالب اللغة الفصيحة والاساليب المولدة او اللهجات " (٢) وهذا يقتضي منا ان نفهم ان الادب الشعبي عكس العامي اي انه هو الذى لم يدخل اللحن لغته ولم يبتعد عن قالب الفصحى و الاساليب المولدة واللهجات . ثم يوضح الباحث الفرق بينهما اكثر بكون الادب الشعبي يعتمد المشافهة اكثر من التدوين ويصدر عن المجتمع ككل بينما يعتمد العامي على التدوين ويصدر عن فرد بذاته (٣) .

وهنا تتضح المغالطة التي وقع فيها الباحث لان المقاييس التي اعتمدها للفرق بينهما لا تثبت امام النقد ، فالمشافهة التي جعلها حكرا على الادب الشعبي ليست ابدا دليلا على شعبية الشعر لان كثيرا من النصوص تنتقل شفويا ولكن لاعلاقة لها بالشعب الا انه يمس الموضوع

(١) احمد صادق الجمال : الادب العامي في مصر في العصر المملوكي ص ٧٣

الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦

(٢-٣) المرجع نفسه ص ٧٢ - ٧٣

حين يتناول ان الادب الشعبي يصدر عن المجتمع ككل . واما النقطة الثانية التي ذكرها اي تدوين العامي ونسبته الى فرد معين فهذا ايضا ليس دليلا كافيا لجعل الشعر غير شعبي فكما ذكرنا من قبل ليس في معرفة مؤلف النص اي ضرر او حرج ولا ينزع هذا التدوين صفة الشعبية عنه ، فقد يكون الاثر الادبي معروف المؤلف مدونا لكنه مع ذلك يبقى في صميم الادب الشعبي ولعل السبب في وقوعه في هذه المغالطة هو اهتمامه بالشكل اكثر منه بالمحتوى ولو انه يناقش كلامه هذا فيما بعد حين يقول : " نرى ان الادب الشعبي والادب العامي كليهما يعبران عن نفسية المجتمع وبمعنى اقرب يعبران عن نفسية الطبقات المحكومة" (١) لقد اكتشف ان الشكل ليس اساسا في التفريق بينهما وليس فاصلا لان كليهما كما قال يعبر عن نفسية الطبقات المحكومة ، وهو بعد ذلك يدرك ان هذا العامي قد نشأ وانبثق من "الوجدان الفطري ليعبر عن حياة القطاع الاجتماعي الكبير" (٢) لكنه لم يستطع التخلص من قضية الشكل التي اوقعته في هذا اللبس .

ان الكاتب لا يفصل بين الادبين في النهاية الابيض الامور الشكلية الثانوية ، لكن المغالطة الكبرى وقع فيها عندما حاول ان يفرق بين الادبين العامي والرسمي وذلك بقوله : " تمييز الادب العامي عن الادب الرسمي بانه لا يتبع عمود الشعر وانه لا يسير على الوزن العربي الموروث" (٣) قبل ان تناقش هذا الرأي يجب الا يغيب عن بالنا ان الباحث كسان يبحث في الشعر اوفي الادب العامي فيعصر عهد المماليك ، وربما وجد ان الشعر الشعبي كان خارجا على التقاليد العروضية الموروثة وان الشعر

(١) احمد صادق الجمال؛ المرجع السابق ص ٧٤

(٢) المرجع نفسه ص ٧٢ - ٧٣

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٥

الرسمي كان فصيحاً موزوناً مقفى . ونعود الى الرأي السابق لنقول ان بحث الادب في عصر معين مهما كان نوعه لا يعطينا حق التعميم بحيث نجعل الادب الشعبي الذي يسميه هو بالادب العامي هو ذلك الادب الذي لا يتبع عمود الشعر ، لانه بكلامه هذا يجعل الشعر الذي يتبع الوزن الخليلي كله رسمياً وهذا ليس صحيحاً ولم يكن في يوم من الايام بهذا الشكل . ان الشعر الموزون في جميع العصور كان بعضه شعبياً وبعضه الاخر رسمياً . انها قضية الشكل هي التي توقعه مرة ثانية في هذا الخطأ .

ونحن نعارضة في تسميته هذا الادب بالعامي لان كلمة عامة ارتبطت لدى الباحثين بمفهوم سلبي عن الجماهير العريضة ، فقد كان القدماء وقد تبعهم بعض المحدثين ، يظنون ان من ينتمي الى العامة هم : " اهل المهن والصنائع والتجار والخدم من الاماء والرقائق والفلاحون والجنود واللصوص ، والعيارون ، والشطار .. " (١) وهذا صحيح طبعاً لكن الصيغة التي كانت تقال بها هذه اللفظة توحي بكثير من الاحتقار والانتقاص . وقد تفنن القدماء فيمثل هذه الامور فجعلوا للعامة مرادفات كثيرة تنحو المنحى نفسه كالدعما ، وخمار الناس والفرثاء من الناس .. وحشو الناس والهباء من الناس الخ (٢) ، وعلى الرغم من ان هذه التسميات ليست صحيحة دائماً الا اننا نفضل عليها تسمية الجماهير والشعب حتى لا تكون لللفظة خلفيات سلبية ناتجة عن موروث العصور القديمة .

وهناك باحث آخر يفضل تسمية الادب الملحون بدل الادب الشعبي ويرى ان الثانية خطأ ، لان الشعر الملحون في نظره اعم لانه يحتوى على

(١) بدرى محمد فهد: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ص ١٣

مط الارشاد بغداد ١٩٦٧.

(٢) المرجع نفسه ص ١٤ - ١٥

الشعر الشعبي وغير الشعبي (١) . ثم يستعير محمد المرزوقي من حسين نصار التعريف الذي يراه مناسباً للادب الشعبي في رسالته : الشعر الشعبي (٢) بقوله : " الادب الشعبي هو الادب المجهول المؤلف العامي اللفة والمتوارث جيلاً عن جيل بالرواية الشفهية " (٣) .

ولاداعي لتكرار النقد نفسه الموجه الومن سبقه من الباحثين الذين ركزوا جميعاً على الجانب الشكلي للشعر الشعبي واهملوا مضمونه ومحتواه ، ثم ان الباحث يجعل الشعر الشعبي وغير الشعبي في زمرة واحدة وكأن لافرق بينهما اذ كيف نعطي نفس القيمة للشعر الصادر عن الوجدان الجماعي وللشعر الصادر عن الذات الفردية؟ وازافة اليهذا ان الباحث يلغي من اهتمامه ذلك الشعر الفصيح الذي فيه اهتمامات جماهيرية . ولذا علينا ان نستنتج ان كل شعر يحتوى على هموم الناس ومشاكلهم وطموحاتهم وماشابه ذلك نسميه شعراً شعبياً . وهذا ما اشار اليه الباحثان حسين مظلوم والمصباحي بعبارة قريبة مما قلنا حين ذكرنا ان " اصول الادب مأخوذة من التفكير العام للشعوب والامم ومن صور مجتمعاتهم واحاديثهم " (٤)

-
- (١) محمد المرزوقي: الادب الشعبي في تونس؛ ص ٥١ الدار التونسية للنشر ١٩٦٧ .
 - (٢) لم استطع الحصول على هذه الرسالة .
 - (٣) المرجع السابق؛ ص ٤٩
 - (٤) حسين مظلوم رياض ومصطفى محمد المصباحي: تاريخ ادب الشعب ص ٧ (مقدمة) مط السعادة ١٩٣٩

وفي الختام نريد ان نوكد ان نقدنا للباحثين السابقين على انهم اهتموا بالشكل اهتماما استثنائيا ، الامر الذي جعلهم يقعون في كثير من المغالطات ، لايعني اننا نريد ان نزل من المحتوى وحده فيطلا لشعبية الشعر . ولايعني اننا نقلل من اهمية الشكل ، لان نظرة تبقى في هذه الحال احادية الجانب ايضا . لذا نرى ان كلا من المحتوى والشكل يلعبان دورا هاما في تحديد اتجاه الشعر ، فالشعر الشعبي في " اسلوبه ومحتواه حصيلة لحياة عريقة عاشها الشعب " (١) .

ان التأشير بين الشكل والمضمون متبادل فحينما يتطور المضمون يتطور الشكل وحين يتطور الشكل يتطور المضمون ويمكن ان نرى ذلك فيما يلي من نماذج في الفصول المقبلة على الرغم من قلتها . لقد تطور انسان العصر العباسي الاول تطورا كبيرا وهذا ما جعله يعكس ذلك التطور فسي انتاجه الفكري والادبي .

(١) احمد رشدي صالح : الادب الشعبي ص ٤٥ دار المعرفة بدون تاريخ .

الفصل الاول
اغراض الاتجاه الشعبي
=====

- ١ - الفقر ومظاهره
- ٢ - العمل
- ٣ - المدح والهجاء
- ٤ - رثاء المتاع
- ٥ - التعامل مع البيئة الشعبية
- ٦ - الفكاكة والتندر
- ٧ - تسلط المال

موضوعات الاتجاه الشعبي واغراضه =====

مدخل:

يمكننا منذ البداية ان نقول ان موضوعات الاتجاه الشعبي هي الموضوعات التي تمس كافة الشعب من قريب او من بعيد بحيث ان شعراءه يتناولون كل ما في حياتهم اذ ان الحياة هي منبعهم الدائم ومعينهم الذي لا ينضب ابدا ، ولهذا تعددت موضوعات هذا الاتجاه وتنوعت ، فكثرت الاغراض التي تطرقوا اليها ، وهذا التنوع هو الذي يعطي شعرهم ذلك النفس الطويل الذي لا ينقطع .

لقد تحدثوا عن الفقر كثيرا والفقر موضوع رئيس في شعرهم ينطلقون منه داعما حتى تصبح له امتدادات وتشعبات لاحصر لها فالجوع والحرمان ، والقناعة ، والسوءال ، والتصعلك ، والعمل ، والمدح ، والهجاء ، والحث على طلب الرزق ، ومهاجمة المتحكمين في اموال الناس ، فهذه الامور كلها ذات علاقة بالفقر الذي كان كابوسا ينفذ حياتهم ولا يفارقهم ابدا .
ولذا سوف نبدأ بموضوع الفقر منطلقا لهذه الاغراض .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

xxxxxxx

١ - الفقر ومظاهره :

=====

ان الفقر لم يكن يخص الشعراء وحدهم بل كان يهيمن على الجماهير الكادحة خلفهم والذين ماهم الا ممثلوها . لقد تحدثنا فيما سبق عن " الطبقات " الاجتماعية ورأينا ان المجتمع كان منقسما عموما الى طبقتين لاثالثة لهما :

الفقراء من جهة والاغنياء من جهة اخرى . وتحدثنا كذلك عن ثروة البلاد الصناعية والزراعية وبيننا انها كانت موزعة توزيعا غير عادل بحيث ان اقلية من الاغنياء هي التي كانت تملك جميع تلك الخيرات وتتصرف فيها كما يحلو لها بينما لم يكن اغلب الناس يجدون ما يمسون به ارقامهم . وكانت " الطبقة " الفقيرة تشعر بهذا الظلم وتحاول ان تثور عليه او تنتقده علوا لقل كلما سنحت لها فرصة ، ولعل اصدق مثال على ذلك ما قاله سعيد بن وهب حين نظر الى قوم من كتاب السلطان في احوال جميلة : (١)

فنحن من نظارة الدنيا

من كان في الدنيا ابا ثروة

كاننا لفظ بلا معنى

نرمقها من كذب حسرة

تذهب في الارذل والادنى

يعلو بها الناس وايماننا

ان هذا الشعر يمثل " الطبقة " الفقيرة احسن تمثيل ويبين ان الشعب في تلك الفترة كان يرنح تحت نير الفقر والحرمان والغوز وبالمقابل يزهو الاغنياء ويرفلون في النعيم والخير .

وللفقراء مجالجوع حكايات يطول سردها ، لكننا سنذكر بعضها

مثالا . فقد كانت العرب تكني الجوع ابا مالك كما كانت تسمى الخبز

(١) الاصفهاني : الاغانى ج ٢٠ ص ٣٠٣ ط دار الثقافة بيروت ١٩٦٠

جابرا وعاصما وعامرا وابن حبة ، فقد قال احد الشعراء في كنيـسة
الجوع : (١)

ابو مالك يعتادني في الظاهر يلم فيلقي رحله عند جابر

وكان احد الاعراب يدعو ربه من كثرة الجوع قائلا : "اللهم ميتة كميتة
ابي خارجة * ولما قيل له : ما ميتة ابي خارجة هذه ؟ اجاب : اكله بدحا
وشرب عسلا ونام في الشمس فمات شعبان ريان دفيئا " (٢) .

وهكذا ينحصر امل الفقير في امور ثلاثة هي : ان يشبع وان يروى وان يدفأ ،
لكن الجوع اصناف والوان ، منه ما يقتل ومنه ما يفقد صواب العقل ويسكر ،
وهذا ما اشار اليه عينا الصمد بن المعذل حين وصف فقيرا جااعا بقوله : (٣)

يتمشى في ثوب عصب من العر ي على عظم ساقه مسدول

دب في رأسه خمار من الجو ع سرى خمرة الرحيق الشمول

فيكى شجوه وحن الى الخبز ونادى بزفرة وعويــــــــــــل

من لقلب متيم برغيفين ونفس تاقبت الى طفشــــــــــــيل

ليس تسمو الى الولايم نفسي جل قدر الاعراس عن تأميلي

ان الفقرا اسكر هذا المسكين فجعله يبكي ويحن الى الخبز الذي ربما
مر عليه زمن طويل دون ان يرى فيه شكله او يشم فيه رائحته ، وليس
في القصة اية مبالغة لان الجوع يفعل اكثر من ذلك ولان وضع الشعب

(١) الثعالبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٢٤٩

x ا ب ن د

(٢) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ، ص ٣٨-٣٩ منشورات دار

عويدات ط اولى بيروت ١٩٦٦

٣ الاسفهانى : الاغاني ج ١٣ ص ٢٣١ (مصورة من دار الكتب)

في تلك الفترة كان أكثر تردياً مما صوره الشاعر ففرص العمل كانت معدومة، وهكذا كان الناس يموتون جوعاً دون أن يشعر بمأساتهم أحد ودون أن تذكر ذلك كتب التاريخ .

والشيء الذي يسد هذا الجوع ويسكت أنيه هو الخبز ولذا نجد أولئك الشعراء قد أكثروا من وصف الخبز وأنواع الطعام التي يتمنون الحصول عليها، فسعادة الفقير في وجود قطعة من الخبز بين يديه كما قال أحد الأعراب : (١)

فهيحة القلب منسي زرعت حب ابن حبه

أما الآخر فقد فضل الخبز على صوت القرآن ، لأن الإنسان حين يكون بطنه فارغاً لا يمكن أن يفكر إلا في الجوع ، فالفقر ظل على مر العصور مدعاة للكفر كما قيل ، ومجلبة له ، فقد قال ذلك الشاعر الجائع : (٢)

خبز يانبيت عليه لحم أحب الي من صوت القران
تبيت تدهور القرآن حولي كأنك عند رأسي عقربان
فلو اطعمتني لحمًا وخبزًا حمدتك والطعام له مكان

بينما يفضل الثاني الخبز على الدين كله بقوله : (٣)

ولست مضمّر نسك كلا ولا بعيف
ولو اسام بديني لبعثه برغيف

إن هذا الشاعر يعاني وهو متأثر جداً بالعقلية السائدة ، وأعني بالضبط

(١) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ص ٨٠

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٦

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٣

فكرة القدرية التي روج لها الامويون من قبل واستغلها العباسيون من بعد حتى تبدو الامور مرتبطة بمشيئة الله وان ما يحدث للناس قدر محتوم لا بد من الرضوخ له ، والشق الثاني من تلك الفكرة هو تشجيع ظاهري النسك والتعفف والتان يتخلى الانسان بموجبهما عن مطالب حياتية كثيرة . ان الشاعر تنبه لهذه القضية دون ان يدرك ابعادها المختلفة ولذا يرفضها جملة وتغميلا ويقول انه مستعد ان يبيع دينه برغيف خبز . ويجيب الالنتعجب من ان للفقر كل هذه القوة التي تدفع بالانسان الى مثل ما قام به هذا الشاعر لان الخاصة من اكبر المصائب التي قد يصاب بها المرء ، فقد قال ابراهيم بن سريانة الشاعر نثرا : " اذا كانت في جيرانك جنازة وليس في بيتك دقيق ، فلا تحضر الجنازة ، فان المصيبة عندك اكبر منها عند القوم ، وبيتك اولى بالمأتم منهم " . (١)

ولذا نجد ان الخبز عند ابي الشمقمق ، شاعر الفقر ، هو اهم

شيء قد يجمعه الانسان في دنياه كما قال : (٢)

ما جمع الناس لدنياهم	انفع في البيت من الخبز
والخبز باللحم اذا نلته	فانت في امن من الترز
والقلز من بعد على اثره	فانما اللذات في القلز
وقد دنا الفطر وصياننا	ليسوا ذوى تمر ولا ارز
وذاك ان الدهر عاداهم	عداوة الشاهين للوز
قلو رأوا خبزا على شاق	لاسرعوا للخبز بالجمز
ولو اطاقوا القفز ما فاتهم	وكيف للجائع بالقفس

(١) الاصفهاني: الاغانى ج ١٢ ص ٩٠ مصورة عن دار الكتب

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٢٧ - ١٢٨

الخميرة في الاساليب الشعرية كابي نواس وذلك في قوله : (١)

ودع صفات القفار	دع عنك رسم الديار
قد اكثروا في العقار	وعد عن ذكر قوم
ودع صفات الزنايير في	وصف رغيفا سريبا
حكته شمن النهار	فليس يحسن الا في
وصفه اشعباري	

ومن احسن شعره قوله في الرغيف كذلك : (٢)

فلمست افهم ماتقول	دع عنك لومي يا عدول
الناس مطلبه جميل	ان الرغيف محبب في

وهنا تجدر الاشارة الى هذه الظاهرة التي تكررت عند مجموعة من الشعراء اشهرهم ابو نواس اى ظاهرة الثورة على النمط المألوف في الاساليب الشعرية لذلك العصر ، والحقيقة ان هذه الظاهرة تتكرر في جميع العصور ان يلجأ بعض الشعراء الى المحاولة من الخروج عن تلك الاطر التقليدية والمنتشرة والتي تتحكم فيهم ، وهي عبارة عن محاولة منهم للبحث عن الطرافة حتى يتميزوا عن سواهم بهذه الطريقة اوتلك . وربما كانت هذه الظاهرة ، ظاهرة نبذ القديم والثورة عليه ، مرتبطة في البداية بالظروف السياسية او بظاهرة الشعبية التي بدأت ملامحها الاولى تطفوا الى السطح في العصر الاموي ويبدو ان هذا الامر اصبح موضوعة يقلدها كل شاعر يريد ان يخرج عن المألوف مع السلم انما لا يمكن ان نجزم القول في هذه القضية الا انها تبقى احتمالا واردا .

(١) ابن الجراح : الورقة ص ١٣٣

(٢) ابن الجراح المصدر نفسه ص ١٣٤

ولنعد الآن الى شاعرنا ابي المخنف ونقارن بينه وبين ابن الرومي

الذي اشتهر بوصف بعض المأكولات ، فهو يصف الخباز بقوله : (١)
ما انس لانس خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك اللحم بالبصر
ما بين روعيتها فيكفه كسرة وبين روعيتها زهراء كالقمر
الامقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

او وصفه الروموس بقوله : (٢)
هام وارغفة وضاء ضخمة
كوجوه اهل الجنة ابتمت لنا

قد اخرجنا من فاحم فوار
مقرونة بوجوه اهل النار

او وصفه الطباهة (x) : (٣)
طباهة كأعراف الديوك
هنم الرمساعدي عليها

تروق العين من شرط الملوك
فلمست لمثل ذلك بالتروك

او وصفه اللوزينج (xx) بقوله : (٤)
لا يخطئني منك لوزينج
لو شاء ان يذهب في صخرة

اذا بدا اعجابا وعجبا
لسهل الطيب له مذهبا

فابن الرومي في جميع اوصافه لهذه المأكولات لا ينطلق من الداخل بل يبدو متفرجا يصف انطباعه لا غير بينما نشعر بمعاناة ابي المخنف عندما يصف الرغبة بالرغم من ان ابن الرومي يتمتع بالقدرة الفنية والموهبة الفذة في الوصف اكثر من الثاني ثم ان انطلق كل واحد منهما مختلف

(١) ابن رشيقي : العمدة ج ٢ ص ٢٢٥

(٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٦١٤

(x) الطباهة : نوع من الحلويات او الطعام

(٣) الراغب الاصبهاني : المصدر نفسه م ١ ج ٢ ص ٦١٣

(xx) اللوزينج : نوع من الحلويات شبه القطائف تؤدم بدهن اللوز (لان العرب)

(٤) الثعالبي : ثمار القلوب : ج ٢ ص ٧

فابن الرومي لم يكن يشعر بالجوع لانه استطاع ان يتكسب بشعره ويكسب به مالا وبذلك يبتعد عن دائرة الفقر التي طالت ابا المنقف الذي ظل يرزح تحت نير العوز والحرمان نولهاذا السبب نجده صادقا في وصفه .

لكن ، هل وصف هو^{٦٤٦} الشعراء^٦ الشعبيون الخبز وتوابعه لانهم حسون بالجوع فقط ؟ هل تغلبت عليهم معدهم حتى اصبح فكرهم مأسورا لديها؟ اننا نخشى ان يقول احد ان هذا شعر معدى صدر عن قوم همهم الاكل وملء البطون ، غير ان الحقيقة تنفي هذا الاتهام الذي قد يوجه اليهم ، فهم بوصفهم الخبز انما يصفون واقعا معيننا عانى منه الشعب بأكمله في تلك الفترة .

ان هذا الوصف البسيط للخبز والاكل نستشف منه الهوة السحيقة التي كانت تفصل بين " طبقتي " الاغنياء والفقراء .

وذلك الوضوح يجعلنا نقول ان السلطة في تلك الفترة - وهي " الطبقة " الغنية - كانت تتعمد تجويع الشعب حتى يظل فكره محصورا في بطنه فلا يطالب بحقوقه الكثيرة .

لكن السلطة بعملها هذا كانت تحفر قبرها بيدها دون ان تشعر لان عواقب التجويع خطيرة ، فالفرد حين يجوع يثور وتكون ثورته عارسة بقدر جوعه .

وكان اولئك الشعراء يتألمون كثيرا لجوع اهلهم اكثر مما يتألمون لجوعهم هم ، فمن الصعب على الانسان ان يري عياله يتضورون جوعا خاصة اذا كان عاجزا عن جلب الاكل لهم ، ولعل ابا فرهمون الساسي و ابا الشمقمق من اكثر الشعراء وصفا لجوع ذويهم واهليهم ، وهذا لايعني انهما الوحيدان بل كان هناك الاف من الفقراء فيمثل حالهما ورتما اسوأ منهما الا انهما كانا يمتلكان الوسيلة التي تجعل تعبيرهما عن تلك الحال يبقى ، فهذا

ابو فرعون الساسي يقول : (١)

وصيبة مثل صغار الذر
جاءهم البرد وهم بشر
تراهم بعد صلاة العصر
واخر ملتصق بظهري
حتى اذا لاح عمود الفجر
عنهم وحلوا بأصول الجدر
فارجم عيالي وتول امرى

سود الوجوه كسواد القدر
بغير قمص وبغير ازر
بعضهم ملتصق بصدرى
اذا بكوا علتهم بالفجر
وجاءني الصبح غدوت اسرى
كأنهم خفافس في جحر
كنيت نفسي كنية في شعري

انا ابو الفقر وام الفقر

اجل انه ابو الفقر وامه ، ابو عيال صغار كالنمل ، وجوههم اسودت
من العذاب والحرام ، لم يجدوا ما يلتحفون به وما يفتون به اجسامهم
النميلة* التي اكلها البرد . ماذا يفعل ابو فرعون وهم ملتصقون
به يطالبونه الخبز؟ لم يجد شيئا سوى ان يعطهم بالفجر، هو متأكد
انه لن يستطيع ان يقدم اليهم شيئا اذا جان الفجر ، وما عليه الا ان
يخرج طلبا للرزق ، مما ولا ان يجد لهم بعض الزاد .

ويصف ابو فرعون اهله واولاده مرة اخرى بقوله : (٢)

سقيا لحي باللوى عهدتهم منذ زمان ثم هذا عهدهم
عهدتهم والعيش فيه غرة ولم يناو الحدشان شعبهم
فليت شعري هل لهم من مطلب او اجدن ذات يوم بدلهم
اليك اشكو صيبة وامهم لا يشبعون وابوهم مثلهم
قد اكلوا اللحم ولم يشبعهم وشربوا الماء فطال شربهم
وامتنقوا المذق فما اغناهم والمضخ ان نالوه فهو عرسهم
وما رأوا فاكهة في سوقها وما رأوها وهي تنحو نحوهم

(١) ابن الجراح: الورقة ص ٥٨ وابن المعتز طبقات الشعراء ص ٣٧٦

(٢) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٣٧٧ - ٣٧٨

كأنهم جناب ارض مجذب
بل لوتراهم لعلمت انهم
كأنهم كانوا وان وليتهم
مجتهدا بالنصح لا الوهم
فلو يعطون اوجى سهمهم
قوم قليل ربهم وشبعهم
طرا موالى وكنت عبدهم
ادعولهم يارب سلم امهم (x)

كان بعيدا عنهم لكنهم كانوا حاضرين في عقله وقلبه فهولم يخـرج
ليمدح هذا السمودح الامن اجلهم . ويتضح التكسب جليا في هذه القصيدة
فهولم يصبح ناسى الممدوح تلك الاطلاق والصفات التقليدية ولم يحاول
ان يمجده بأى شيء بل تصدى مباشرة لموضوعه الرئيسي وهو وصف حاله وحال
اولاده وزوجته وبين انهم لا يشبعون لانهم لم يجدوا ما يأكلون . وهذا
ليس مدحا بمعنى الكلمة بل استجداً من فقير ، استجداً بوصف الحقيقة
عارية دون احساس بالحياء ، بل كان طبيعيا ان يفعل هذا . ومن انسى
يأتيه الحياء وهو لم يضح نفسه في هذه الحال اختيارا لان جملة من
الظروف تضافرت على جعله فقيرا ؟

ولساك ان يسأل: لماذا انجب هو^{٤٦} الاطفال وهو يعلم مسبقا ان
من الصعب تغذيتهم ؟ لتتصور حياة الفقير اليومية في ذلك الوقت .
لم يكن يعمل الا نادرا ليس بسبب كسل منه بل لان فرص العمل كانت نادرة
وهذا ما سببه في اغلب الايام فراغا كبيرا لم يستطع ان يتخلص منه الا
بوساك يخلقها خلقا او يستغل ما هو موجود لديه ، ولنقل بصراحة ان هذا
من الاسباب الهامة في انجاب الاطفال لدى الفقراء . وبالمقابل نلاحظ
ان الاغنياء كانوا ايضا ينجبون الاطفال بكثرة لان الظروف ساعدتهم على

(x) وهي مذكورة في المحاسن والمساوى^{٤٦} للبيهقي ص ٣٠٨ - ٣١١ ونسبها
الاصمعي فيها الى سعيد بن صمصم لما وفد على الحسن بن سهل وهي طويلة
عدد ابياتها (٤٥) بيتا .

امتلاك كل شيء الامر الذي دفعهم الى المبالغة في المتعة • ولكن
شأن بين الفراغين ، فراغ الاغنياء وفراغ الفقراء • ومع ذلك
لم يكن لهم الا انجاب الاطفال وكثرة الشكوى من الفقر والغلاء كما
قال ابو فرعون الساسي : (١)

يا اخوتي يامعشر الموالي انا ابنكم وانتم اخوالي
هذا زيبابي وجرابي خالي والماء عال والدقيق غالي
وقد مللنا كثرة العيال

ونلاحظ هنا ان الفقر كان عاما كما قلنا سابقا بحيث تساوى فيه العرب
والموالي وجميع الشعوب المنضوية تحت راية الخلافة العباسية
باستثناء الاغنياء منهم •

ويشبهه ابا فرعون ابو الشمقمق الذي عانى المشكلة نفسها حيث
احاط به الفقر من كل جانب ، وكثر عنده العيال فكان دائم الترحال
بحثا عن قوت لهم حيث يقول : (٢)

ان العيال تركتهم بالمصر خبزهم العصاره
وشرايهم بول الحمار مزاجه بول الحمارة

وهكذا كان العيال لايتوقفون لحظة عن طلب الخبز فهم باستمرار عبارة
عن افواه مفتوحة كآفواه الطير لاتتعطل عن الضجيج الا اذا ملعت حيا •

(١) ابن الجراح: الورقة ص ٥٨

(٢) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٢٦ - ١٢٧

اما ابن يسير فيمثل قمة المأساة التي يتخبط فيها الفقراء ، فهم الى جانب جهم لاولادهم ، يعز عليهم ان يروههم يتضورون جوعا ، فأبن يسير كذلك كان يحب ابنة اخت له كان رباها حبا كبيرا ، ولكنسه معدم فقير لا يستطيع ان يوفر لها الغذاء ، الامر الذي جعله يتمنى لها الموت من شدة حبه لها لانه لم يتحمل رؤيتها وهي تتالم جوعا في قوله (١) :

لولا البنية لم اجزع من العدم ولم اجب في الليالي حنن الظم الخ ..

انها فعلا لقمة المأساة ان تهوى له الحياة ويهوى لها الموت ممن شدة حبه لها وخوفه عليها .

ويدخل الفقر بالانسان الى البحث عن الطعام بجميع الوسائل الممكنة ، ولهذا نجد الفقير يثق ابواب الناس متسولا طالبا منهم فضلهم ومعروفهم وهو بذلك يريق ماء وجهه وعزة نفسه ، ولهذا اقتنر التسول عندهم بالكرامة والشرف ، فالشعراء الشعبيون ، ومنورائهم جميع الفقراء ، يتحسرون لهذا الوضع لانهم من جهة لا يقبلون ان تهان انفسهم ، ومن جهة ثانية يجدون انفسهم مضطرين لمد ايديهم حتى يضمنوا القوت لذويهم ولانفسهم ، وعن هذا يعبر ابن الرومي بقوله : (٢)

اذا انا نالتني فواضل مفضل	فأهلا بها ما لم تكن بهوان
فاما اذا كان الهوان قرينها	فبعدا لها ما ينقضي لاوان
ومن ذا الذي يلتذ شهدا بعلقم	ابت لهواتي ذاك والشتان
اريد مكانا من كريم يصونني	والا فلي رزق بكل مكان

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢٨٢

(٢) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء ، م ا ج ٢ ص ٥٤١

ومع ذلك فلا بد من حدوث ما يكرهون اى لابد لهم ان يتسولوا فليس
هناك حيلة اخرى والا فسوف يلحقهم وذويهم تلف عظيم . لكن بعضهم
فضل الموت على ان يمد يده كما قال احدهم : (١)

والموت خير للكريم من الضراعة للرجال

هذا لانه خبر اولئك الاغنياء والاسياد الذين ارادوا ان يدخلوا التاريخ
على اكتاف هو لا شعراء الفقراء ، ارادوا ان يخلدوا بقصائد مدح
مقابل دريهمات تعطى ، وما ان تعطى حتى تذهب بسبب تفشي الحاجات
وغلاؤها . قلنا ان هذا البعض رفض مد اليد وقرر ان يموت كريما لانه
جرب مد اليد فلم ينل منه شيئا ، كما قال احدهم : (٢)

سجدنا للقرود رجا دنيا حوتها دوننا ايدى القرود
فما بلت انا ملنا بشيء علمناه سوى ذل السجود

لكن ابا الينبفي الذى مات في السجن بسبب شعره يقول وهو مدرك كل هذه
الملايسات : (٣)

الا يامالك الناس وخير الناس للناس
اتنهاني عن الناس فاغنتني عن الناس الخ

فهيساطة هذه الكلمات النابغة من قلب معذب مقهور يبين ابو الينبفي

(١) البيهقي : المحاسن والمساوى ص ٢٧٦

(٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٥٩٦

(٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣١

ان الانسان الفقير مضطر لسؤال الناس واستجداهم مادام في حاجة ملحة اليهم .

فيرد عليه ابو العتاهية بنبرة مجرب محنك: (١)

اتدرى اى ذل في السؤال وفيذل الوجوه الى الرجال؟

وصحيح ان هو لا شعراء قد يحصلون على بعض ما يطلبون لكن الفرق شاسع بين الذى حدلوه وبين الذى فقدوه لان ما حصلوا عليه قد يفيدهم الى حين لكن مناسه سرعان ما تنفى ويبقى عاره مخلدا كما قال احد الاعراب: (٢)

ان المسائل للرجال مذلة تنفى منافعها ويخلد عارها

بل ان الموت يتعدى منافع المسائل الى السائلين فالسائل في رأى بعضهم يحسب ميتا متى ما سأل كما قال احدهم: (٣)

لاتحسبن الموت موت البلى فانما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا افزع من ذاك لذل السؤال

لكن هذا لايعني ابدا ان الفقير معاب حين يمد يده ، فظروفه هي شفيعه .
وان يسأل خير له من ان يلجا الى طرق اخرى كالقتل والنهب والسرقه . المهم ان يبقى في فقره شريفا وتبقى نفسه مكرمة كما قال ابن هرمة: (٤)

-
- (١) ابن عبدالبر القرطبي: بهجة المجالس ق ١ ص ١٥٥
 - (٢) ابن عبدالبر القرطبي: المصدر نفسه ق ١ ص ١٧٤
 - (٣) الجاحظ: الحيوان ج ٣ ص ١٣١
 - (٤) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢١ والنويرى: نهاية الارب ١٠٨/٣
وابن عبدالبر: بهجة المجالس ق ٢ ص ٦٤ وابو الفداء: البداية والنهاية
١٢٥/١ مكتبة المعارف بيروت ومكتبة النصر الرياض ط اولى ١٩٦٦

عجبت ائيلة ان رأيتني مخلقا شكلك امك - اى ذاك يروع؟
قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق وجيب قميمه مرقوع

وحين لم يكن ينفخ السوال ولا يجدى الطلب كان الفقير يلجأ الى
الاماني والاحلام ليحقق فيها ما لم يستطع تحقيقه في الواقع . وكانت هذه
الاماني والاحلام تسعده لحظات من الدهر على الرغم من انه كان يعلم انها
اضغاث احلام ليس غير كما قال احدهم (١) :

منى ان تكن حقا تكن احسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

الا ان احلام الفقير هذه ليست كاحلام الموسر ، فالفقير يحلم بقطعة
خبز يأكلها او بلباس يقيه شر البرد او براحلة تطوى له الارض وتدني
البعيد وما شابه ذلك من الاشياء الضرورية لحياته بينما يحلم الغني
بالامور الكمالية والملذات والترفيه ، فهذا ابو الشمقم الفقير
يعدد طلباته التي يبتناها من الحياة : (٢)

منى من دنياى هاتي التي تسلح بالرزق على غيرى
الجردق الحاضر مع بضعة من ما عز رخص ومن طير الخ ...

ان هذه الاحلام هي انعكاس لرغبات كل فقير ، فهولم يطلب من دنياه
اشياء مستحيلة بلطلب منها ما تستقيم به الحياة فقط بطريقة موحية
جدا ، فقد رأى هذه الدنيا توزع الرزق على غيره وهو منه خال .

وللفقراء احلام اخرى كثيرة منها ما تمناه فقير اخر رأى نفسه

(١) الجاحظ : الحيوان ج ٥ ص ١٩١

(٢) الجاحظ : القول في البغال ص ١٢٨

غنيا يامر وينهي بقوله : (١)

اثراني اقول يوما من الدهر لبعض التجار افسدت مالي
اوتراني اقول من اين جاءت
لدوابي هذا الشعر جمالي
اثراني اقول يا قهرماني
سل غلامي موقفا عن بغالي
اوتراني امر فوق رواق
لي عال فيمجلس لي عالي
اسرجوا لي ، فيسرجون دوابي
فاقول : انزعوا السروج بدالي
هديانا كما ترى وفضولا
دآم النوك من عظيم المحال

وهذا الشاعر كما نرى يستفيق من حلمه في النهاية ويرى انه هذيان
لا طائل من وراءه .

ويذهب احد الاعراب الى تمار بالكوفة فيعرض عليه حلما رآه البارحة

فيقول : (٢)

رأيتك في النوم اطعمتني
فقلت لصبياننا ابشروا
قواصر تأتكم بكرة
فقل لي : نعم انها حلوة
قواصر من تمرك البارحة
بروءيا رأيت لكم صالحه
والافتأتكم راحة
ودع عنك لا ، انها مالحة

وواضح ان حلم هذا الفقير يدور حول الاكل وتوفيره لصبيانته ، وهذا
حقه الطبيعي . وحال كهذه تجعله احيانا يتمنى ان يصبح غنيا لانهم

(١) الجاحظ : القول في البغال ص ٤١

(٢) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ص ٤١

من شدة فقره يظن ان بالفتى تنتهي الامه وعذاباته في الحياة ، ولهذا
نراه أحيانا يقارن بينه وبين الغني الذي يختلف سلوكه عنه ، فكلاهما
اثر فيه وضعه الطبقي ، وهكذا نجد العماني يقارن بقوله : (١)

لايسنوى منعم بنندار ^(x)	له قيان وله حمار
مقصص قممه البيطار	يطيف في السوق به التجار
وعربي يرده اطمار	يظل في الطرق له عشار
قد تسلت من رجليه الاظفار	ياوى الى حمن له اوار
احدب قد مال به الجرار	لادهم فيه ولادينار
ياكل هزلى الغار فيه الغار	من بلدة عال بها الثبار
ليس على كهل به وفار	مثل الشياطين اذا ستاروا
لهم دنان ولهم جرار	وقاشفارات قفار ^(xx)

والفرق ، من هذه القصيدة ، واضح بين ذلك المنعم وبين الفقير ، فالاول
يملك كل شيء ، القيان والحمير التي نظم شكلها البيطار والثاني
يلبس الاطمار ، ويمشي حافيا حتى تنصل منه الاظفار . وكان الفقير مع
ذلك يدرك ان وضعه هذا ليس طبيعيا ، اى ان فقره لآبد وان يكون له سبب
فمنهم من ارجعه الى القدر ، وهذه هي النظرة الشائعة ، ومنهم من ارجعه
الى الوضع الاجتماعي ككل . فقد انشد احد الاعراب لما عدلته زوجته

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١١٢ - ١١٣

(x) بنندار : هو الذى يخزن البضائع للفلاح (المصدر نفسه)

(xx) فاشفارات : نوع من الطعام (المصدر نفسه)

وحثته على طلب الرزق قائلًا : (١)

باتت تميرني الاقتار والعدما
عنف لرأيك ، ما الارزاق من جلد
يا امة الله اني لم ادع طلبا
وكذلك بالاجمال في طلب
لوكان من جلد ذا المال او ادب
ارضى من العيش ما لم تحوجي معه
واستشعري الصبر على الله خالقنا
لاتحوجيني الرمال لو بذلت له
بالله سرى ان الله خولني
وانني لم احز عقلا ولا ادبا
ففسرة المرء احوى في معاشك من

لما رأيت لآخيها المال والحشما
ولامن العجز بل مقسومة قسما
للرزق قد تعلمين الشرق والشأما
لم ارد عرضا ولم اسفك لذاك دما
لكننت اكثر من نمل القرى نعمما
ان تفتحي لسوء ال الاغنيا فما
يوما سيكشف عنا الفقر والعدما
نفسى لاعتقبك التهمام والندما
ما كان خوله الاعراب والعجمما
ولم ارث والدى مجدا ولا كرما
امر يحز عليك الهم والالما

واما ابو الينبي في فقد اطلق المثل التالي لما رأى حال الفقراء وحال
الاغنيا بقوله : (٢)

صبرا على الذل والصفار
كم من حمار على حموا

ياخالق الليل والنهار
ومن جواد بلا حمار

وعندما تكون الحال كهذه فان الغصبي في واد والفقير في واد آخر ، يفكر
ذلك في ملذاته ويفكر هذا فيها سكات انين الجوع كما قال دعبل وهو يذم غنيا

(١) الشريف المرتضى: امالي المرتضى ج ١ ص ٤٩٨

(٢) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٣

بخيلا اسمه ابو عمران : (١)

يحن الى جاراته بنت شبعه وجاراته غرشي تحن الى الخبز

وفوق هذا كله نجد حتى الحظ ينفر من هو^١ لاء الفقراء ويتخلى عنهم
وكأن بينه وبينهم عداوة ، فهم اينما ذهبوا يشعرون ان نحسا ما يطاردهم
وان لعنة ساتخى بهم . وهم حين يتحدثون عن سوء حظهم انما يصفون الظلم
الاجتماعي الذي كانوا يعانونه في ذلك العصر ، فكونهم فقراء جعلهم ممن
المغضوب عليهم في الارض ، فهذا ابو الشقمق يتحدث بمرارة عن سوء حظه
فيقول : (٢)

لو ركبت البحار صارت فجاجا لانرى فيمتونها امواجيا
ولواني وضعتيا قوته حمصرا في راختي لصارت زجاجيا
ولو انجوردت عذبا فرائنا عاد لاشك فيه ملحا اجاجا

فهذه الابيات بغض النظر عن مبالغتها ، تعكس واقعا مرا عانى منه القوم
فهم اينما نظروا لا يجدون الا عدما وفقرا ، ويصف غيره وهو عمر وبين الهدير
سوء حظه باسهاب فيقول (٣) :

وقفت فلا ادري الى اين اذهب واي اموري بالعزيمة اركب
عجبت لاقدار علي تتابعت بنحس فافنى طول عمري التعجب
ولما طلبت الرزق فانا نجد حبله ولم يصف لي من بحر العذب مشرب
خطبت الى الاعدام احدي بناته لدفع الغنى اياي اذ جئت اخطب

(١) المبرد: الكامل في اللفظة والادب ج ٢ ص ١١٨-١١٩ مكتبة المعارف
بدون تاريخ .

(٢) ابن عدي: العقد الفريد ج ٦ ص ٢١٦

(٣) ابن عدي: المصدر نفسه ج ٦ ص ٢١٦ - ٢١٧

وفيه من الحرمان تخت ومشجب
على الأرض غيرى والد حين ينسب
علي جناحه لملاح كوكب
لاقبل ضوء الشمس من حيث تغرب
لرحت الى رحلي وفي الكف عقرب
شيء سوى الحمباء رأسي يحصب
من الدر اضى وهو ودع مثقب
فان برأسي ذلك الذنب يعصب
وان ار شرا فهو مني مقرب
فقابلني الاغراب وارنب
ومنه وراشي جحفل حين اركب

فزوجنيها ثم جاء جهازها
فأولتها الحرفه النقي فماله
فلوتت في البيداء والليل مسبل
ولوحت شرا فاستترت بظلمة
ولو بان انسان علي بدرهم
واومطر الناس الثانير لم يكن
ولو لست كغداى عفا منظمنا
وان يقرب ذنبا ببرقة مذنب
وان ار خيرا فيالمنام فنازح
وان اغد في امر اريد نجاحه
امامي من الحرمان جيش عرمرم

فعلى الرغم من المبالغات نفسها التي نجدها عند ابي الشمقوق فان
هذه القصيدة خير دليل على ذلك الوضع التعس الذي فرضته ظروف عديده
على العصر العباسي الاول حيث كان الفقراء لايجدون سبيلا يحصلون منه
على ما يريدون من الحياة من خبز وراحة بال .

ومن مظاهر الفقر الاخرى التي تعرض لها الشعراء الشعبيون ذلك الوصف
الذي كانوا يصفون به الوسائل التي كانوا يسافرون بها . وهم في الحقيقة
لايسافروا اغلبهم الا راجلين لانهم لايملكون اية راحلة ، وللراجلية
في ذلك الوقت اهمية كبرى لانها الوسيلة الوحيدة تقريبا التي كان
يتنقل بها الانسان برا ، ولها في حياة الفقراء قيمة عظمى لانهم بواسطتها
ايضا يسعون من اجل كسب القوت لاولادهم وذويهم فهذا ابو الشمقوق

يقول متخسرا : (١)

امشي ويركب غيري

الحمد لله شكرا

فصرت ارضي بعير

قد كنت آمل طرفا

وهو يقول هذا لما ائتمته الحيلة ولم يحمل على ما يريد بل حتى هذا
العير الذي رضي به لم ينله ولم يجد في النهاية الارجليه مطية حين يقول: (٢)

لي فيه مطية غير رجلي

انراني من الدر يوما

قربوا للرحيل تريت نعلي

كلما كنت نهميخ فقالوا

من رأني فقد رأني ورجلي

حيثما كنت لا خلف رجلا

وهذا وصف دقيق وصريح لوضعه فهو لم يجد لأفرا سا ولا حمارا بل كان عليه
ان يعود رجليه المشي الطويل حتى يصل الى ما يريد اي حتى يصل الى ذلك
الممدوح الذي يامل ان ينال شيئا من كرمه .

وقد تناول بعض الشعراء الشعبيين وسيلة النقل هذه - اي الرجل -
باسلوب قد يبدو ساخرا للوهلة الاولى لكنه صادق كل الصدق تبدو فيسه
تفاؤلا اولئك الفقراء الذين جعلتهم المأساة يسخرون من وضعهم واوابن
يسير الشاعر من هو ٤٦٦ فهو يصف رجليه قائلًا : (٣)

حاجي واقضي عليه حق اخواني

ان كنت لا عير لي يوما ييلفني

مناهل ودي وخلصاني وجيرانني

وضن اهل النوازي حين اسألهم

رجلا اخي ثقة مذكان جولاني

فان رجلي عني - لاعدمتهما -

وتدنياني مما ليس بالداني

تبلفاني حاجاتي وان بعدت

اعصار عاصفة مما تشيران

كأن خلقي - اذا ما جد جدهما -

قطا وقدا وادماجا مداكان

رجلاي لم تألما نكبا كأنهما

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ٦ ص ١٤٧

(٢) ابن عبدربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٦

(٣) الاصفهاني : الاغانى ج ١٤ ص ٣٢-٣٣ (مصورة عن دار الكتب)

كأن ما بهما اخطوا اذا أرتبها
ان تبعثا في دهاس تبعثا رهما
فالحمد لله ياعمرؤ الذي بهما
عن العواري وعن ذا الناس اغناني
في سكة من اى ذاك سماكان x
اوفي حزون ذكامنبا شهابان

ومع هذا الفقر نان الشاعر ابن يسير لم يفقد شرفه لانه يفضل ان يمشي
راجلاً حافياً علوان يذل للناس *

اما الحمدوني الشاعر فيصرخ فيوجه الله احتجاجا على هذه اللامساواة
قائلاً: (١)

تسامى الرجال على خيلهم
فان كنت حاملنا رينا
ورجلي من دونهم حافيه
والأفأرجل بنتي الزانية

تلك صرخة انسان يعس من عدل الناس فتوجه الى الله طالبا منه المساواة
في استغاشة شعبية رائعة تنتضج فيها احساس الشاعر حين قالها *

ونظرا لاهمية استعمال الارجل في تنقلاتهم ورحلاتهم فقد حظيت النعال
ببعض اهتمامهم لفاعتتها الكبيرة كوسيلة يستعين بها المسافر ، فهذا
ابن يسير يصفها باسهاب فيقول: (٢)

كم ارى من مستعجب من تعالي
كل جرداء قد تحيفها الخصف باقطارها سرد النقصال xx
ورضائي منها بلبس البوالي
لاتداني وليس تشبه في الخلقة ان ابهرت نعال الموالبي
لا ولا عن تقادم العهد منها
بليت لا ولا لكير الليالي

x هذا البيت مكسور في الشطر الثاني *

(١) البيهقي: المحاسن والساوي^٦ ص ٢٧٨

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٤٤١ تحقيق فوزى عطوى دارصعب

بيروت ١٩٦٨م

xx النقال: النصال العريضة والقصيرة من نصال السهام (لسان العرب)

ولقد قلت حين اوترت ذا الود عليها بثروتني ويمسالي
من يغالي من الرجال ينعل فسواشي اذا بهن يغالسي
اوبغاهن للرجال فأنسي في سواهن زينتي وجمالي
في اخائي وفي وفاشي ورأيي وعفافي ومنطقي وفعالي
ماوقاني الحفا وبلغني الحفا جة منها فاني لست ابالي

وكما نلاحظ فان هذا الشاعر لم يكن يبحث عن نعال ليتزين بها اويفاخر
بل لتقيه الحفا وتبلغه الحاجة ، ومثل هذه الموضوعات ليس تافهسا
ابدا كما قد يتبادر الى بعض الاذهان لان هذه الاشياء على بساطتها تبين
لنا وضعا معينا فان يحياه امثال هذا الشاعر وهي شاهد صريح على
البرس الذي كانوا يعانون منه .

ومن بين الموضوعات التي تعرضوا لها والتي هي مظهر من مظاهر
فقرهم ، وصفهم لبيوتهم التي كانت بالاجار اشيء ، فعوض ان يشعروا بالسكينة
فيها ويأنسوا اليها ، فاننا نجدهم يحسون بوطأة الفقر اكثر حين يعودون
اليها . هذا الفقر الذي سد عليهم جميع المسالك وكأنه اخطبوط التسف
سول اعناقهم فلايدرون من اين النجاة . والدلائل التي سوف نوردنا فيما
بعد ستبين انها لم تكن بيوتا بمعنى الكلمة بل كانت اكواخا قصديرية
لا تتوفر فيها حتى ابسط الشروط الصحية ، لان هذه الامور كان الفقير
يعتبرها كماليات لايفكر فيها ابدا فهمه الاكبران يجد مكانا ياوى اليه
والاقمنزله الفضا^١ وسقف بيته السما^٢ كما قال شاعر الفقراء^٣ ابو الشمقمق^(١)

برزت من المنازل والقباب فلم يعسر على احد حجابي
فمنزلي الفضا^٤ وسقف بيتي سما^٥ الله او قطع السحاب

(١) ابن عبدريه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٦ - ٣٧

فانت اذا اردت دخلت بيتي
لايني لم اجد مصراع بباب
ولانشق الشرى عن عود تحت
علي مسلما من غير باب
يكون من السحاب الى التراب
او مل ان اشد به ثيابي

انها صورة رائعة لاشد الا على مدى فقر هذا الانسان . انها تأوه ممن
الدهر وظلمد ومن الوضع الذي هم فيه جميعا .

و حين كان الخط يسعف هو^٤ لا^٥ الفقراء^٦ ويحملون على بيت فان هذا
البيت لشيء فيه لانه جدران ترد عليهم الرياح وتقيهم المطر لاغير .
ولنستمع الى ابي الشمقمق يصف بيته الذي من هذا النوع حين يقول: (١)

ولقد قلت حين اجرتني البرد كما تجر الكلاب ثعالبه
في بيت من الغضارة قفر
ليس فيه الا النوى والنخاله
عظته الجردان من قلة الخير وطار الذباب نحو زباله (x)
هاريات منه الى خصب
حين لم يرتجبن منه بلاله
واقام السنور فيه بشر
يسأل الله ذا العلى والجلاله
ان يرى فارة فلم ير شيئا
ناكسا راسه لطول الملاله
قلت لما رايتنه ناكس الرأس يمشي على شر حاله
ويك صبرا ، فانت رأس السنائير وعلته يحسن مقاله
قال لاصبر لي وكيف مقامي
في قفار كمثل بيد تباله

هذا بيت الفقراء ليس فيه الا النوى والنخالة اي لشيء فيه سوى الفضلات ،
تركته الجردان لان ما وجدته فيه كان يابسا لا يصلح لمعدتها وتركه الذباب
ليستبدله بمكان احسن منه الخ

(١) الجاحظ : الحيوان ج ٥ ص ٢٦٦

(x) زبالة : موقع بالكوفة (المصدر نفسه)

ولمّا كان الانسان يخشى ان ينظر اليه نظرة شفقة فان ابا فرعون الساسي ذلك الاعرابي اسألك ، يصف بيته الموحش الخالي من كل مقومات الحياة بحيث لا يجد السارق فيه شيئا اذا سولت له نفسه الولوج فيه بل سوف يسرق السارق على العكس من ذلك ، ففي هذا البيت يقول ابو فرعون الساسي (1) :

ليس اغلاقي لبابي ان لسي	فيه ما اخشى عليه السرقا
انما اغلقته كي لا يسرى	سوء حالي من يجوب الطرقا
منزل اوطنه لا تنفر فلو	دخل السارق فيه سرقا
لاترائي كاذبا في وصفه	لو تراه ، قلت لي : قد صدقا

انها مأساة الفقير ، يريد ان يخفي فقره وعسره ، ولكن انى له ذلك
والفقير يحيط به من كل جانب ؟

عندما يعود الفقير الى بيته ويسكن قلبه قليلا بعد الهيجان الذي سببه له فراغ ذلك البيت من كل مقومات الحياة ، يستلقي بكل همومه على ظهره ويتأمل حاله وحال امثاله فيحاول ان يعرف لماذا خلقوا هكذا فقراء لا يملكون من الدنيا الا انهم من نظارتها ، فيتبادر الى ذهنه فكرة طالما سمعها تتردد على افواه القوم وهي ان عذاب هذه الحياة امتحان امتحن الله به عباده ، وهم وان تعذبوا على وجه هذه البسيطة فانهم سوف يجدون الراحة والطمأنينة في الحياة الاخرى . ونحن نقول ان الله لا يرضى ابدا ان يعذب الناس الا برىاء . بمثل هذا العذاب لان هذا العذاب قد يدفعهم قسرا الى الكفر بكل الديانات وكل القيم .

لقد كانت العقلية السائدة ترجع كل شيء الى القدر ويعبارة اخرى الى مشيئة الله وذلك ناتج عن الاوضاع السياسية التي خلقتها تلك المرحلة اضافة الى اوضاع اجتماعية واقتصادية وعوامل اخرى معينة . كل ذلك كان

يريد من الناس ان يرضوا بما هم عليه حتى يبقى المستغل مستغلا ويبقى
المستغل مستغلا وحتى لا يثور اولئك الفقراء على اسيادهم . لقد انطلت
الحيلة على بعضهم ولو الى حين لكن البعض الاخر تنبه لما في تلك الفكرة
من امور سلبية فحاربها بشتى الوسائل : حاربها الشيعة والخسواج
بالسيف وحاربها المعتزلة بالعقل والكلام . لكن الحيلة انطلت على
البعض كما قلنا فراحوا يتهمون علو الدينويثورون علوتك الاوضاع العينية
التي فهموا منها ان الله كتب عليهم ذلك الشقاء مثل ذلك الشاعر الذي
لامته زوجته عن ترك الصلاة فرد عليها قائلا : (١)

فقلت اغريسي عن ناظري انت طالق	تدوم على ترك الصلاة طيلتي
واين خيولي والحق والمناطق؟	لماذا املني؟ اين باعي ومنزلي
عليه يميني؟ انني لمنافق	اصلي ولا فتر من الارض يحتوى
يصلي له الشيخ الجليل وفائق	فوالله لاصليت لله مفلسا
مخارق ليست تحتين مخارق	فان صلاة السيء الحال كلها

شورته بادية للعيان فهو يقول لزوجته لماذا املني لله ولم يعطني
شيئا ؟ لم يعطني خيلا ولا حليا ولا مناطق ولا املك حتى فترا من التراب
فهو يرى انه اذا صلى على هذه الحال فانما هو يوافق ربه ، بل الذي
يجب ان يصلي هو الذي انعم الله عليه بالخيرات .

لقد كفر بعضهم، ولكنهم معذورون فالفقر مدعاة للكفر وباب له، فهذا

ابن سكرة الهاشمي يقول : (٢)

لبعته برغييف

ولو اسام بديني

(١) بهيج شعبان، اثر المعدة في الادب العربي ص ١٢١

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٣

وكما تلاحظ فقد بلغ الحرمان بهذا الانسان العذرة يبيع فيها دينه
كله برغيف •

وقد يفهم البعض ان هذا استخفاف بالدين لكننا لو تخيلنا تلك الظروف
الصعبة التي كانوا ضحاياها لعذرناهم ولفهمنا مادعا بهم الى سلوك هذا
المسلك لانهم لم يبق لهم في تلك الاوضاع الا الله يستنجدون به وحين لاتحل
مشاكلهم يشورون عليه لانهم لم يكونوا يدركون ان السبب لا يكمن الا في
حياتهم وبعدها •

وهذا رجل احر يفضل جهنم ويستلذها ويستطيب المقام فيها لما عاناه
من شدة البرد لانه كان عاريا لم يجد ما يتدثر به او يقي به جسمه السدى
انهكه الجوع حين يقول : (١)

ايارب ان البرد اصبح كالجا وانت بحالي يا الهي اعلم
فان كنت يوما في جهنم مدخلي ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

ويسأل هذا الفقير لماذا لا يصلي وهو شيخ كبير فيقول : (٢)
أيطمع ربي ان اصلي عاريا وكسو غيري كسوة البرد والحر

وفي هذا الكلام احتجاج كبير على الوضع لان اولي الامر غرسوا على مر العصور
في خلد اولئك الناس ان ما يحدث لهم انما هو قضاء وقدر، ولهذا نجدهم
يهاجمون هذا القضاء والقدر •

لكن بعضهم الاخر لم يجروء على الاحتجاج بصوت عال بل اقتنع بما

يقال وينصبيه من الحياة الشيء الذي يجعله يلجأ الى ايها نفسه بان في
القناعة كل الخير وان الصبر مفتاح الفرج .

والقناعة ظاهرة اجتماعية ارتبطت بطقوس دينية نجهد اساسها الاول
لكنها ذات مضمون اقتصادي بحيث جعل العرب منها هبة حميدة حتى يوهموا
انفسهم بان الصبر على القليل يظفي علما خلق الانسان لباسا جميلا وانسه
يروض نفسه بذلك على التحكم في شهواتها. تطبيقا للاية الكريمة : " ان
الله مع الصابرين" (x) وفي هذا يقول ابو العتاهية : (1)

حتى متى يستفزني الطمع اليس لي بالكفاف متسع
ما افضل الصبر والقناعة للناس لو انهم قنعوا

ان في القناعة جانبين : جانباً ايجابياً واخر سلبياً . فالجانب
السلبى يجعل الانسان يخضع للطبيعة بجميع اصنافها ولظروفها القاسية
التي حرمته من العيش الهنيء وجعلت منه انسانا مغلوبا على امره . وهي
من هذه الناحية دعوة بوجوازية اراد بها الاغنياء ان يبقى الفقراء
على الهام بعدما غلبوها بصيغة دينية حتى يتقبلها الناس ، ولنستمع الى
احد الفقراء وهو يقول : (2)

اذا كان لي قوت بيومي وصحة فلا حال ارجو بعدها ان اتالها

فهو فعلا قنوع . لكن الانلاحظ ان هذه القناعة تعدت امور الاكل الى مجالات
اخرى ، فهو يقول صراحة انه اذا وجد قوته وصحته فلن يبحث عن غير ذلك
وهذا يعني ان قوى الظلم في مجتمعه قد امنت جانبه لانها خدرته بفكرة
القناعة بحيث يقبل فيها النهاية ان تتحكم فيه تلك القوى وفي مصيره ومصير
اولاده وطبقته كلها .

(1) ابو العتاهية : الديوان ص 230

(2) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ص 41

(x) سورة البقرة آية (156)

اما الجانب الايجابي في القناعة فهو كونها تحرر الانسان من مطامعه
التي لاتنتهي ابدا وتجعله سيد الموقف كما يقول ابو العتاهية : (1)

اطعت مطامحي فاستعبدتني
ولو اني قنعت لكنت حرا

والشيء الثاني في ايجابية القناعة انها تجعل للانسان املا يطمح الى
تحقيقه وتبعده عن التشاؤم من واقعه ومستقبله لارتباطها بالصبر ، ولولا
هذا الامل لامحت حياته جحيما لايطاق كما قال احد الشعراء (2) :

يبيت يراعي النجم من جوع يظنه
ويصبح يلقي فاحكا متبسما

هذا عن مظاهر الفقر التي حاولنا ان نعطي نماذج عنها لاننا لم نستطع
حصرها كلها لامتدادها الى مجالات واسعة ، فالذي سيأتي سيكون وثيق الصلة
بالفقر كالعمل والمدح والهجاء وما شابه ذلك لان الفقر كان بالنسبة للشعراء
الشعبيين هو النواة التي تتشعب منها الاغراض .

.....

(1) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس 1 ص 109

(2) بهيج شعبان : الثرالمعدة في الادب العربي ص 41

٢- العمل

=====

ايقن الشعراء^١ الشعبيون، وخلفهم جميع الفقراء^٢ ان مخلصهم الوحيد من الفقر هو العمل الشريف والكد والكدح حتى يحصلوا علو لقامة عيش شريفة دون ان يفسحوا للمهانة بابا يدخل منه الوحياتهم " فالانسان لا يكون انسانا ما لم تكن له صنعة مفيدة تكفي معاشه باقتصاد ، لانقصه فتذله ولانزيد عليه فظغفه" (١) كما قال عبدالرحمن الكواكبي .

وهذه الفكرة المرجزة والدقيقة تبين ان الانسان يفقد انسانيته اذا ما تخلى عن العمل لانه وجد على ظهر البسيطة ليعمل حتى يعطي لحياته معنى شريفا على ان لا يكون هذا العمل الذي يتعاطاه عملا شنيعا يفقده كرامته وينقصه شرفه وعلى الا يتحول العمستغل كبير يستغل غيره مزني البشر .

لكن شعراء العصر العباسي الاول والناس عموما في ذلك العصر لم يكونوا يعطون للعمل الاهمية التي نعطيها اياه اليوم لانهم لم يكن يتوفر لديهم الوضوح الفكري الكافي نظرا للظروف التاريخية التي كانوا يمرون بها ، الا ان الملاحظة العامة حول موقفهم من العمل انهم تنبهوا الى فاعلته فراحوا يشجعون الناس على العمل ويحضونهم على القيام به ، فمن ذلك قول احدهم : (٢)

انما الفوز والغنى في تقى الله والعمل

وهو يجعل العمل بمرتبة الايمان بالله فهما عنده سواسية ، ففيهما معا يكون الفوز والنجاح وفي هذا حث عظيم على العمل لانهم يحاربون بذلك ظاهرة الاتكال والتواني ويؤكدون على ان الانسان يجب الا يتخاذل ابدا او يتراجع وعليه ان يحاول مرارا حتى ولو اخفق لان النجاح لن يكون ابدا

(١) محمد عمارة : نظرة جديدة الى التراث ص ١٩٠ المؤسسة العربية

للدراستات والنشر ط ٢ بيروت ١٩٧٩

(٢) ابو الفداء : البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٤٢

وليد الكسل ومثال ذلك قول اشجع السلمي (١) :
ان تكن ابطأت الحاجة عني والسـراح
فعلي الجهد فيها وعلى الله النـجـاح

وهم بمثل هذا يحاربون الفكرة التي تروج ان الله هو الذي يمنح الرزق لمن يريد حتى وان كان هذا المرء خاملًا متكاسلًا متكلاً بل يقولون ان الله يمنح الرزق لكن على الانسان ان يبذل الجهد ليحصل عليه . ولهذا نجدهم يركزون ان العمل ممتع دوماً بالتعب وان طلوة ذلك الرزق المحصل عليه يعرق الجبين هي السعادة وهي النجاح الاكبر الذي يجعل الحياة تصفو ويجعل الوجود جميلاً .

وفي ارتباط العمل بالتعب يقول ابو العتاهية : (٢)

ما رأيت العيش يصفو لاحد دون كد وعناء ونكد

وهذا صحيح اذ لا يستطيع الفقير ان يولد من القوت لذويه دون ان يتعصب وان يعاني في الحياة ولذا كان لزاماً عليه ان يلتمس الرزق اينما كان كما قال احدهم : (٣)

فسر في بلاد الله والتمس الفنى تعش ذاك يسار او تموت فتعذرا
ولاترض من عيش بدون ولاتنم وكيف ينام الليل من كان معسرا

وهذا يعني ان ليس عيباً ان يموت الانسان وهو يجوب البلاد بحثاً عن عمل بل بالعكس سيكون موته في هذه الحال شرفاً عظيماً ، فمادام في الانسان قوة فما عليه الا ان يجدد الكرة تلوا الكرة حتى يحصل علوماً يريد، وفي

(١) الصولي : الاوراق : ص ٩٥

(٢) ابو العتاهية : الديوان ص ١٠٨

(٣) البيهقي : المحاسن والمساوي ص ٢٨٥

هذا يقول احد الاعراب : (١)

علام سوا ال الناس والرزق واسع وانت صحيح لم تخنك الاصابع

وكانوا يدركون الظروف تلعب دورها في الحصول على الرزق لكن هذه الظروف

لن تجدى بدون العمل والتعب فمن ذلك قول ابي تمام (٢) .

ومدقت ان الرزق يطلب اهله ولكن بسيرة متعب مكدود

ومهما كانت تلك الاعمال التي قد يحظى بها الفقير صعبة او متعبة فانه

يتقبلها مادام يجد فيها وطره ومادام ملزما باعالة اولاده فامسـن

ذلك قول احدهم (٣) :

ومن يك مثلي ذاعبال ومقترا من المال يطرح نفسه بكل مطرح

ليبلغ عذرا او ينال غنيمة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

ومن الامثال التي تقولها العرب في هذا الباب (٤) : " كلب جوال خيسر

من اسد رابض " او " من غلى دماغه صاها غلت قدره شاتيا " .

ويقول ابو نواس : (٥)

ولن يدرك الحاجات من حيث يبتغي من الناس الا المصحون على رجل

ثم نجدهم يربطون العمل بالشرف ويرون ان التسول اعظم مصيبة من البقاء

على الجوع ولهذا لنيكون الخلاص الا بالعمل لعل الانسان يرجع بعده بالسعد

كما قال احدهم : (٦)

(١) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ق ١ ص ١٦١

(٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٤٩١

(٣) البيهقي : المصدر السابق ص ٢٨٦

(٤) البيهقي : المصدر نفسه ص ٢٨٥

(٥) ابن عبد البر القرطبي : المصدر السابق ق ١ ص ٣٢٦

(٦) البيهقي : المصدر نفسه ص ٢٧٦

اعظم من فاقة وجوع
فانترده ولا ترد ما
وأطلب معاشا بقدر قوت
لغلا نهرا غدا بنحس
مقام حر على خضوع
انيل بالذل والخشوع
وانت فيمنزل رفيع
يعود بالسعد في الرجوع

والملاحظ في جميع هذه الآيات التويتنا ولتفكرة العمل انها كانت تركيز
على امر هام وهو الحث على العمل وعدم الخضوع للكسل لانه مجلبة للفقر كما
يقول ابو العتاهية : (1)

والفقر ذل عليه باب مفتاحه العجز والتواني

وهم بذلك يرغبون الناس في العمل ويبدون لهم فوائده كما يبدون لهم بالمقابل
لبليات العجز والتواني • يبدون لهم ان العمل معناه الكرامة ومعناه
الا يذل المرء نفسه لغيره بالتسول والاستجداء مادام يملك القوة العضلية
التي يستطيع بها ان يضمن لنفسه ولذويه العيش الكريم •

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال : هل كان العمل متوفرا ؟ وبعبارة
اخرى هل كانت فرص العمل متاحة للجميع ؟ الجواب بالنفي لان الامبراطورية
نفسها لم تكن تحتاج في تسيير امورها الا الى عدد قليل بالمقارنة
مع عدد السكان • لم تكن الدولة تهتم بالرعية حتى تلزم نفسها بايجاد
فرص العمل للجميع كما هي الحال في عصرنا فالدولة كانت مع ذلك تملك
جميع الخيرات لكنها ترفض ان يتصرف فيها غير اتباعها • ولنقارن بين
فرص العمل في ذلك الوقت وبينها اليوم ولنأخذ الكتاب مثالا • كان الكتاب
في القديم قليل الانتشار ومن اراد كتابا يستنسخه من احد الوراقين مقابل

(1) ابو العتاهية : الديوان ص 385

درهومات محدودات بينما نجد ان صناعة الكتاب اليوم فيقطر واحسد او في مدينة واحدة فقط تشغل الاف العمال . فقبل ان يمل الكتاب الى القارئ في عصرنا يتعاون على اخراجه الى الوجود الاف العمال ، فلا يسد في البداية من ورق وهذا الورق بدوره يحتاج العمادة خام ثم لايسد من جبر وهذا الجبر بدوره يحتاج العمادة خام ولا بد من طباعة وعمال طباعة وموزعين وناشرين ومكتبات وكل هذه الامور تشغل الالاف من الايدي العاملة .

وهذا مثال واحد فقط ويمكن ان نقيس عليه جميع الصناعات الانجری . ان سياسة الدول الان هي ان يشتغل كل القادرين على العمل ومتى ما حقق هذا الشرط تعتبر الدولة في مصاف الدول المتقدمة اجتماعيا .

ان تطور البشرية لعب دورا في هذه الحال بحيث ساعدت الاكتشافات العلمية على ايجاد فرض للعمل لاحصر لها ، اما في القديم فالامر على عكس ذلك تماما بحيث كانت العلوم متخلفة ولم تستطع ان تخلق فرما للعمل بفضل المرتبة التي وصلت اليها زيادة على الظروف الاقتصادية والسياسية والفكرية التي كانت تمر بها الدولة في ذلك العصر .

وكان الانسان منهم اذا ولد فقيرا يبقى فقيرا مدى الحياة ومن ولد غنيا يبقى غنيا هو الاخر مدى الحياة . اما الشوان فلا يقاس عليهم ابدا . ومن هنا ترى انهم كانوا يحلمون بالغننى ويعتقدون في الكثیر من الخرافات ، لان الغنى هو المخلص الوحيد بالنسبة اليهم من فقرهم ، فحتى العمل لن يغيثهم ابدا لانه متى اصبح اجدهم غنيا استغنى عن غيره وابتعد لنها عينا عن ان يذل نفسه . ولم يكن هذا تطلعا بورجوازيا كما نفهمه اليوم بل كان امرا مشروعا ومصيريا بالنسبة اليهم لانه لم تكو انذاك

طبقة وسطى يمكن ان تكون مخفية لوطأة الفقر عليها بل هناك الاغنياء من جهة والفقراء من جهة ثانية • يملك هو^١ لا^٢ كل شيء ولا يملك اولئك شيئا •

اما الاعمال التي كان يمكن لاحدهم ان يقوم بها اذا كان محظوظا فهي كثيرة نوعا ما لكنها لا تكفي لانها لم تكن تشغل العديد من الناس ، فقد كان يكفي ان يكون فيا المدينة نجار واحد ليغطي جميع طلبات اهمل تلك المدينة • لقد استغلوا جميع الحرف الممكنة وجميع الوسائط للحصول على المال وعلى القوت وكان اسعدهم طبعا هو صاحب الحرفة التي كانت غالبا ما تنتقل عبر الاجيال في الاسرة الواحدة •

اما الوسائط الاخرى التي استفادوا منها والتي لم تكن حرفة بالمفهوم العام فهي ايضا كثيرة ، فقد كانوا يكدون ويتسولون ويبيعون لونهو يستغلون كل موهبة قد تكون لديهم كالغنى والالعاب البهلوانية والسحر وما شابه ذلك • وقد تعفف بعضهم وزهد من هذه الدنيا فكسب رضى الناس وعطفهم وقد تظاهر بعضهم الاخر بالحمق والجتون • لقد كانوا مستعدين ان يتعاملوا مع الشيطان ليحصلوا على ما يسكت انين الجوع لديهم •

ويرما كان في بعض الاعمال التي يقومون بها هدر لكرامتهم وانتقام لعزة انفسهم ، لكن ما العمل وهم لا يجدون وسيلة تضمن لهم البقاء ؟

ويمكن ان نذكر هنا امثلة عن الحمق والتعفف ، فاما الحمق فأكثر من تحدث عنه واستغله وجعله بمثابة صنعة فهو ابو العجل بعد ان آيقن ان العقل لن يجديه فتيلا ، وهو في ذلك ينطلق من فلسفة له خاصة بالحياة فيقول مثلا : (1)

(1) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٤١

اكفف ملامك محسنا	او مجملا متطولا
اعلى حماقة لمتني	قد كنت مثلك اولا
فدخلت مصر وارنبتك	والشام والموصلا
وقرى الجزيرة لم ادع	فيها لحي منزلا
الا حلت فناءه	بالعقل كي اتمولا
فانلر الي امانسرى	حال حماقة اجملا؟
من ذا عليه مؤنبي	حتى اعود فأعقلا

لقد لامه بعض الناس على وسيلته المبتكرة وعابوا عليه ان يتظاهر بالحمق فكان رده انه جرب بالعقل ليحصل علومال فيها رجاا الامبراطورية فلم يفلح بشيء فدفعته الحاجة الى ابتكار هذه الوسيلة فساغه الحظ فأصبح فسي حال اجمل، ولتستمتع اليه يقل مرة اخرى لعاذليه : (١)

عذلوني على حماقة جهلا وهي من عقلهم الذ واحلى
لولقوا ما لقييت من حرفة العقل لسا روا الى حماقة رسلا
اذعن الناس لي جميعا وقالوا يا ابا العجل مرحبين وسهلا
فيها - لاعدتمتها - صرت فيهم سيدا اتقى ورأسا ورجلا

ان كل انسان يتخذ موقفا من الحياة وهذا هو موقف ابي العجل الذى يضحك من الذين لاموه على التحامق لانهم لم يعرفوا الحرمان الذى يكابسى منه بسبب العقل . لقد كان الفقير مغضوبا عليه في جميع العصور . كان مظلوما وفوق الظلم كانت حقوقه تهدر دوما فقد قيل ان الرجل اذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنا واساء به الظن من كان يظن به حسنا ، وان اذنب غيره ظنوه به ، وان كان لسوء الظن والتهمة موضعا حملوا على

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٤١

ذلك الذي يفعله غيره . " (١) فقد كان الفضيل يقول : " المال يسيد غير السيد ويقوى غير الايد " . (٢) وكذلك لان المال كان المحامي بالنسبة للغني بينما كان الفقرا اداة للفقير .

ويبدو ان ابا العجل ادرك ان عصره ليس عصر عقل وعلم بل عصر مال وغنى ، فهو يقارن بين حاله زمن العقل وبينها زمن الحمق فيرى انه كان من قبل فقيرا يشغل كثيرا دون غاثة وكان انسانا تافها لا احد يحسب حسابه فاصبح بفضل حمقه سيدا يتقى ، وكان فقير الحال معدميا فأصبح يملك البغال والغلمان لانه استطاع ان يلحق بنفسه تهمة الحمق ، وهي تهمة تعفي صاحبها من اية تبعة من الافعال التي قد تصدر عنه قياسا على المثل " ليس على المجنون حرج " ، وفوق هذا الحاجز الواقعي فانها مكنته من ان يصح غنيا وذلك في قوله : (٣)

ايا عاذلي في الحمق دعني من العذل	فاني رخي البال من كثرة الشغل
واصبحت لا ادري واني لشاهد	افي سفر اصبحت ام انا في الاهل
فمرني بما احببت آت خلافة	فان جعنتني بالجد جعنتك بالهزل
وان قلت لي : لم كان ذاك ؟ فجوابه	لاني قد استكثرت من قلة العقل
فأصبحت في الحمق اميرا مؤمرا	وما احد في الناس يمكنه عزلي
وصير لي حمقي بغالا وغلماة	وكنت زمان العقل ممتطيا رجلي

(١) البيهقي : المحاسن والمساوي ص ٢٧٦

(٢) البيهقي : المصدر نفسه ص ٢٧٦

(٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٤٠ - ٣٤١

وهناك من يناقشه وان كان في الحقيقة وجها اخر للظاهرة نفسها ،
فهذا ابو العتاهية يرى ان في التعفف كل شيء حين يقول : (١)
طلبت الغنى في كل وجه فلم اجد سبيل الغنى الا سبيل التعفف
وبعد فهذه نماذج لاغير وليست هي كل ما قيل بل هناك كثير ممن
الامور تطرقوا اليها ويمكن ان ندرجها تحت خانة العمل .

.....

٣ - المدح والهجاء

=====

المدح والهجاء متقابلان ومتناقضان ، يكمن اتحادهما في تناقضهما .
هما متقابلان لانك اذا مدحت شيئا ما فانت تهجو بالضرورة ما يناقضه
واذا هجوت امرا ما فانت ايضا تمدح عكسه . وهما متناقضان لان احدهما
سلبى وثانيهما ايجابى . وهذه السلبية او الايجابية ليست فيهما
بحد ذاتهما كخضين من اغراض الشعر العربي بل في ما يتناولانه من
موضوعات ، فالكرم مثلا ليس ابدا من جنس البخل وانما هو ضده او نقيضه
واما اتحادهما فيكمن في الفائدة التي يقدمها كل منهما اذ كلاهما ذو قيمة
تعليمية تربوية بحيث تكون المدحة بمثابة وصف للاخلاق والصفات المحيطة
في مجتمع معين ويكون الهجاء وصفا للنواقص الموجودة في هذا المجتمع
والتي يجب ان يتحرر منها الافراد . فالمدح مثلا يشجع على الكرم والشجاعة
والمروءة وما شابهها ويرفع قيمتها فينظر الناس بينما نجد الهجاء يحط
من قيمة بعض الظواهر السلبية كالبخل والجبن .

وهكذا نلمس التقابل الموجود بينهما بحيث يؤدي كلاهما الى
النتيجة نفسها وهي تنقية المجتمع من الشوائب وجعله مجتمعا يتطلى
بصفات حميدة حسنة وقرسها في عقول الناس وفي نفوسهم حتى تصبح عادة
عندهم .

لكن هذا لايعني ان مفعوليهما يتوقف عند هذا الحد ، كلاهما المدحة
مثلا تتخذ سبيلا للمطالبة ببعض الحقوق والشكوى من الاوضاع العامة .
فقد كانت المدحة احيانا " تحمل مطالب الشعب " (١) لان الشعر كان

(١) شوقي ضيف : الشعر وطوابعه الشعبية علومر العصور ص ٣٣

في ذلك الوقت هو وسيلتهم الاعلامية المفضلة يستغلها كل طرف للترويج
لافكاره . وقد استغلها الشعب للمطالبة بتحسين اوضاعه المادية فمن
ذلك مدحة ابي العتاهية التي رفعها الى الرشيد والتي جاء فيها : (١)

م ناصحا متواليه	من مبلع عني الامنا
راسعار الرعية غاليه	اني ارى الاسعا
وارى الضورة فاشيه	وارى المكاسين ذرة
عثة تمر وغاديه	وارى غموم الدهر را
مل في البيوت الخاليه	وارى اليتامى والارا
يسمو اليك وراجيه	من بين راج لم يزل
يشكون مجهدة بأصوات ضعاف عاليه	يرجون رفدك كي يروا
مما لقوه العافيه	من يرتجى للناس غيرك ؟ للعيون الباكيه ؟
تمسي وتصبح طاويه	من مصيبات جنوع
ب ملحة هي ماهيه ؟	من يرتجى لدفاع كر
ت وللجسوم العاربه	من للبطون الجاععا
ت ولاعدمت العافيه	يا بن الخلاق لاقد
ت لها فروع زاكيه	ان الامول الطيبا
القيت اخبارا اليك من الرعية شافيه	

ان ابا العتاهية قد قدم لنا في هذه المدحة صورة رائعة عن
الاضاع الاقتصادية في عصره ويكل وضوح . انها صورة متنوعة فمنها
ان الاسعار اصبحت غالية لاقدرة للرعية على تجاوزها اضافة الى ان فرض

العمل والكسب كانت محدودة هذا مع تزايد الطلب . ولعل هذه الاوضاع تكون اكثر وطأة على اليتامى والارامل الذين بحث اصواتهم من المطالبة بحقهم في العيش . انها صورة كالحمة لذلك العصر وهي امانة له ايضا .

وزيادة على هذا كانت المدحة وسيلة اعلام في ذلك العصر تسجل احداثه وكل ما يجرى فيه من حروب وفتوحات وغزوات وثورات وفي هذا يقول شوقي ضيف : " لم يكن الشعب يفرح بشيء فرحته بانتصار الدولة وقوادها والخلفاء وغير الخلفاء على اعدائها من الترك في اواسط آسيا والبروم في اسيا الصغرى ، وكان ما يزال ينتظر الهشارات بالنصر ، وحلت المدائح حينئذ محل وسائل الاعلام الحديثة " (١)

ونعطي الان بعض الامثلة على الموضوعات التي تناولوها في المدح اولاً ثم في الهجاء ثانياً ، فقد ركزوا بصفة خاصة على الكرم والكرماء ، دللوا لظروف المعيشة الصعبة التي كانوا يعانون منها . وانه لامر طبيعي ان يمدحوا الكرم بحيث يكون مدحهم شكراً لا ولاء الكرماء الذين استطاعوا ان يقدموا لهم بعض المال او بعض الطعام لان الشعراء لهم يستطيعوا ابدان ان يسلخوا عن واقعهم وان يشعروا المجاعة التي تهددهم بالهلاك ، ولذا اصبح للكرم في نظرهم معنى سام ، وهم في مدحهم اياه انما كانوا يذمون الفقر ويصفونه بطريق غير مباشرة وهم كذلك يشيرون الى الحالة الاقتصادية لان العوز هو الذي دفعهم الى المدح ، فهذا مثلاً مروان بن ابي حفصة يمدح الفضل بن يحيى بقوله : (٢)

(١) شوقي ضيف : الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ص ٦٤

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٤٥٨

الم تر ان الجود من لدن ادم
اذا ما ابو العباس راقى سماؤه
اذا ام طفل راعها جوع طفلها
تحدث حتى صار في راحة الفضل
فيالك من هطل ويالك من ويل
دعته باسم الفضل فاستعصم الطفل (x)

فالشر الاول من البيت الاخير يدل دلالة واضحة على ان الشاعر ربط
بينكرم الفضل بن يحيى وبين الفقر والجوع . ويقول كذلك كلثوم بن عمرو
العتابي : (١)

ان الكريم ليخفي منك عسرته
وللبخيل على ماله عسل
اذا تكرمت على بذل القليل ولم
بث النوال لا يمنعك قلتسه
حتى تراه غنيا وهو مجهود
زرق العيون عليها اوجه سود
تقدر على سعة لم يظهر الجود
فكل ما سد فقرا فهو محمود

فالشر الاخير واضح تماما فهو يذكر الفقر صراحة ويرى ان كل ما يعالج
فقرا فهو محمود والحمد هو المدح . وحسبنا هذه النماذج من المديح لان
غيرها لا يخرج على ما ذكرنا آنفا .

اما الهجاء فابرز ما فيه في هذا العصر هو الوصف الكاربتوري الذي
تجده لدى كل الهجائيين حتى يمعنوا في السخرية وحتى يشوهوا صورة المهجو
امام الناس . وهذه الطريقة يوفدون واجبهم الذي هو تلقيح المجتمع
ضد تلك العيوب والنواقص لان كل من يسمع تلك القمائد والمقطوعات الهجائية
يجد نفسه مدفوعا لتجنب ما ذكر فيها من صفات قبيحة وسيئة حتى لا يقع
هو الاخر في السن الشعراء فيصبح اضحوكه بين الناس . وفي هذا يقول

(١) في البيت الاخير اقوا .

(٢) القالي : امالي القالي ج ٢ ص ١٣٧ طبعة مصورة عن بولاق ١٣٢٤ هـ

شوقي ضيف : " لم يكن الهجاء اقل تمثيلا لحياة الشعب من المديح اذ هو في حقيقته تسوير لمثالب المجتمع وما بأفراده من خصال ذميمة وما بحكامه وحكمهم من انحراف عن الجادة ٠٠٠٠ وان يعدلوا بهم الى النهج القويم في السلوك والسياسة. والحكم ٠٠٠ " (٢)

وفيما يلي نذكر بعض نماذج الهجاء لنرى الوصف الكاريكاتورى فيها فهذا درست المعلم يهجو رجلا لجوجا بقوله : (٢)

لنا صاحب مولح بالخلاف كثير الخطأ وقليل المواب
الج لجاجا من الخنفساء وازهى اذا ما مشى من غراب

فتخيل انسانا جمع بين لجاج الخنفساء وزهو الغراب ، اليس ذلك امرا مضحكا ؟ ويقول درست مرة اخرى فيجيران له : (٣)

لي جيران ثقال كلهم وخفيف فيهم مثل الرصاص
قلت لما قيل لي قد غضبوا غضب الخيل على اللجم الدلاص (x)

فهذا الهجاء الذى اراد به صاحبه السخرية من جيرانه لجأ فيه الى المفارقات المعنوية واللفظية ، فقد جعل اخف جيرانه مثل الرصاص .

واما منصور الاصهاني فيقول فيعلي بن المهلب : (٤)

عجبت لجسمك ما اصغره ومما تلقم ما اكبره
اراك تطفل طول الحياة ويأمن خبزك ان تكسره

(١) شوقي ضيف: الشعر وطوابعه الشعبية ص ٦٧

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٦٧

(٣) ابن المعتز : المصدر نفسه ص ٣٣٥

(x) الدلاص : الملساء النينة البراقة (المصدر نفسه)

(٤) ابن المعتز : المصدر نفسه ص ٣٥٢

وتلغي لعودك مستبطننا
فليتك وربتني بعضه
اذا ما بدا لك فوق حماره
تحرم في بيتك المشروبات
فطورا تجرجرها نخبة
وتدبر على زيره الحنجره
وكثر ربي بك المقببره
فقنبرة فوقها قنبره
وفي بيت غيرك ما اكثره
وطورا تجرجرها تذكره

انها حقا صورة ملونة لهذا الرجل ، متعددة التناقضات السلبية التي استغلها الشاعر في فضحه ، فقد كان هذا المهلب يتطفل باستمرار على خبز غيره وايمكه خبزه لبخله ، وهكذا يحرم الضراب في بيته لانه يسا بك منعا وشحا لانه يتناوله بكثرة في بيت غيره . ويقول منصور هذا في رجل اخر اسمه المغيرة : (١)

وجه المغيرة كله انف
رجل كوجه البغل طلعته
من حيث ما تأتته تبصره
حصن له من كل ناحية
جفت المدائح عن خلافته
موف عليه كأنه سقف
ما ينقضي من قبحه الوصف
من اجذاك امامه خلف
وعلى تنبيهه بعده وقف
ولقد يلية بوجهه القذف

هذه صورة اخرى رائعة تمثل الكمال في القبح ، يمكن ان يستغلها رسامو الكاريكاتور ، فالمغيرة هذا كبير الانف بحيث اختفت معالم وجهه وراءه انفه وهذا ما جعل لوجهه طلعة بخله ، وفوق هذا المنظر فان جسمه مشوه بحيث لا يستطيع الناظر اليه ان يفرق بين امامه وخلفه .

ويقول كذلك في عقبة بن مالك : (٢)

(١) ابن المعتز : المصدر السابق ص ٣٤٨ - ٣٤٩

(٢) ابن المعتز : المصدر نفسه ص ٣٥٣

يا خطبة ضيعها مالك
يا آل بكر قبلوا قاسما
اضيع منها المنبر الهالك
صار علو شرطته مالك
عضادة المنبر في كفه
..... اسود حالك

وهذا ليس هجاءً فحسب بل هو رأى خاص في تنولية هذا الرجل لشرطة قاسم ،
فهذا الرجل لا يصلح في نظر الشاعر لا للخطبة في المساجد ولا للشرطة .
ويقول مرة اخرى مستعملا الاسلوب السابق نفسه : (١)

له وجه خنزير وخيشوم بغلة
شكا فسوه جن البلاد وانساها
وصدرة ملاح وتقطيع حائك
وقد خفت ان يوذى خيار الملائك
الورسهم من فسوه المتدارك
وقالوا: العذاب الضعفاهون عندنا
وكلهم مستصرخ نحو مالك

وكما هو ظاهر فان الشاعر يلجأ في تشبيهاته الى الحيوان فيأخذ منه
المناظر القبيحة ويلصقها بالمهجو حتى يكون وقعها اكثر عنفاً ، وسوف
نرى هذه الاستعارة ايضا لانيه الذكازن خطيب البلد بقوله : (٢)

اقول غداة العيد والناس شهد
لعمري لئن اضحى رفيعا فانه
ومن عجب الدنيا صعودك متبرا
وما كنت اخشى مثلها اليوم نكبة
ومنبرنا العالي البناء رفيع
بمن يرتقي اعواده لوضيع
اتبلغ هذا المرتقى واضيع ؟
وحولك الف سامع ومطيح
اذل لها والمسلمون جميع

وواضح ان الشاعر لا ينس وضعه الاجتماعي في هجائه هذا ، فهذا الوضع
هو دافع الاول علو الهجاء لاننا نلاحظ انه يهجو اتباع الدولة فقط ، ولا

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٥٣

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٩ - ٣٥٠

يعبر للاخوة وزنا ، وليس هذا جدا منه للقرابة ولكنه يعبر بصق عمما
يحبس ويعاني من هذا المجتمع ، فهذا اخوه هو الخطيب ولكن صفة الاخوة
تنتفي وتبقى المصالح المتضاربة .
ولنر الان شاعرا شعبيا اخر ، وهو ابو الشمقمق ، في معاملته مع الهجاء ،
فهو يقول في احدهم : (١)

الطريق الطريق جاءكم الاحق رأس الانتان والقدرة
وابن عم الحمار في صورة الفيل وخال الجاموس والبقرة
يمشي رويدا يريد حلقتمكم كمشي خنزيرة الى عذرة

فهو كصاحبه يشوه صورة المهجو حتى تغدو رسما كاريكاتوريا مستعينا
كذلك بالتشبيه بالحيوان ليجسد في بعض ملامحه عيوب المهجو . وها هو
يقول فوشخص آخر : (٢)
اسمج الناس جميعا كلهم كذباب ساقط في مرقسه

والسبب في لجوئهم الى الحيوانات المختلفة هو انهم يصرون عن واقعهم
في جميع اشعارهم ، فهم يأخذون مما حولهم لانهم يعيشون ذلك الواقع
الذي يتحرك ويمشي ويتجسد في جميع مشاكله ومخلوقاته ، فيلتقطون هذه
اللمحات والصور ليصوغوها شعرا طريفا . والحقيقة ان الشاعر ، مهما
كان عصره ، لن يستطيع ابدا ان يفلت من واقعه حتى لو رغب في ذلك
لان الصور والاشياء والاشكار التي يذكرها في شعره سوف تكون حتما موجودة
كلها في الحياة . وهذه الامور قد تبدو لغير الشاعر وكأنها تحيا

(١) الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ٣٣٩

(٢) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٣٨٥

علوها مش الحياة بينما يجعلها الشاعر تنبض بالحياة ، وسبارة اخرى
يبث فيها الروح والحياة ، فهذا عبد الصمد بن المعذل يقول في احد اصحابه ،
واسمه ابو قلابه : (١)

يارب ان كان ابو قلابه يشتم فيخلوته الصحابه
فابعث اليه عقرا دبابة تلسعه في طرف السبابه

وربما لعبت القافية دورا هنا في استعمال الشاعر للعقرب ، لكنه استطاع
ان يجعل الصورة عادية مألوفة بلسعه في طرف السبابة ، وهي امور تحدث
باستمرار ، فقد اوجد الشاعر صلة بين اسم المهجو وبين العقرب . ولنسر
له صورة اخرى يهجو فيها سعيد بن سلم والي البريد : (٢)

دهتك بعلة الحمام فوز وهال بها الرسول الوعيد
ارى اخبار دارك عنك تخفى فكيف وليت اخبار البريد ؟

والمفارقة واضحة جدا في هذه الصورة فسعيد بن سلم الذي ولي البريد
يجعل اخبار داره واخبار جواربه وفي هذا تناقض كبير لان البريد في ذلك
الوقت معناه الشرطة السريية التي تنقل الى الخليفة جميع اخبار العمال
والولاة والرعية في الاقاليم التابعة للدولة ، فان انسانا تخفى عنه
اخبار بيته لا يصلح ابدا ان يتولى اخبار الدولة .

اما دعبل الخزاعي الذي رأينا هجاءه السياسي من قبل فلا يخرج
على هذا القبيل حين يقول في احمد بن خالد حين ولي الوزارة : (٣)

(١) زهير غازي زاهد شعر عبد الصمد بن المعذل ص ٢٧ مط النعمان النجف

العراق ١٩٧٠ م

(٢) المرجع نفسه ص ٨٥

(٣) دعبل : الديوان ص ٩٦ جمع عبد الكريم الاشر ، مط المجمع العباسي

العربي بدمشق .

كأن ابا خالد امرأة
يضيق باولاده بطنه
فقد ملاء الارض من سلحه

اذا بات متخما قاعدا
..... واحدا واحدا
خنافس لاتشبه الوالدا

فقد اتبع الاسلوب نفسه في تشويه صورة المهجو و اظهاره بمظهر مضحك .
وليس وصفه هذا الرجل بانه مرآة بامر غريب ان المرآة في ذلك العصر
كان كثير من الناس ينظرون اليها علوانها مواطن من الدرجة الثانية
وربما كان للظروف الاقتصادية دور كبير في ذلك فالمرآة عنصر مستهلك
ولم تكن تنتج شيئا .

واما عبدالله بن محمد بن ابي عيينة فيتطرق الى ظاهرة الطمع
في المجتمع ويهجو رجلا تزوج امرأة لمالها بقوله : (١)

رأيت اثائها فطمعت فيه
فصير امرها يبدى ابيها
والا فالسلام عليك مني

وكم نصبت لغيرك بالاثاث
وسرح من جالك بالثلاث
سأبدأ من غدك بالمراشي

ويبدو ان هذه المرأة كان كل من يتزوجها يلقي نجه ، والشاعر في هذه
الابيات يحارب ظاهرة الطمع التي تتخذ اشكالا عديدة والتي هي من نواقص
المجتمع ، ولكنه في الوقت نفسه يتطرق الى بعض المعتقدات الشعبية والتي
يؤمن بها هو كالنحس والعين وما شابه ذلك وهي في الحقيقة مصادفات
غريبة قد تحدث لبعض الناس فيتشاءم منهم غيرهم . والملاحظ ان هذه الظواهر
ما زالت منتشرة في الاوساط الشعبية حتى في عصرنا هذا وسببها الجهل .

(١) ابن قتيبة : الشعروالشعراء ص ٥٥٩ ، مط ليدن ط اولى ١٩٠٢ م

ويواصل ابن ابي عيينة مهمته الاملاحية في المجتمع فيشير الى ظاهرة اخرى هي التطفل الذي هو نتيجة من نتائج سوء الاحوال المعيشية في ذلك العصر اى ان الفقر قد دفع ببعض الناس الى هذه الوسيلة للحصول على الطعام، ويقول في احد المتطفلين : (١)

كم اكلت لو قد دعيت بها الى الكفر كفرتسا
ودعاك عامك عسقلانا الى وليمته فطرتنا
فانتمت سبتنا عنده واقمت بعد السبت سبتنا
ثم انصرفت ببطنة وسرقت ابريقا وطستنا
انت امروء لومت ثم وجدت الخبز عشتنا

ويعود هو الاخر الى اوصاف الحيوان يستنجد بها في هجاء الناس فيصف
رجلا اسمه خالد بقوله : (٢)

خالد لولا ابوه كان والكلب سوا
لوكما ينقص يزر داد اذا نال السماء

لقد اعتمد الشاعر على هذه المفارقة والمقابلة الجميلتين ليجعل معناه انفذ الى السامع او القارئ لان تدني خالد هذا كان كبيرا فلو كان الامر عكس ذلك وصار خالد يزداد لنال السماء علوتك الوتيرة .

ان الاسلوب الشعبي واضح في هذه المقطوعات فهو يتميز بتلك العبارات العادية والخاصة بالشعب والتي لا يمكن ان نجد لها عند من يسمون بالخاصة . لا يمكن حصر هذه العبارات او تعدادها فهي كثيرة متنوعة حسب انواع بيئات الشعراء فمن ذلك القصيدة جميلة لحظة البرمكي يتهم فيها على شخص ما وهي خير دليل على ما قلنا على الرغم من ان لحظة البرمكي متأخر قليلا عن

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٥٥٨ - ٥٥٩
(٢) ابن عبد البر القرطبي : تهجد المجالس ق ١ ص ٥٢٧

عمرنا لكنه ليس منفصلا عنه بل هو امتداد له ، فهو يقول : (١)
يا لفظة النعي بموت الخليل يا وفتة التوديع بين الحمول
يا شربة اليارج ، يا اجرة المنزل ، يا وجه العسـذول
يا طلعة النعش ، يا منـزلا اقفر من بعد الانيس الحلول
يا نهضة المحبوب عن غيبة يا نعمة قد آذنت بالرحيل
ويا اجتابا جاء من مختلف للوعد مملو^{١٦} بعذر طويل
يا بكرة التلكى الى حفرة مستودع فيها عزيز الشكول
يا وثبة الحافظ مستعجلا لمرخية القيان عند الاصيل
ويا طبيا قد اتى باكرا على اخي سقم بما^{١٧} الهقول
يا شوكة فيقدم رخصسة ليس الى اخراجها من سبيل
يا عشرة المجذوم في رجليه ويا صعود السعر عند المعيل
يا ردة الحاجب عن قسوة ونكسة من بعد برء العليل

ان كل ما جاء^{١٨} في هذه القصيدة ينطبق على العصر العباسي الاول ويمكن
ان نستخلص منها امورا كثيرة جاءت عرضا لوصف هذا الرجل لكنها في
الحقيقة من صميم هموم ذلك العصر ، منها اجرة البيت التي ذكرها
الشاعر والتي تعني ان بعض القوم كانوا يملكون بيوتا يؤجرونها ويتابعون
اهلها الفقراء مطالبين بتسديد هذه الاجرة كما هي الحال في عصرنا
هذا بالضبط ومنها دور القيان والمواخير التي انتشرت خاصة في
الحواضر الكبيرة كبغداد والبصرة ومنها تلك الاشارة الى الاطباء^{١٩}
ولعل هذا من حسنات ذلك العصر حيث وجد بعض الاطباء يذهبون الى المرض
حيثما كانوا زيادة على الاشارة تذكر اهمية النبات الذي كان اهم

(١) الحصرى القيرواني : جمع الجواهر في الملح والنوادر ص ٢٢٤

الادوية فبذلك العصر ، فقد تعمق العرب في تلك الصناعة حتى وصلوا الى درجة كبيرة من التقدم ومنها وجود بعض الامراض الخبيثة كالجدام وغيره وكذلك ارتفاع الاسعار من حين الراجح الخ . . .

وفيما يلي نلاحظ الامور التالية علو مقطوعات الهجاء وقصائده السابقة التي ذكرناها ، وهي :

١ - تطور الهجاء : لقد تطور الهجاء في العصر العباسي الاول تطورا ملحوظا في مضمونه وشكله ، ففي مضمونه لم يعد يهتم بتلك القضايا التي اهتم بها في العصر الجاهلي مثلا كالهجاء باحتقار النسب وجعل القبيلة كلها مرمي للصفات السيئة ولم يعد مثل العصر الاسلامي هجاء مبني على اسس دينية ولم يعد فقط هجاء سياسيا كما كان في العصر الاموي بل زيادة على هذه الامور كلها نجد اشياء جديدة يمكن ان نجعلها كلها بتسمية الهجاء الاجتماعي لان التركيبة الاجتماعية التي ولدت انماط الهجاء السابقة قد تفتت في العصر العباسي الاول او بدأت تتفتت . وهكذا اختفى تدريجيا دور القبيلة وتأثيرها على الفرد وكذلك بسبب تلك الشعوب الوافدة على الاسلام والتي اصبحت جزءا لا يتجزأ من المجتمع العربي . رفع هذا التفتت من قيمة الفرد على حساب القبيلة وعلى حساب الجماعة الضيقة التي عرفت من قبل بهذا الشكل وما شابهه فأصبح الفرد جزءا من مجتمع عريض يصعب على الفرد ان يتحسس خصوصياته كلها بسبب هذا العرض ولكنه في الوقت نفسه تغيرت اهتماماته فأصبح يهتم ان قليلا وان كثيرا بما يجري في هذا المجتمع الكبير الذي خلقت الظروف الجديدة ، وما الهجاء الاجتماعي هذا الا ضرب من ذلك الاهتمام وهو نقد او تقويم او وجهة نظر في تطورات هذا المجتمع الكبير . لقد اختلطت الاجناس والعقليات والعادات بسبب تنوع عناصر ذلك العصر وطبيعي ان

لايوافق هذا الاختلاط بعض النفوس بل انهم كانوا يرون في بعض جوانبه نقما فاحشا اوتدنيا بالاطلاق والعبادات الحميدة فراحوا يتصدون لها .

وهذا لايعني ابدا ان انواع الهجاء الاخرى اندثرت فيالعصر العباسي الاول بل تراجعت قليلا فقط واصبحت تحتل مرتبة ثانوية بعد ان كانت تحتل الصدارة في يوم من الايام . لقد اوجد المجتمع الجديد اخلاقا جديدة وامورا لم تكن ذات اهمية من قبل اولم تكن موجودة املا ، وبدهيان يتأثر الشعراء بالوضع الجديد وان ينعكس ذلك في اشعارهم بالموافقة والتشجيع حينما وبالرفض والنقد حينما آخر ومن هنا اختلاف الهجاء فيالعصر العباسي عن العصور السابقة .

ب- التصوير الكاريكاتورى : من مميزات هذا الجديد ذلك الوصف الكاريكاتورى الساخر الذى هو وسيلة يقصد بها الايذاء والايلام للذان يوصلان الى النتيجة المتوخاة وهى التلقيح الاجتماعى ضد تلك الامراض التى ظهرت فيه بسبب التطور الحضارى الكبير الذى عرفه ذلك العصر ومن خصائص هذا الاسلوب انه يبعث فى الصورة حركة تجعل القصيدة اوالمقطوعة تنبض بالحياة حتى يجلب اليها اهتمام السامعين .

ج- المبالغة : وهى امر مقبول فى الشعر عموما ، لكن شعراء الهجاء فى العصر العباسي استفادوا منها كثيرا وطوروها لتخدم اغراضهم المنشودة وازادوا اليها الغلو حتى يكون لشعرهم وقع انفذ فى النفوس لتتم الفائدة بأقصى حد ممكن ولعل نوق عصرهم كان يشجع على ذلك .

د- المفارقات : وهى جزء آخر من عملية الايصال تلك حيث يتم بواسطتها جلب انتباه السامع وجعله يضحك من تلك العيوب فيسمجها ويزدريها ثم يحاربها ويتجنبها فى النهاية . والمفارقات من صميم

الهجاء في العصر العباسي اذ اعتمد عليها كثير من الشعراء في طرحهم
لمشاكل سرهم .

هـ - استعمال العبارات النابية : لقد كان هذا الاستعمال امرا

مألوفاً لدى شعراء ذلك العصر فهم لم يكونوا ينتقرون من ذكر بعض الامور
التي نخبط نحن من ذكرها الان وفاعتهم عندهم انها تقيد احيانا في توضيح
الفكرة التي يريد الشاعر تطبيقها على مجتمعه، وربما كانت لها اسباب اخرى
ذات علاقة بعلم النفس ولم تكن هذه الظاهرة خاصة بالشعراء الشعبيين
وهدهم بل لقد وجدت لدى جميع الفئات في ذلك العصر حتى تلك الفئات
الوقورة كرجال الدين والكتاب والاعيان وغيرهم وربما كانت تدل على
بعض التحرر في مثل هذه الامور التي قد سبقونا فيها احيانا اشواطاً كبيرة .

و - شعبية الهجاء : اي انه كان يهتم اولا بالشعب والجماعة

ويحاول ان يقوم سلوكه مستعينا فبذلك بالزاد الحضاري لذلك الشعب
ومستغلاً له احسن استغلال وذلك بذكر بعض التقاليد والعادات وبعض
الاعتقادات الشائعة لدى الشعب كما في قصيدة لحظة انفة الذكر ٤

وكما لاحظنا من قبل في غرض المدح ان الكرم نال الحظ الاوفر

فان البخل في غرض الهجاء استحوذ على حصة اكبر وذلك لان الشعراء
الشعبيين كانوا يركزون على ذم البخل انطلاقاً من واقعهم ومن حياتهم
التي كانت على الدوام صراعاً ضارياً ضد مختلف العوامل والظروف التي
جعلت منهم طبقة " دنيا " . ان للبخل علاقة بعيشهم وحياتهم
اليومية لانهم كانوا فقراء وكانوا في حاجة ماسة ودائمة الى الطعام،
والبخل مقرون بالطعام بالدرجة الاولى .

البخل ظاهرة شائعة يحتقرها العربي بطبعه لان مجتمعه عوداً على

الكرم بذلك الكرم الذي جاء هو الاخر نتيجة ظروف معينة فرضتها قساوة

الطبيعة حتى بدأ. وكان بين العرب اجمعين اتفاقا على طول الجزيرة
وعرضها ان يكرم المسافر في الصحراء ايا كان، البيت الذي طرقه ويفض
النظر عن كون ما حب ذلك البيت غنيا ام فقيرا ، عدوا ام صديقا، لان الجود
بالموجود كما يقال مولنا في قصة الخليفة مثل رافع على ذلك لان الكرم
اصبح واجبا على العربي حتى ولو كان الطارق عدوا ، فهم يعرفون حـق
المعرفة ان كل واحد منهم قد يضطر ذات يوم الى السفر وسيحتاج الى
الزاد والى الماء اثناء الطريق . وهكذا انخرزت تلك العادة فسي
لفسية العرب حتى اصحت طبيعة ثانية فيهم ، ومنها جاء احتقارهم
للبلط الذي هو نقيضها . ولذلك نجد الشعراء الشعبيين كثيرا ما يتناولون
هذا الموضوع ، اى البلط ، فيبينون مفاضة وسلبياته ، وهم بهـذا
يعلمون في تربية الجماهير على حب الاخلاق الحميدة وعلى تشجيع العادات
الاجيابة وعلى نبذ كل ما هو فاسد ومخالف للعرف .

وكان على هؤلاء الشعراء المعلمين ان يكونوا هم اولا نماذج تقتدى بها
الجماهير ، اى كان عليهم ان يكونوا صادقين فيما ينادون به ، لانهم
مطالبون اكثر من غيرهم بان يكون كرماء حتى تنفذ كلمتهم الى الجماهير
الواسعة وتوثر فيها التأثير المرغوب ، وبعبارة اخرى كانوا مطالبين
بالا يكونوا بطلا ، كما قال ابن ابي فنن: (١)

وان احق الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل

وهذا البيت بيان هام في هذه القضية لانه يؤكد على التطابق بين النظرية
والتطبيق ويؤكد على الصدق في المبادئ لدى الشعراء الشعبيين الذين
هم طليعة المجتمع ومعلموه بوصفهم نماذج تقتدى بها الجماهير لمالهم

(١) ابن عبد البر القرطبي: بهجة المجالس: ق ١ ص ٦٢٩

من سمعة طيبة لديها وتأثير واسع عليها .

وتجدر الإشارة هنا إلى العلاقة الفرس بالبخل فقد ألف فيهم الجاحظ ما ألف ، فما حقيقة ذلك ؟ قد يتبادر إلى الذهن أن الجاحظ قد زيد عليهم من أجل التندر ، وأنه ربما كان يفعل ضمن حملة الشعوبية التي عرفها ذلك العصر بحيث راح الفرس يبحثون عن عيوب العرب ويخرجونها للناس فتصدى لهم بعض القوم بالأسلوب نفسه أي بإظهار عيوب الفرس والبخل واحد منها . كل هذا جائز لكنه ليس بالتفسير الوحيد لتلك الظاهرة ، إذ يبدو لنا أن الفقر كان وراء البخل أيضاً لأن البخل من نتائج الفقر السلبية . الفقر إذا ولد الكرم والبخل معاً . ولنا هنا ندافع عن أهل المنع والجمع بل يبدو أن البخل كان الوجه الثاني للقضية على الإنسان الذي عانى الحردان سنين طويلة وواتاه الحظ يوماً قد يخشى أن تسرده الأيام مرة أخرى إلى حاله الأولى مفليجاً حينئذ إلى التوفير وبعبارة ذلك العصر إلى البخل . ونحن نظن أن البخل لم يكن عند الفرس وحدهم بل تعداهم إلى العرب على الرغم من أن أخلاق العرب لقتحهم ضد هذا المرض منذ العصر الجاهلي وربما أبعد منه ، لأن الظروف المحيطة تغيرت فلم يعودوا وحدهم بل اندمجوا بغيرهم من الأمم ولأن الحاجة ازدادت والمكاسب قلت .

ومع ذلك فقد كان البخل عند شعرائنا مذموماً بكل مواصفاته لكنهم ركزوا على شيئين اثنين هما البخل بالطعام والبخل بالمال ، وهما مرتبطان أشد الارتباط فبالمال يستطيع الإنسان أن يحمل على الطعام . ولهذا فمن بخل بالمال فكأنه بخل بالطعام . والبخل بالطعام يعد أشنع أنواع البخل . وهذا لا يعني أبداً أن الشعراء الشعبيين كانوا يهتمون ببطونهم أكثر من اللازم بل أن الأوضاع الاقتصادية كانت تدفعهم دفعاً

الى ذلك فهم لا يحفلون علما يرغبون بسهولة لانطرق الحصول على المال معدودة ولا يستطيع ان يمارسها جميع الناس ولم يكن لهم الا الزراعة البسيطة او تربية المواشي من غنم وجمال وما شابه ذلك . لقد كانت الثروة الوطنية الكبيرة في ايدي اقلية صغيرة هم الحكام عموما واتباعهم ، وحين لم يجد الفقراء شيئا من طموحاتهم راخاوي طالبون بالاشياء الضرورية العادية وهي توفير الغذاء اليومي لهم ولذويهم ، ووضع كهذا زاد الطين بلة اذ جعل ظاهرة البخل تنتشر لدى كثير فممن يملكون الاموال وبعبارة اخرى يملكون الطعام ، الامر الذي جعل شاعرا كأبي العتاهية يتشاءم الى درجة ان يقول : (١)

اطرح بطرفك حيث شئت فلن تسرى الا بخيلا

وفي هذا الشعر مبالغة واضحة لكنها لابد ان تكون مستندة الى واقع ما . ان الحرص على المال او الطعام ناتج كما قلنا عن تلك الظروف الصعبة التي كان يحياها الناس في ذلك العصر لان الدولة لم تكن تهتم بما يحتاجون اليه بل كان ممثلوها يحصرون الثروات والخيرات فيهم فقط وينتفعون بها دون سواهم .

اما البخل بالطعام فقد شنعوا به كثيرا والحواء على اظهاره بمظهر العيب البشع الذي لا يفتقر فقد قال الحسن بن هانئ (ابو نواس) : (٢)

(١) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء م ج ٢ ص ٥٩٥
(٢) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ص ٦٣٣ - ٦٣٤

رأيت الفضل متكسفا
فقطب حين ابصرني
فلما ان حلفت له
يناغي الخبز والسكا
ونكس رأسه ويكسي
باني ماعم ضكسا

وسوف نلاحظ في هذه المقطوعات ان مذكرناه سابقا في الهجاء عموما
يهتكر فيها ايضا كالكاركاتور والمبالغات والمفارقات ومنها اقوال
ابي نواس السابقة ومن ذلك قوله ايضا في بخيل آخر: (١)

ابو نوح دخلت عليه يوما
فكان كمن سقى الظمان آلا
فقداني براحة الطعام
وكنت كمن تغدى في المنام

وابو نواس هارح فيها يجاد هذه المفارقات الذكية والجميلة ومنها هذه
التي بين فيها بخل هذا الرجل وانها فعلا صورة جذابة لجأ فيها السى
هذه المقابلات التي تجعل ذلك البخيل ينتصر في الحالتين فهو يسقى
الظمان سرايا ويتغدى ضيفه في المنام .

واشنع من هذا كله ذلك البخيل الذي يبخل حتى على نفسه واهلته
وهذه قمة البخل كما قال ابن الرومي: (٢)

يقترعيسى على نفسه
ولو يستطيع لتقتيره
وليس بياق ولا خالد
تنفكل من متخر واحد

وماذا عسانا نقول عن مثل هذا الرجل ؟ هذا الرجل الذي جمع البخل
والكسل في شخص واحد فراح يقتصر حتى في الهواء الذي يتنفسه وهو موجود

(١) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس ١ ص ٥٢٨

(٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ١ ج ٢ ص ٦٦٦

بكثرة ، وهذا ما جعل ابن الرومي ينجح في فضح هذا الرجل .

اما ابو فرعون الساسي فيجمع بين ذم البخلين : بالمال وبالطعام ،
يقوله : (١)

ولا يهريم الدهر من مكانه اشجع من ليث على دكانه
لا يطمح الساطك في رغفانه اعطاني الفليس على هوانه

وقريب من هذا قول ابي الشمقمق : (٢)

يبس اليدين فما يستطيع بسطهما كان كفيه شدا بالمسامير

وهذه لقطة اخرى تبين مدى استهجان هؤلاء الشعراء للبخل حتى راحوا
يبذلون اقصى ما عندهم من اساليب وطرق فنية فيذمه واحتقاره كما
يتضح اكثر فيما يأتي من مقطوعات ، فمن ذلك قول ابي الشمقمق ايضا: (٣)
رأيت الخبز عز لديك حتى حسبنا الخبز في جو السحاب
وما روحتنا لتذب عنا ولكن خفت مرزبة الذباب

ومن ذلك قول حماد بمجرد فياحد اصدقائه وهو حربث ابو الفضل (٤)
حربث ابو الفضل ذو خبرة بما يصلح المقعد الفاسده
تخوف نخمة اضيا فسه فعودهم اكله واجده

ان بعض البخلاء كانوا يعلمون ان البخل مذموم من اغلب الناس ولذا
نجهم كثيرا ما يبهرون بخلهم ذلك بما يجاد على تبدو لهم منطقية او عبارة
اخرى كانوا يفسفون هذا البخل ويجدون له الاعذار الكثيرة .

(١) ابن الجراح : الورقة ص ٥٧

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٢٨

(٣) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٣١٧ وابن المعتز طبقات الشعراء ص ١٢٨

(٤) الاصفهاني : الاغانى ج ١٤ ص ٣٣٩ وابن المعتز طبقات الشعراء ص ٧٠

وباتون بمختلف الحجج التي تخدم قضيتهم فابو الفضل حريث هذا منهم
وراه ان كثرة الاكل تتخيم الانسان وفي التخمة اذى وضرره وليذا فمن
الافضل له ان يكتفي بوجبة واحدة حفاظا على معدته وهو ايضا كما
قال حماد عجرد : (١)

زرت اسرا في بيته منيرة له حيا * وله خير
يكره ان يتخم اضيا فيه ان اذى التخمة محذور
ويشتهى ان يؤجروا عنده بالصوم والصائم ما جـور

فانظر الى الحميلة التي لجأ اليها حتى يجعل اضيا فيسكينون عن الطعام
فهو يحدثهم اولا حديث طيب بالمعدة عليم ثم يحدثهم حديث فقيه يسي
في الصوم اجرا عظيما .

ومن حيلهم كذلك لجوؤهم الى تصغير القضاع حتى يقدموا للضيف
اقبل شيء يمكن كما قال منصور الاصبهاني في ذلك : (٢)

خوانك يابن ابي نوفل كما زعموا فلكة المغزل
وكيس قضاك مخروطة من البخل من اصغر الخرد ل

وقد اشتهر بعض النيام بالبخل حتى صار يضرب بهم المثل و يقول فيهم
الشعرا القضاك الكثيرة مثل ولد سعيد بن سلم الباهلي الذي هجاهم
احمد بن يوسف بقوله : (٣)

ابني سعيد انكم من معشر لا يعرفون كرامة الاضياف
قوم لباهلة بن يعصر ان هم نسبوا حسبتهم لعبد مناف
قرنوا الغدا الى العشا وقربوا زادا لعرايك ليس بكاف

(١) - ابن المعتز : طبقات الشعراء ص : ٧١

(٢) - ابن المعتز : المصدر نفسه ص : ٣٤٤

(٣) - المبرد : الكامل في اللغة والادب ٢/ ٢٦ والشريف المرتضى : الامالي ٢/ ٢٦٩

وكانني لما حطت اليهم
رحلي نزلت بأبرق العراف
بينما كذلك اتاهم كباراً وهم
يلجون في التبذير والاسراف

ويقول فيهم ابو الشمقمقوب بالاصح في سعيد نفسه (١) :
هيات تضرب في حديد بارد
والله لو طك البحار بأمرها
ان كنت تطمع في نوال سعيد
واتاه سلم في زمان مدود
لا يغيه منباشرة لظهوره
لا يبي وقال : يمين بصعيد

وربما تزيد بعض الشعراء على هؤلاء الناس الا ان هذا التزايد لم
يات اعتباراً فلا بد من وجود سوابق له حدثت فعلا فصرح الشعراء يبينون
حولها اشعارهم .
ويدلي مسلم بن الوليد بدلوه فيذم بخل سعيد بن مسلم الذي لحقته لعنة
الشعراء بقوله : (٢) :

سعيد بن مسلم الأم الناس كلهم
وما قومه من بخله ببعيد
خريمة لأبأس به غير الله
لمطبخ قفل وباب حديد

وقد هجا مسلم بن الوليد شخصاً آخر اشتهر بالبخل اسمه موسى بقوله : (٣)
يا ضيف موسى اخي خريمة صم
اطرق لما اتيت ممتدحاً
فخفت ان مات ان اقاد بسه
لم يذع الاعتلال بالعدم
لو ان كنز البلاد في يده
او فتزود ان كنت لم تصم
فلم يقل لافضلا على نعيم
فقمت ابغي النجاة من امم

هذا من ذمهم البخل والبخلاء لكنهم وصفوا بدقة الجيل التي يلجأ اليها

(١) المير: الكامل ٢/٢٥
(٢) الميرد : الكامل ج ٢ ص ٢٥
(٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٦

البخيل عند ما يجد نفسه مضطرا الى استقبال ضيف وذلك بالتشاغل عن هذا الضيف
باشياء كثيرة ومنها التظاهر بالصلاة كما قال احد الشعراء : (١)

تراهم خشية الاضياف خرسا يقيمون الصلاة بلا اذان

وقد يطول سجودهم حتى يمل الضيف ويهرب من الجوع بحثا عن الطعام في مكان
اخر .

ويظهر البخيل لاضيفه ان قضايا كثيرة تشغله فيقوم ويقعد حتى يعذروه وينصرفوا
كما قال الشاعر : (٢)

ياقانا في داره قاعدا من غير معنى لا ولا فائده
قد مات اضيفك من جوعهم فأقرأ عليهم سورة المائدة

وقد يهرب البخيل في وجه الاضياف ويترك البيت حتى لا يضطر الى تقديم الطعام
اليهم كما قال احدهم : (٣)

يا ايها الخارج من بيته وهاربا من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بهزاد له فأرجع وكن ضيفا على الضيف

ومن العجب ان الضيف يدعو الضيف الى الطعام كما فعل هذا الشاعر ؟ وكل ذلك
لان البخيل قد انتشر لديهم . والذي يحاول ان يأكل من طعام البخيل انما يذل نفسه
دون فائدة لان البخيل سوف يمتنع مهما كانت الظروف .

ولذا تكون محاولة الحصول على طعامه امرا سهينا للغاية كما قال دميل الخزاعي
في ابن طاهر : (٤)

(١) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ص ٢٠٨

(٢) المرجع نفسه ص ١٩٥

(٣) المرجع نفسه ص ١٩٤

(٤) المرجع نفسه ص ١٩٩

اتينا ابا طاهر مفطرين
وجاء بخبز له حامض
الى داره فرجعنا صياما
فقلت دعوه وموتوا كراما

وبعد فاننا نلاحظ من الامثلة السابقة امرينهما :

اولا: ان ذم البخل جزء من غرض عام هو الهجاء الذي تطور في العصر العباسي في رأينا فتناول موضوعات جديدة لم تكن تحظى بالاهتمام الزائد في العصور السابقة ومنها البخل الذي افردها له من خلفيات اقتصادية ولانه وان كان يجرح المهجو الا انه يمنح المجتمع مناعة حصينة ضد هذا المرض الخطر *

ثانيا: ان المبالغة واضحة في الشعر الذي يذم البخل وهي كما قلنا سابقا من اساليب ذلك العصر وكانت سبحة لدى النقاد زيادة صلاحها كانت توعر اكثر في المتلقي *

٤ - رثاء المتاع

كان الرثاء ومازك اصدق ما قيل من شعر لانه ينبع من عاطفة صادقة
لنفس جياشة داهمها الموت فلم تجد الا الشعر متنفسا لها عن الالام التي
يسببها لفر الالغاز ، الموت بحيث تطفى العاطفة على الشعر في هذه
الحال حتى يأتي ذلك الشعر يقطر حزنا وكندا .
وزيادة على هذا فان كل الاغراض الشعرية الاخرى قديروا صاحبها فاشددة
منها اما الرثاء فالرجاء معه سوى ان الانسان عاجز امام الموت وعجزه
هذا يولد فيه الحزن وفي الحزن يكون الانسان صادقا حتما .

لكن الشعراء الشعبيين زيادة على رثاء الاقارب والاهل والاصدقاء
فقد كانوا يرثون كل ما افتقدوه من متاع والمتاع يشمل كل ما يملكه الفقير
من ادوات او حيوانات او ممتلكات ما ، لان فقد اي شيء لدى الفقير
مهما كان تافها فينظر غيره فهو جليل عنده لان من الصعب على الفقير
ان يعوض ما ضاع منه وليكن غزاة او جملا او هرة او فانوسا او لوحة وما الى
ذلك ومن امثلة شعرهم ذلك قول ابي محمد القاسم بن يوسف في عنزة
سوداء له ، وكان كثير الشعر في رثاء البهائم : (١)

عين بكى لعزنا السوداء كالعروس الادما يوم الجلاء

ذات لون كالعبر الورد قد عدل بما فاسق لون الطسلاء

ذات رقبين امسسين روقيين وضرعين كالدلاء الملاء

وهي قصيدة طويلة عدد ابياتها سبعة واربعون بيتا تسير كلها على
هذا النسق ويبدو تأثيره بموت عنزته السوداء كبيرا لانها كانت تعطيه

تعطيه واولاده الحليب فحين ماتت فكأن مصدر الرزق انقطع عليهم .
ويقول فيهمزة كانت لجيرانه وماتت : (١)

تغزوا عن الهرة الصايدة	الاقل لمخة او مساردة
ن بحسن الخلافة والفائدة	عسى أن تدور صروف الزما
ففي غوكم نعمة وافدة	وان رحلت عنكم نعمة
مريب عندنا تالده	يقولون كانت لنا همزة
د واثبة فيه او لابده	لها قنص كاقتناص الفهو
جواهر وهي لهم راصده	تري الفأر من خوفها خشعا
فليست الوجرها عائده	فان اطلعت رأسها فارة
اذا اقبلت نحوها قاصده	كان المنية في كفها

وفي هذه القصيدة تبدو مقدرة الشاعر الكبيرة على الوصف الدقيق كهذه
الهمزة التي تلعب دورا كبيرا في حياة الانسان البسيط لانها تخلصه
من الفقران وكأنها حارس امين على بيته .

اما ابو الشبل البرجمي فقد اشترى كبشا للاضحى فجعل يسمنه ويعلفه
فأفلت منه يوما على قنديل له كان يسرجه وبين يديه سراج قارورة للزيت
فنطحه الكبش فكسره وانصب الزيت على ثيابه وكتبه وفراشه ، فلما عاين
ذلك ذبح الكبش قبل الاضحى وقال يرثي سراج : (٢)

(١) الصولي : الاوراق ص ١٧٢ - ١٧٣

(٢) الانصاني ج ١٤ ص ٢٠٤

يا عين بكى لفقد مسرجة
كانت اذا ما الظلام البسني
شقت بنيرانها غياطله
شقا دعا الليل بالدياجير
كانت عمود الضياء والنور
من حندى الليلشوت كديجور

وهي قصيدة طويلة عدد ابياتها واحد وخمسون بيتا تأثر فيها الشاعر
اشد التأثر لغقد سراجة وصب فيها غمزه على ذلك الكبش الذي كان السبب
في فقدها .

ولابي الشبل هذا قصة اخرى مع قرطاسه ، فقد ذكر الحسن بن علي
الشيباني قال (١) : " دخلت على ابي الشبل يوما فوجدت تحت مخدته
ثلث قرطاس . فسرقته منه ولم يعلم بي ، فلما كان بعد ايام جاءني فانشدني
لنفسه في ذلك الثلث القرطاس :

فكير تعترى وحزن طويل
ليس يبيكي رسما ولا طيلا
كسقيم انحنى عليه النحول
مع كما تنحب الريا والظلول
انما حزنه على ثلث كان لحاجاته فعالت
كان للسر والامانة والكتمان ان باح بالحديث الرسول

وعدد ابيات هذه القصيدة ثلاثة وعشرون بيتا . ويلاحظ ان لابي الشبل
نفسا طويلا في رثائه لمتاعه وهذا يدل على تأثير فقد تلك الاشياء
في نفسه فهي ثمينة الفائدة .

اما ابن بسير فقدرش-الواحا له سرقها منه رجل اسمه قثم وفيها
يقول : (٢)

(١) الاحادي ج ١٤ ص ٢٠٩ (صورة عن دار الكتب)

(٢) مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٥٧٠

عين بكى بعبرة تسفاح
او حشت حجرتي وردناى منها
وانكريبها انا ذكرت بماقد
ايجوس دسما^٤ حالكة اللو
ذات نفع خفيفة القدر والمحمل
وسريع جفوفها ان محاما
هي كانت على علوي والى
هي كانت غدا^٤ زورى اذا زى

واقيمي ماتم الالواح
في بكورى وعند كل رواج
كان فيها من مرفق وصلاح
ن لباب من اللطاف الطلاح
عند كل مستعجب القوم ما حي
داب والفقه عدتي وسلاحي
رورى النديم يوم اصطباحي

ويقول فيها مرة اخرى: (١) :

ابقت الالواح اذ اخذت
زانها فسان من صنف
وتولى اخذها قشم

حرقه في القلب تضطرم
واحمرار السير والقلم
لا تولى نفعها قشم

وبعد فهذه مجموعة من مقطوعات الرثاء الشعبي نستبدل منها على ان
حياة الانسان تكسب بعض القيم بارتباطها ببعض الاشياء احيانا لان الانسان
حين يملك هذه الاشياء يشعر بالسعادة اما اذا ضاعت منه فانه يجزن
ويحس بالتوتر وقد يبكيها كما فعل هو^٤ الشعراء لان الفة بعض الامور
تولد رابطة بينها وبين النفس زيادة على ان بعضها ضرورى لحياة الانسان
ومن هنا تفهم مدى الخسارة التي احس بها اولئك الشعراء حين فقدوها
ولاعجب حينئذ ان ينعكس هذا الحزن على شعرهم فيبثونه كمدهم وبكاءهم.
وطبعي ان يوعثر فينا هذا الشعر لانه رثاء ومعناه ان الانسان لا يرثي
احدا او شيئا ما الا اذا كان مادقا .

(١) مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء^٤ في العصر العباسي ص ٥٧١

رما كانت الاغراض الشعرية الاخرى ناتجة عن المصالح التي تتحكم
في الفرد اما الرثاء فان الشاعر لا ينظر مزوراه فاعده معينه اللهم
الا الراحة النفسية التوقد يشعر بها عندما يروح عن نفسه بالحديث عن
الانسان او الشيء المفقودين . ان رثاء الاهل والاقارب هو اسمى انواع الرثاء
لكن الشاعر الشعبي او الانسان العادي يرتبط بتلك الامور التي لها
قيمة في حياته كالحيوانات الاليفة او اشياء المنزل حتى يصبح يحسس
وكان بينه وبينها قرابة معينة ولا عجب حينئذ ان يبكيها كل ذلك
البكاء .

.....

.....

٥ - التعامل مع البيئة الشعبية

حياة الفقير شكوى مستمرة ، شكوى من الحياة نفسها ومن وضعه
التعس ومن الحاجة والحرمان . ان الفقر يجلب له كل شيء سيء ويوثقه
بأمور كثيرة جدا فحتى الطبيعة نفسها تبدو وكأنها تتألب عليه لانسه
لايملك شيئا يواجهها به فهو اعزل الا من الايمان بالله وبالانسان وفي
ان هذه الظروف لابد ان تتغير يوما فيسعد فيه النفساء . لم يكن الطبيعة
ان تراه يريزح فيك هذه المصائب حتى تطلق عليه بعض مخلوقات لتزيد
من عذابه .

تطلق عليه البق والبرغوث والنمل وما شابه ذلك لتنفس عليه نومه الذي
ربما كان الفترة الوحيدة التي يسعد فيها بنسيانه بوعسه . ان هذه
الامور كلها من نتائج الفقر فلو كان يسكن في بيت صحي ويملك مالا يشتري
به ثيابا جديدة ويحارب به تلك الطفيليات لما انزعج ابدا . ولكن ما
الطل وهو لايمك ما يدفع به تلك المنغصات؟ لم يكن له حل سوى ان يتنفس
على نفسه اذا كان شاعرا بوصفها وذمها والشكوى منها، فقد تخصص بعض
الشعراء فيمثل هذه الامور وابرزهم هو ابو محمد القاسم بن يوسف فقد
قال مرة يشكو النمل : (١)

خراب الدور عامرها	فواقعها وطاعرها
لنا جارات سوء مؤ	ذيات من يجاورها
حوارك غير زراعة	اذا انتشرت مساكرها
كتعبية الكتائب حين تلقى	من يفاورها
فمقتول ومأسور	اذا خربت مشاعرها

وهي قصيدة طويلة قوامها اربعة وثلاثون بيتا اكتفينا بذكر ما ذكرنا
لنحيط فكرة عن الموضوع * وهو يقول من قصيدة اخرى طويلة عدد ابياتها
اربعة وعشرون يشكوف فيها من البق والبراغيث : (١) .

قد منينا بهنات هن من شر الهنات
نافرات آهـنرات قلقات مقلقات
سافكات لدماء الناس منهما شاربات
معنا في الرش والقمص علينا واثبات
بين محنك وفال ثوبه في الغاليات

وبين ان الشاعر يملك قدرة عجيبة على الوصف الدقيق لهذه المنغصات
زيانة على صدقه ومعاناته في هذه الحادثة *

وفي البراغيش يقول اعرابي كان بالبصرة حين ارقته : (٢)

ظلمت في البصرة في مـراش (٣)
وفي براغيث اذ لها فاشـي
من نافر هـيها وذى خـراش (٤)
يرفع جنبي عن الفـراش
فانا في حرب وفي تخـراش .
يتسرك في جنبي كالحواشي

(١) المصدر السابق ص ١٧١-١٧٢

(٢) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ق ٢ ص ٩٨ - ٩٩

(٣) المراث : الخراش

(٤) الخراش : التحرش للقتال

ويبدو ان مثل هذا الشعر كان كثيرا لكن الايام غالتة اوبعبارة
اخرى فان رواتنا القداموسامحهم الله قد ترفعوا عن ذكر مثل هذه
الامور وان صانف وذكرها بعضهم فمن اجل التفكه لاغير . ومثل هذا الشعر
يكشف عن جوانب عديدة من حياة الشعب اليومية ومن المشاكل الحياتية
التي كانوا يعانون منها .

ولايمكن ان نحصر هذه المشاكل ضمن هذه الامور القليلة لان الشاعر
كان يتعامل مع محيطه وبيئته وكانت هذه البيئة متقلبة الاحوال تُفرجه
حيناً وتحرّضه حيناً اخر او تنقص عليه عيشه ومن هنا جاء هجاءه لمثل
هذه الاشياء او مدحه لها .

وكما هو معروف فان بيئة الشاعر متعددة الجوانب اجتماعية وسياسية
واقتصادية ودينية وجغرافية وثقافية وما الرذك ويعكس ان نقول
باختصار ان كل ما قلله الشاعر الشعبي كان نتيجة تفاعله وتعامله مع
جانب من هذه الجوانب .

.....

٦ - الفكاهة والتنسدر

لم نر فيما سبق من موضوعات الالجد والصرافة لكن سوء الالملحفا يطرح نفسه علينا وهو : هل انعدم الفرلر كليا من حياة اولئك الشعراء الفقراء ؟والجواب انهم يكفيلهم مانالوه من عذاب ومشقة ومعاناة ممن واقعهم المر الذي لم يرلهم ابدا بل كان باسمرار يلفنن في دحلهم ويبلش بهم كالمها رأى منهم اسعدادا للثورة عليه ، فقد تألبت عليهم جملة من اللروف آحالت حياتهم جيلما . لكن الانسان ، مهما كانت ظروفه فقد تمر عليه لفظات يفرل فيها ويجد نفسه مدفوعا الى ان يروح على نفسه وينفس عنها وفي اللنقىس عن الالزان والواقع الاليم فواك كليلزة منها ان الانسان يجلد نشاطه بللك اللفظات اللتي يدوس فيها على الفقر ويضك منه فيها ملء فيه ومنها انه يضحك ذلك يواجه الالأس ولا يستسلم له ابدا .

ومن هنا يصعب اللحديد الفكاهة لكثرة الالغراض اللتي الللحتوى عليها ، فهي تشمل السخرية واللذع واللتهكم والهلجاء والنادرة والذعابة والمزاح والنكلة (١)

وكل هذه الامور الللحتاج الى تعريفات دقيقة حتى نفهم معنى الفكاهة على حقيقتها ، لكننا سوف ننظر اليها نظرة اجماليلة لاللفصيلة .

واهم شيء نلاحظه هو ان للفكاهة قسمين : فكاهة هادفة ذات مفلنى اخلاقي او سياسي او اجتماعي الخ ... وفكاهة عادية تأتي من اجل اللتنسدر لاغير . والذي يهمننا هو اللشق الالول نظرا لماله من علاقة ببحلنا اي بالشعر الشعبي في العصر العباسي الالول ، لان شعراء الفكاهة في ذلك

(١) شوقي ضيف : الفكاهة في عصر من ١٣ دار الالهلل العدد ٨٣

العصر كانوا باستمرار يسقطون على فكاهاتهم همومهم ومشاكلهم وما شابه ذلك .

وتبعاً لهذا فقد كان للناس دائماً موقفان (١) من الفكاهة ، موقف متزمت يرى فيها تهاية وقلّة عقل ، وموقف متقبل لها لكونها نابغة من الشعب ومعبرة عنه .

ويرى بعض الباحثين (٢) ان الفكاهة العربية تتميز بخصائص ثلاث

هي :

١ - واقعيتها المكشوفة .

٢ - هجوميتها واستعدادها .

٣ - تكلفها او صنعها .

ويعني بواقعيتها المكشوفة تناولها لجميع الموضوعات بدون حرج ، ويعني بهجوميتها واستعدادها تلك الشجاعة التي تحلى بها اصحاب الفكاهة في ادبنا العربي اذ كانوا يسخرون من كل من خرج على الصواب حتى ولو كان خليفة . اما تكلفها فيقصد به بعض النماذج التي تأتي فيها الفكاهة متكلفة متصنعة وهي غالباً ذلك النوع الذي يخترعه المثقفون في ذلك العصر .

ونحن نوافق الباحث علواً لخاصتين الاوليتين اما الثالثة فنحن

نلحقها بذلك النوع الذي لامغزى اجتماعياً فيه .

ويقول الباحث ان الفكاهة العربية نضجت في العصر العباسي

و" ما كان لها ان تنضج الا في هذا العصر ، عصر الترف والقوة والاستنطاق

بالحياة المليئة " (٣) ونحن نوافق على ان هذا العصر كان عصر

ترف وقوة واستمتاع بالحياة ولكن من ناحية الحكام والموسرين فقط .

(١) انيس فريحة : الفكاهة عند العرب ص ٣٧ - ٣٨ مكتبة رأس بيروت ط ١ ١٩٦٢

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤٠

(٣) المرجع نفسه ص ٥٢

فهم وخدمهم الذين كانوا يملكون هذه الاشياء ، اما غيرهم من الجماهير العريضة فكان يريزح تحطير الفقر والحرمان .

ويناقض الباحث نفسه هنا بعض الشيء عندما يجعل الفكاهة ناتجة عن مثل هذه الامور مع العلم انه يقول في مكان اخر ان الفكاهة " ناتجة من الشعب وهي دليل على الكبت والحرمان " (١)

ولكن لانلومده علوهذا التناقض لانه لم يكن يبحث في كتابه عن الفكاهة الشعبية وحدها بل كان يبحث في الفكاهة العربية ككل .

ونعود الى شعرائنا الشعبيين الذين لهم اساليب متعددة في تنديدهم تغل كلها على الروح المرحة التي كان يتمتع بها الانسان في ذلك العصر . وسوف نتعرض لبعض الموضوعات التي تناولوها بأسلوب ساخر والملاحظ انها سارت جميعا مسرى الامثال كشاة سعيد ونعجة منيع وطيلسان ابن حرب وحمار طياب وبغلة ابي دلامة وضرطة وهب الخ

اما وهب هذا الذي اشتهر بضرطته فهو " وهب بن سليمان بن وهب ابن سعيد صاحب بريد الحضرة ، اُفليت منه ضرطة في مجلس الوزير عبدالله بن يحيى بن خاقان وهو غاص بأهله فطار خبرها في الافاق ووقع في السن الشعراء وصارت مثالا في الشهرة حتى قالوا : اشهر من ضرطة وهب وافضح من ضرطة وهب ، وعمل احمد بن ابي طاهر كتابا في ذكرها والاعتذار عنها بعد كلام كثير ليل فيها " ٠٠٠ (٢)

ومن الشعراء الذين ذكروها في شعرهم ابو علي البصير الذي قال

(١) الميس فريحة : الفكاهة عند العرب ص ٣٧ - ٣٨

(٢) الثعلبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٢٠٦ - ٢٠٧

فيها : (١)

قتل لوهب البغيض يا وحش الخلقة يانا طقا بغير لسان
كانت الضرطة المشومة نارا اضمرت في جوانب البلدان
قتلت مفلجا وكان لعمرى عدة في الحروب للسلطان

والملاحظ ان الشعراء الظرفاء لا ينسون واقعهم الاجتماعي حتى وهم يتندرون
بل نجدهم في موضوع كهذا يشيرون الى الكرم والبخل والفقر وما شابه ذلك
فهذا ابن الرومي يقول (٢) :

مالقينا من ظرف شرطة وهب تركت اهل دهرنا شعراء
هي عندي كجود فضل بن يحيى غير انها ليس تنعش الفقراء

وهي اشارة واضحة الى ان الشعراء كانوا يرتزقون بشعرهم وكان الفقير
يجعلهم شعراء يكسبون بشعرهم قوتهم •

وقال فيها شاعر آخر ربط بين اسراف آل وهب فيمثل هذه الامور

وبين منعهم وبخلهم ، قال : (٣)

يا آل وهب حدثوني عنكم لم لاترون العدل والاقساط ؟
ما بال ضرطتكم يحل رباطها عفوا ودرهمكم يشد رباطا ؟
صروا ضراطكم المبذر صرکم عند السوء الى الفس والقيراط ؟
اوقأسمحوا بنوالكم وضراطكم هيبات لستم للنوال نشاطا
لوجدتم بها معا لوجدتم فرشاً لكم عند الرجال بساطا
لكنكم افرطتم في واحد وهو الضراط فعدلوا الافراطا

(١) الثعالبي: شمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٢٠٧

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٧

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٧

ولقد تفنن الشعراء بعد ذلك في وصفها فأحدثوا لها تشبيهات جميلة وراح كل واحد منهم يبين مقدرته على الوصف وعلى ابتكار المصانيف لهذه الحادثة فقد قال أحدهم : (١)

يا وهبنا الضرطة لا تبتهئس فان . . . انفا سا
واضرب لنا اخرى بلا كلفة كأنما مزقت قرطاسا

وقال آخر معتذرا له ومواسيا : (٢)

ايا وهب لا تجزع لافلان ضرطة نعاها عليك العائون وافرطوا
ولا تعتذر عنها وان جأ امرها فقد يغلط الحر الكريم فيضرب

وقال احمد بن يحيى البلاذري ساخرا : (٣)

ليت طبول العيد تحكي لنا ضرطة وهب بن سليمان
فانها كانت تروع العدا من بين مصر وخراسان
ياضرطة لو انها اشرقست اودت بصنعا وسجستان

وقال آخر متهمكما (٤) :

ان وهب بن سليمان ان بزوهب بن سعيد
حمل الضرطة للرى على ظهر البريد لم يجد في القبول فاحتاج الى دبير مجيد

(١) الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف المنسوب : ص ٢٠٧

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٨

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠٨

(٤) المرجع نفسه - ص ٢٠٨ - ٢٠٩

اما طيلسان ابن حرب فقد قال فيه الحمدوني قرابة ما اثني مقطوعة
وكان ابن حرب اهدى هذا الطيلسان الشاعر وفيه يقول : (١)
يا ابن حرب اطلت فقري برفوي طيلسانا قد كنت عنه غنيا
فهو في الرفو آل فرعون في العرف على النار بكرة وعشيا
والملاحظ هنا انه يشير الى فقره وقد كان فقيرا فعلا وزاد من فقره هذا
الطيلسان البالي الذي اضطر الرفوه مرارا حتى ذهب الطيلسان ويقسي
الرفو كما قال : (٢)

طيلسان لو كان لفظا اذا ما
كم رفوناه اذ تمزق حنسى
شك خلق في ايه بهتان
بقي الرفو وانقضى الطيلسان
وفي هذا المعنى يقول ايضا : (٣)

فيما كسانيه ابن حرب معتبر
قد كان ابيض ثم ما زلنا بسبه
فانظر اليه انه احدى الكبر
نرفوه حتى اسود من صد الابر

ومن نوادر ما قال فيه مقتبسا من القرآن وقد كانوا يلجؤون الى الترات
بكل مناجيه فيأخذون منه كما قال : (٤)

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا
واذا ما رفوته قال سبحا
امرضته الالوجاع فهو سقيم
ك محيي العظام وهي رميم (٥)

وقال مقتبسا من الحديث الشريف : (٥)

-
- (١) ابن المعتز طبقات الشعراء ص ٣٧٠
 - (٢) الثعالبي : خاص الخاص ص ١١٩ مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٦ م
 - (٣) ابن المعتز : المصدر السابق ص ٣٧٠
 - (٤) الحمصي القيرواني : جمع الجواهر في الملح والنوادر ص ١٥٧
 - (٥) الثعالبي : شمار القلوب ص ٦٠٢ - ٦٠٣
 - (٦) سورة يس آية (٧٧)

وطيلسان ان تأملته شققته بالطول والعرض
لو انه بعض بني آدم كان اسير الله في الارض

لان في الخبر: ان العبد اذا بلغ تسعين سنة كتبت له الحسنات وكفرت عنه
السيئات وسمي اسير الله في الارض (١)

وقد لجأ الحمدوني في مقطوعاته هذه الى التضمين فمن ذلك قوله مضمنا
قول ابراهيم الموصلبي وغناه : (٢)

كساني ابن حرب طيلسانا كأنه فتى عاشق بال من الوجد كالشن
يفني لبراهيم حين لبسته : ذهب من الدنيا وما ذهب مني

وعلى الرغم من هذا الهجوم على ابن حرب في الطيلسان الذي اهداه الا ان
الشاعر يعترف بالجميل ويذكر لنا بعض ابيادى هذا الطيلسان قائلا : (٣)

طيلسان لابن حرب	ذو اياد ليس تحصي
انافيه اشعر النسا	س اذا ما الشعر نسا
واراني صرت ادنى	بعدهما كنت اقصى
واتقاني الناس وازدا	دوا على شعري قمصا
كان دهرا طيلسانا	ثم قد اصبحت شصا (٤)

ومن احسن التشبيهات التي قالها فيه هذه المقطوعة الجميلة : (٤)

-
- (١) الشعالي : ثمار القلوب ص ٦٠٣ - ٦٠٣
 - (٢) المصدر نفسه ص ٦٠٣
 - (٣) الحصري القيرواني : جمع الجواهر في الملح والنوادر ص ١٥٣
 - x الشص : اللص الذي لا يدع شيئا الا اتى عليه .
 - (٤) المصدر السابق ص ١٥٣

قل لابن حرب طيلسا
اغنى القرون ولم يزل
فاذا العيون لحظنسه
يودي اذا لم ارفسه
نك قوم نوح منه احدث
عما مضى من قبل يورث
فكأنه باللحظ يحمرث
واذا رفوث فليس يلبث
كالكلب ان تحمل عليه الدهر او تتركه يلهث

واما حمار طياب فقد اشتهر كذلك على لسان ابي غلالة الذي وضع فيه كثيرا من المقطوعات كان يضمنها بعض الاصوات الغنائية التي اشتهرت في عصره . وكان هذا الحمار لطياب جاره وكان طياب هذا فقيرا لم يستطع ان يعلف حماره فاصبح جلدا على عظم ، ساهم البالد بمحتارها ، فوصفه ابو غلالة على هذه الطريقة وهو هواء ادرك ام لم يدرك فقد كان يشير الى فقر جاره وامثاله فقد قال فيه : (١)

ياسا علي عن حمار طياب
كأنه والذباب يأخذه
ذاك حمار حليف اوصاب
من وجه نقار ووشاب
وقال متهمكما على اسلوب الاطلاق والوقوف عليها وانه لا يهتم بذلك بل يهتم بحمار طياب هذا : (٢)

اقسمت بالكأس والمدام
ان لست ابكي على رسوم
لكن بكائي على حمار
قد ناب ضرا ومات هزلا
ومر يوما به شعير
وحظقت لشارة قوم
وصحبة الفتية الكرام
غيرها هائل الغمام
موكل الجسم بالسقام
فمار جلدا على عظام
مقدار كفين للحمام
كلاههما في يدي غلام

فظل من فرحة يفتسي
يا زائرينا من الخيام
لم تطرقتاني وبني حراك
وقال : قد جاءني طعامي
حياكم الله بالسسلام
الى حلال ولا حرام

وفي هذا المعنى يقول كذلك (١) :

لم ايك مشجوا لفقد حب
لكنني قد بكيت حزنا
ولا ابتلاني بذاك ربي
علو حمار لجار جنب

وقال اخيرا مضمنا بعض الالجان كعادته : (٢)

وحمار بكت عليه الحمير
اكان فيما مضى يقوم بضعف
كيف يمشي وليس يعلف شيئا
ياكل التبن في الزمان ولكن
عآين القت مرة من يعيد
ليس لي منك يا ظلوم نصير
بق حتويه الذباب يطير
فهو اليوم واقف لا يسير
وهو شيخ من الحمير كبير
ابعد الابعدين عنه الشعير
فتغنى وفي الفؤاد سعير
انا عبد الهوى وانت امير

اما بغلة ابي دلامة فهي ايضا يضرب بها المثل في الشهرة وقد وصفها
ابو دلامة في قصيدة طويلة عدد ابياتها ستة وخمسون بيتا ذكر فيها
كيف عذبتة فاحتمل حتى باعها لاحدهم . ويذكر فيها جملة من عيوبها وهذا
مطلعها وبعض من ابياتها : (٣)

ابعد الخيل اركبها ورادا
وشقرا في الرعيل الى القتال

(١) الثعالبي ثمار القلوب ص ٣٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٧ .

(٣) الجاحظ : القول في البغال : ص ١٠٠ - ١٠٥ .

رزقت بغيلة فيها وكال
رأيت عيوبها كشرت وغالت
ليحصى منطقي وكلام غيسرى
فأهون عيبها انها اذا ما
وخير خصائلها فرط الوكال
ولو افنيت مجتهدا مقالبي
عشير خصائلها شر الخصال
نزلت وقلت : امشي لاتبالي

ونكتفي بهذا القدر لان مثل هذه الامور كثيرة جدا لانستطيع ذكرها كلها .
لكن قد يتبادر الى الذهن سؤال : لماذا اهتم هؤلاء الشعراء بمثل هذه
الامور التي لاتبدو جادة ؟ لقد قلنا من قبل ان حياتهم كانت قاسسية
وانهم كانوا يفتنمون الفرض ليروحوا عن انفسهم وزيادة على هذا كان عليهم
ان يملأوا الفراغ الهائل الذي كان يحيط بهم فلم يكن العمل يشغلهم
لانه كان غير موجود او لنقل كان نادرا جدا فكان لزاما عليهم ان يجدوا
وسيلة يتعلون بها ومثل هذه الموضوعات كانت افضل وسيلة لديهم بحيث
ينسون للمحظة من الزمن قهرهم وان كان لاوعيتهم يتذكر وضعهم باستمرار
فينعكس حتى على هذه الموضوعات كما رأينا ، اضافة الى ان بعض الشعراء
كانوا فكهين بالطبع مثل الحمدوني وابي دلامة وغيرهما .

.....

....

٧ - تسلط المال

تحولت بعض الحواضر الكبيرة في العصر العباسي الاول الى سوق استهلاكية كبيرة مما زاد من قيمة المبادلات الغذائية الامر الذي اعطى للمال نفوذا كبيرا . والذين يكسبون المال هم الاغنياء طبعاً وهم لا يشبعون ابداً كما لا يشبع الفقير لكن شتان بين الشبعين فالغني لا يشبع لجشع في نفسه بينما لا يشبع الفقير لانه لم يجد ما يأكل .
وحال كهذه تغطي صاحب المال هيبة وتجعله مرهوباً مطاعاً مسموع الكلام ناهض الرأي ، كما تجعله يتصرف في شؤون غيره من الضعفاء وفي معاشهم بواسطة ماله . وهذا ما دفع اناسا الى التكالب على جمع المال بينهم جعل اخرين يمدون ايديهم لانهم لم يكونوا محظوظين حتى يكونوا اغنياء .
وهكذا اصبح للمال لسان ينطق فيقنع ويجعل الباطل حقاً كما يجعل الحق باطلاً ، فهذا احد الشعراء يقول مشيراً الى الرشوة التي انتشرت : (١)

بعثتني حاجتي رسولا يكون ابا درهم فتمت
ولو سواه بعثت فيها لم تحظ نفسي بما تمت

ولهذا انتشرت ظاهرة التزلف لذوى المال لدى بعض الناس فعابها الشعراء لانهم راوا فيها حطاً من قيمة الانسان واستعباداً له واستذلالاً، لكن في كل مجتمع يوجد افراد يرضون بهذا الاستعباد ومثال ذلك ما قاله عبيد الصمد بن المعذل في اخيه احمد حين قبض خمس مئة دينار من اسحاق بن ابراهيم ثم رجح الى البصرة وكان خرج منها على ان يغزو : (٢)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص : ١٢٧

(٢) زهير غازي : شعر عبدالصمد بن المعذل ص ١٣٣

يرى الفراء بان الله همته
فباع زهدا ثوابا لانقاذ له
وانما كان يفزو كيس اسحاق
وابتاع عاجل رقد القوم بالباقي
ويبدو ان احد هذا كان كثير التزلف لذوى الجاه واصحاب السلطان
فها هو يقول فيه مرة اخرى : (١)

عذيري من اخ قد كان بيدي
وكان يذمهم في كل يوم
على من لايس السلطان عتبه
يشي بالجهل والهديان خطبة
فلما ان اتته دريهمات
من السلطان باع بهن ريسه
كسبت ابا الفضول لنا معايا
وعارا قد شملت به وسبه

وعرانا يعبر صراحة عن موقفه من امثال اخيه الذين يتزلفون للسلطان
ببييعون انفسهم مقابل دريهمات ويحتقرهم، وهو يفضل ان يبقى زاهدا
في الحياة على ان يمد يده لصاحب مال لان صاحب المال لن يعطيه شيئا
دون مقابل فالعطاء تتبعه عادة ضغوط لايرض بها عبد الصمد وامثاله .

ومن عجب الاسور ان بعض الناس اصحوا يفتيسون الانسان بما يملك
من مال ، وان كان معدما فان الاصابح تشير اليه بالعيوب كما قال احدهم : (٢)

اذا قل مال المرء قل صديقه
واومت اليه بالعيوب الاصابح
ويتعد عنه الاصدقاء والناس اذا ادبرت عنه الدنيا كما قال آخر : (٣)
اذا كان جد المرء في الشيء مقبلا
تأت له الاشياء من كل جانب
وان ادبرت عنه دنياه توعرت
عليه واعيته وجوه المطالب
وان قل مال المرء اقصاه اهله
واعرض عنه كل الف وصاحب
وكذبه الاقوام فيكل منطق
وان كان فيه صادقا غير كاذب

(١) زهير غازي شعر عبدالصمد بن المعقل : ص ١٢٤

(٢) البيهقي : المحاسن والمساوي ٦ ص ٢٧٦

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨٠

هذه هي حال الانسان الذي لا يملك مالا في ذلك العصر ينفر منه الاصدقاء
ويقصيه الاهل ويصبح عديم المعنى في نظرهم لايساوشيثا كما قال احمد
ابن ابي طاهر : (١)

ولايساوى درهما واحدا من ليس في منزله درهم

لقد فقد الانسان قيمته واصبح يقاس بما يملك من اموال ، لكن الشعراء
كما قلنا تصدوا لهذه الظاهرة وحاولوا ان يبينوا ان الانسان يجب الا تطفى
عليه المادة وتستحوذ على مصيره ، والا فسوف يفقد انسانيته ، ولذلك لجؤوا
الى عدة اساليب ليظهروا عيوب المال فربطوه بالمعاصي وجعلوا الغنى
ملازما للشر وجعلوا الفقر محمودا كما قال محمود الوراق : (٢)

من شرف الفقر ومن فضله على الغنى لوضح منك النظر
انك تعصي لتنال الغنى ولست تعصي الله كي تفتقر

ولكن هذه الميحات لاتنفع لان الاوضاع الاقتصادية فرضت على الناس ان يبحثوا
عن المال بجميع الوسائل لان المال أصبح يملك سطوة على نفوسهم وعلى
ارزاقهم ولذا ظلوا يميلون الى الاثنياء متى ما ضحكت لهم الدنيا وان
مالت مالوا معها كالريح ، وذلك ما قاله ابو العتاهية من قصيدة جميلة
نذكر منها هذه الابيات وهي : (٣)

اذا انقطعت عني من العيش مدتي سيعرض عن ذكوري وتنسى مودتي
فان بكاء الباكيات قليل ويحدث بعدى للخليل خليل
احبك قوم حين مرتالى الغنى وكل غني في العيون جليل

(١) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء ١٢ ج ٢ ص ٤٩٨

(٢) المصدر نفسه ١٢ ج ٢ ص ٥١٣

(٣) الشريف المرتضى: امالي المرتضى ج ٢ ص ٢٢٨-٢٢٩

إذا مالت الدنيا إلى المرء رغبته إليه ومال الناس حيث يميل
وقرب من هذا ما أشار إليه بشار وإن كان يقصد به منح الكرم إلا أنه
من جهة ثانية ذم للذين يهرولون إلى أصحاب المال حين يقول : (١)
يسقط الطير حيث ينتشر الحب وتغش منازل الكرماء

وكذلك لان المال في نظر البعض كالمرهم يجبر العظم الكبير كما قال
مطيع بن ابياس : (٢)

شناء من أمير خير كسب لصاحب مغنم وأخي ثراء
ولكن الزمان برى عظامي ومالي كالدرهم من دواء

وهذا ما جعل جعيفران ينفجرو ويستهط لأنه رأى أن المال عقل من لا عقل
له وحسن من لا جمال له، وإن كان فقيرا فكل النواقص تلتصق به وذلك في
قوله : (٣)

رأيت الناس يدعوني بمجنون على عمد
ومابي اليوم من حسن ولا لبس ولا عقد
وإن كنت كقارون ووالدرجة الجند
وأوني راجح العقل جميلا حسن القد
وما ذاك على حيق ولكن هيبة النقد

وفي الأخير نقول إن هذه الظاهرة لم تكن دخيلة على ذلك العصر بل
أوجدتها ظروفه التي تحدثنا عنها سابقا وإن الذين هرعوا إلى أصحاب

-
- (١) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ق١ ص ٢٦٨
(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٩٣
(٣) النيسابوري : عقلاء المجانين : ص ٨٩ المط العربية بمصر ١٩٢٤

المال يطلبون مالهم ويمدون ايديهم كانوا معذورين اذ لم يكن امامهم
من وسيلة اخرى غير ذلك. صحيح انهم كانوا لابد ان يثوروا على الوضع
وقد فعلوا وان لم تنجح ثوراتهم وحاولوا بشتى الطرق الممكنة تغيير
ذلك الوضع . وكان الشعرا احد الاساليب المستعملة فيضالهم ذلك وما
هذه المقطوعات التي ذكرناها لهم الادليل عليها .

وفيختام هذا الفصل نكرر ان حياة الشعب لا يمكن حصرها في قوالب
واغراض محددة ومحدودة وجامدة بل هي متنوعة تنوع الحياة نفسها . وما
هذه الاغراض التي ذكرنا الادليل على ذلك التنوع والخصب .

.....

.....

الفصل الثاني

الخصائص الفنية

أ - الأوزان

ب - القوافي

ج - الألفاظ :

١ - سهولة الألفاظ

٢ - العرب

٣ - المصطلحات

د - في ثنايا الشعر :

١ - الاقتباس

٢ - الحسنات اللفظية

٣ - الصور الشعرية الشعبية

٤ - المبالغة

هـ - الصدق في التمهيد .

و - بناء القصيدة .

.....

مدخل :

تغيرت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي تغيرا كبيرا نتيجة للتطوُّر السريع الذي شهدته المنطقة اعقاب انتصار العباسيين واستيلائهم على السلطنة . وكان من نتائج هذا التغير ان اهتمت السلطة من العرب عليا فحتى العاصمة لم تعد قريبة من المناطق العربية كما كانت من قبل بل حاذت فارس التي كان اغلب جند الخلافة من فرسها وعربها وغيرهم من سكان تلك الاقاليم . وهذا مما يساعد تلك الشعوب على الانصهار بجدية في المجتمع الجديد ما اتاح لهم فرصة التأشير في الحضارة العربية الاسلامية بجميع مجالاتها . ان نظرة بسيطة لاصل الشعراء في ذلك العصر واللغويين والنحويين ومن شابههم تكفي للدلالة على ذلك ، فقد تعلموا العربية حتى اتقنوها والفوا فيها الكتب والمصنفات الكثيرة كما نظمو الشعر فمهروا فيه الى غير ذلك من النشاطات الفكرية . وهكذا استطاعت تلك الحضارات التي كانت متنافرة من قبل ان تحتج في بوتقة واحدة بفضل الاسلام وان تكون مجتمعا جديدا يمتاز عن عناصره المكونة بما يمتاز به الكل عن الاجزاء . وبالمقابل تطورت جميع الهنات الفوقية بحيث لم تعد وسائلها القديمة والموروثة عن بني امية تتلاءم مع العصر الجديد ولم تعد تكفي للتعبير عما جد فيه الامر الذي حدا بهم الى خلق انظمة وقياسات جديدة جاءت بطريقة موضوعية اي ان الناظر اليها لا يراها مفروضة فرضا على هذا العصر او مقحمة فيه بصفة تعسفية بل هي نتيجة ظروف منطقية ، ومع ذلك لانستطيع ان نعدد تلك الاسباب الان واحسبها فواحدا بل يمكن ان نذكر بعضها عرضا عندما نتعرض لجوانب التغيير التي حدثت في شعر ذلك العصر فيما يلي .

٢- الاوزان =====

لقد كان الشعر يمتاز بهيمنة كبيرة على نفوس العرب وكان له سحرا يأسرهم اليه ، حتى قيل ان بيتا من الشعر قد يشعل حربا كما ان بيتا اخر قد يطفئهم ناء وهذا ان دل على شي * فانما يدل على ان تأثير الشعر على العرب كان عظيما جدا لانه كان كل شي * عندهم فهو المدافع عن انسابهم والذاب عن اعراضهم والسرور على خصومهم (١) وهو مستودع عواطفهم وتراث تجاربهم اضافة الى انه كان وسيلة الاعلام الوحيدة التي لها مفعول عظيم على الجماهير ، وما زالت بقية من ذلك في عصرنا هذا التسم بالتطور (التكنولوجي) الهائل .

لكن الشعر العربي ، او اى شعرا اخر ، لا يبقى جامدا عبر العصور وكيف يمكنه ان يركد وهو ابن الانسان ، والانسان في اضطراب دائم ٣ لذا كان محكوما على الشعر ان يتطور وان تلحقه اسباب التغير لانه يمثل جانبا هاما من النشاط الفكرى والعاطفى للانسان .

وليس قولنا هذا مقصورا على الشعر الشعبى وحده ، لان الشعر ايا كان نوعه يبقى مرتبطا بانسان معين يعيش وسط ظروف معينة ، فسوف نرى ان ما حدث للشعر الشعبى انعكس صداه على الشعر الرسمى والعكس صحيح ايضا لان عملية التأثير والتاثر لا يمكن ان تحول دونها الطبقات .

حدث التغير في هذا الشعر ، لافى اغراضه العامة فحسب ، بل في ثناياه في معناه وفي شكله ، فمن حيث الشكل تطورت الاوزان والقوافي ومن حيث المعنى تغيرت الموضوعات التي تناولها .

محمد شكبي الالوسي : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ج ٣ ص ٨٤ :
شرح وتصحيح محمد بهجة الاثني ، طبع المكتبة الاهلية ، طبعة

ففي الاوزان مثلا حدث امران هاما نبدو فيهما روح العصر واضحة جدا
هما :

اولا : ظهور الاوزان القصيرة التي شغف بها العباسيون ايما شغف وافتتوا
بها حتى نظم كثير من شعرائهم عليها .

لقد وجدوا تراثا من الشعر يتسم بالجدية والعموم وهم في مجتمع تصدرت
فيه اسباب الفقر والحرمان من جهة واسباب الرفاه واللبو من جهة ثانية فاحسرى
بهم حينئذ ان يعيشوا عصرهم وان يطرحوا جانبا تلك الاوزان الطويلة التي تشبه
امتداد الصحراء وركابتها .

ما كان احوالهم الداوزان قصيرة تتمثل فيها الحياة الجديدة بصخب حواضرها
الكبيرة المحتوية على جميع التناقضات والمعبرة عن التطور السريع الذي حدث في
عصرهم . كانت وتيرة التطور سريعة جدا بعد ثورة العباسيين فكان محكوما عليهم
ان يحدثوا ثورة في كل شي .

وبقي ان نشير الى ان الشعراء الشعبيين وغيرهم من الشعراء لم يهبطوا الاوزان
الطويلة كلها بل نجدهم يستعملونها من حين لآخر لانه من الصعب عليهم جميعا
ان يتخلوا دفعة واحدة عن الموروث الشعري سواء في المعاني ام في الاشكال .
لقد بقيت اسباب الحياة متداخلة وقد بقيت الاتجاهات متداخلة فكما ابتعدنا
عن المدن كلما كان الشعر اقرب الى العصر الاموي والجاهلي من قبله وكلمنا
اقتربنا من الحواضر كلما بدت لنا الاساليب الجديدة المتلائمة مع العصر الجديد .
هذا من جهة ومن جهة اخرى فان الشعراء لم يكونوا دائما شعبيين خلصا
اورسبيين خلصا لان اغلب الشعراء كانوا في بداياتهم من طبقات فقيرة لكنهم مع
الايام ومع اقترابهم من السلطان قد تغير بعضهم وتأثر بحياة البلاطات فنسبوا
اصله وصار يصدر انطلاقا من وضعه الجديد . فلأتناقض اذا ان نستشهد احيانا
بشعر بعض عماليق الشعراء الرسميين في ذلك العصر كبشار وابي نواس وابي تمام
وغيرهم .

وليمت هذه هي الاسباب الوحيدة في بروز الاوزان القصيرة في تلك الفترة .
فهناك ايضا تطور الغناء وازدهاره بشكل استثنائي لم يشهدوا له شيلا من قبل
وحسبنا ان نتذكر كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني لنمي مدى هيمنة تلك الظاهرة
على العصر العباسي . صحيح ان الاغنياء هم الذين كانوا يستمتعون بهـذا
الغناء وان شعراءهم هم اول من تأثر بذلك لكن لا ننس ايضا عملية التأشير
والتأثر بين مختلف طبقات ذلك العصر ، وهكذا لعب الغناء دورا كبيرا في هيمنة
الاوزان القصيرة التي تناسبه وتناسب الموسيقى السريعة النابضة بالحياة .

ثم لانسى ايضا شروع التعليم والشعر التعليمي في ذلك العصر والنتائج عن
تلك الحركة الثقافية الواسعة التي نتجت عن اختلاط الاجناس والحضارات ، فقد
عمدوا الى صب القواعد والقوانين والعلوم المختلفة في قصائد شيقة موزونة
يسهل حفظها لعافيتها من موسيقي زيادة على حب الناس للشعر .
وطبيعي ان يلجؤوا فيما مثل هذه الظروف الى الاوزان الخفيفة السهلة القصيرة .

وكانت وسيلتهم في هذه الامور كلها ، في الغناء والتعليم والتعبير عن امور
الحياة ، هي استعمال الاوزان القصيرة اولا وتقصير الطويلة ثانيا بتجزئتها
وانهاكها وما الى ذلك ، مثل قول ابن منذر في رثاء عبدالمجيد (١) :

يا عين حق لك البكاء
لحادث الرزء الجليل
فابكي على عبد المجيد واعولبي كل العويل
وابكي لمبتاع النسيدي
والحمد بالشن الجليل

وهي من مجزوء الكامل ؛ او كقول جحظة البرمكي : (٢)

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٢٤-١٢٥

(٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ج ٢ ص ٦٠٤

وباحسنت لا يباع الدقيق

او كقول جعيف=ران : (١)

ما جعفر لا يبيسه

اضحى لقوم كثير

هذا يقول بنني

والام تضحك منهم

ولاله بشبيه

فكلهم يدعيه

وذا يخاصم فيه

لعلمها بابيه

او كقول عبد الصمد بن المعذل : (٢)

قالت حيا ل

شوئم الغزل

حين احتفل

ماذا العمل

هذا الرجل

اهدى بهصل

وهي على غرار قصيدة سلم الخاسر التي يقول فيها : (٣)

موسى المطر

ثم انهمر

كم اعتسر

وكم قدر

غيث بكر

الوى المرر

ثم ايتسر

ثم غفر

وكلاهما على تفعيلة واحدة هي مستغلق مع جوازاتها ، وهذا ما يبين ايضا ان الاتجاهين الرسي والشعبي قد تأثرا معا بمختلف الامور التي جدت في ذلك العصر .

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢٦

(٢) عبد الصمد بن المعذل : شعر عبد الصمد بن المعذل ص ١٥٣

(٣) احمد كمال زكي : الحياة الادبية في الكوفة ص ٣٣٨

وكما قلنا فان الشعراء لم يستعملوا الاوزان القصيرة وحدها بل نجد هـم
ايضا يستعملون الطويلة منها فهذا جملة البرمكي يذكر ان الفقراء ايضا
كرما في قصيدة من بحر البسيط مطلعها : (١)

جاء الشتاء وما عندي له ورق ما وهبت ولا عندي له خلع
كانت فبدرها جود ولعت به وللمساكين ايضا بالندی ولع

وقريب من هذا ما قاله الحسين بن مطير من بحر الطويل : (٢)

ات رجلا اودي بوافر لحمه طلاب المعالي واكتساب العكارم
خفيف الحشا ضرا كان ثيابه على قاطع من جوهر الهند صارم
فقلت لها لاتعجبين فانني ارى سن الغتيان من المشاتم

اما الفناء فاناره واضحة جدا في شعرنا العباسي الشعبي والرسمي ، ويبدو
ذلك جليا مثلا في مقطوعة لبشار بن برد تتردد فيها عبارة معينة كما كان الشعراء
يفعلون ان يختارون عبارة يرددونها لتكون بمثابة ايقاع لقيمة الابيات مثل
هلليلنة هلليلنة التي هجا بها ابو دلامة بشار بن برد (٣) او كقول بشار
نفسه : (٤)

ذرخلتا ذرخلتا
ذرخلتا ذرخلتا
ذرخلتا ذرخلتا
ذرخلتا ذرخلتا
ذرخلتا ذرخلتا
ذرخلتا ذرخلتا
ذرخلتا ذرخلتا

(١) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ج ٢ ص ٥٠٦

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٩٩

(٣-٤) مصطفى هداره : اتجاهات الشعر ص ٤٣٢

ثانيا : وثاني الامرين هو اختراع اوزان جديدة ، فالشعر العربي القديم
او على الاقل منذ عرفناه كان ينظم وفق انماط معينة فرضتها ظروف الحياة المختلفة
وجاء الخليل بن احمد الفراهيدي فاكتشف البنية الشعرية حيث وضع قوانين سماها
علم العروض تيمنا بملكة المكرمة لا اعتراضها وسط البلاد (١) وربطها بحياة العرب
فسمى البحور الشعرية باسماء لها علاقة بوضعهم ، فالعربي كما نعرف فارس ،
والفروسية ان لم يجدها لا تكتمل رجولته ، فهنا قضى الواحد منهم ثلثي حياته
ستطيا صهوة جواده بحيث كان يقطع مسافات طويلة اما غازيا واما باحشا عن
عن العشب والكلاء . وحينما كانت تطول عليه الطريق كان يهدو او عبارة اخرى كان
يترنم بما يعتل في نفسه وكانت حوافر الخيل والابل خير ايقاع يصب فيه تلك
الشحنات العاطفية التي تعتمل في داخله اذ على وقعها يتغنى اويشكو ما به . (٢)
ومن هنا استنبط الخليل بن احمد تلك التسميات التي اعطاها لبحور الشعر كالطويل
والسريع والخفيف وما شابه ذلك . وكشف الخليل في دوائره عن البحور المستعملة
والمهملة معا . وظل الدارسون والباحثون من بعده يرددون اختراعه ويضيفون
عليه من الاحتمالات والمصطلحات حتى اثقلوا كاهله فأصبح من الصعب على
طالب الادب ان يعي باستمرار كل تلك المعادلات الرياضية التي اصحبها علم
العروض .

ومع ذلك فان الشعراء لم يربطوا انفسهم بما ابتدع الخليل ، وان ساروا
على مبادئه ، لان النفس يستحوذ عليها النظام . ومع ذلك فلم يرضخوا له لان الحياة
في تفاعل مستمر لا ترضى بالقيود ابدا ، والبشر مدفوعون حتما الى ايجاد الاشكال
المناسبة للدلالة على اوضاعهم المختلفة عبر الازمان .

(١) ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ص ٤٩

(٢) اغناطيوس كراتشكوفسكي : دراسات في تاريخ الادب العربي ص ٨-٩ ترجمة

المعصراني دار النشر موسكو ١٩٦٥ .

ولذا حدث في العصر العباسي ان استنبط الشعراء بحورا جديدة تتناسب مع عصرهم دون ان يلغوا بالتراث فيغايهبا النسيان بل استغلوه الى اقصى درجة ممكنة ، فقد نهلوا منه المعاني اولا وظل بعضهم يسير على عمود الشعر المعروف حتى عصرنا هذا .

ان ابا العتاهية فارس بعيد الشأو في هذا المضمار - مع العلم ان ابا العتاهية اقرب الى روح الشعب في شعره معنى ولفظا - فالمصادر تذكر ان لــــه اكبر الفضل في ابتكار الاوزان ومثال ذلك ما قاله عنه ابنه محمد : " سئل ابي : هل تعرف العروض ؟ فقال : ان اكبر من العروض . وله اوزان لاتدخل في العروض " (١) . ومن هذه الاوزان دق الناظوم او ماسماه الاخفش بالمتدارك او الخبب وهو كقول ابي العتاهية : (٢)

قال القاضي لما عوتب	هم القاضي بيت يطرب
هذا عذر القاضي واقلب	ما في الدنيا الا مذنب

وربما كان يقصد الغدر في الشطر الاخير وذلك بقلب لفظة عذر ، وهي كما نلاحظ على وزن فعلن اربع مرات مع الجولات في كل شطر .

ومن خير الامثلة التي توضح مخالفة ابي العتاهية لقواعد العروض الخليلي قوله بن وزن المنسرح : (٣)

-
- (١) سعد شلبي : الشعر العباسي ، التبار الشعبي ص ٢٠٠ مكتبة غريب بدون تاريخ .
 - (٢) ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ص ١٩٥ طبع مكتبة الانجلو المصرية طبعة خامسة القاهرة ١٩٧٨
 - (٣) ابراهيم انيس : المرجع نفسه ص ١٩٥

من لم تعظه الخطوب
يا ايها العتلى بهتته
لم تثنه الايام والحقب
الم تر الدهر كيف ينقلب
يعجب والخلق كله عجب
راى خلق الاله يعجب

ويسمى شاعر اخر برزين العروضي لخروجه على العروض ومن ذلك قصيدته التي مدح بها الحسن بن سهل واخاه الفضل وقال عنها يا قوت انها غريبة العروض وهي : (١)

ذو الرياستين اخوك النجيب
ذو الرياستين وانت اللذان
فيه كل مكرمة وفيك
يحييان سنة غازى تهوك
والعباد مالكما من شريك
لم تزلالا كالحيا للبلاد
انتما ان احظ العالمون
منتهى الغيث ومأوى الضريك

واذا ناقشنا الان هذه الظاهرة فاننا نلاحظ الامرين التاليين :

اولا : قد تكون هذه الحالات التي خرج فيها بعض الشعراء على العروض الخليلي محاولات حقيقية لايجاد اوزان جديدة وهذا امر محتمل جدا لان العصر العباسي كان عصر تشكل للحضارة الاسلامية العربية على اسس جديدة تختلف عن المراحل السابقة بسبب انصهار مجموعة من الثقافات والعقليات فيها . وليس غريبا ان ينزع بعض الشعراء التي تجديد الاوزان العربية المعروفة وادخال اوزان ربما كانت لها اصول غير عربية لان كثيرا من الشعراء كانوا من جنسيات مختلفة ولم يتخلوا دفة واحدة عن حضاراتهم السابقة .

ثانيا : والامر الثاني له علاقة بالاول وهوان الشعراء وجدوا انفسهم في مجتمع ظهرت فيه لغتان ، لغة راقية وهي العربية الفصحى ولغة شعبية فيها الفصح وغير الفصح ، مع العلم ان الناس غير المتخصصين في علوم اللغة كانوا

على استمرار العصور جاهلون في قواعد الاعراب ، ومن هنا قد ينظم بعضهم شعرا على غرار اوزان الخليل لكن دون مراعاة للقواعد بصفة صارمة فنتج هذا الذى سمي خروجا على العروض لان تلك الاشعار اذا قرئت معرفة اختل الوزن . ودليلنا في هذا هو تلك القصائد الزجلية التي اشتهرت فيما بعد وقد ذكر ابن خلدون بعضها في مقدمته لكن بعض الباحثين لا يراها تطورا في " وزن الشعر وصوره وانما هو تطور في القافية وتنويعها من ناحية وقواعد الاعراب من ناحية ثانية . " (١)

وتذكر بعض المصادر انهم لجؤوا الى قلب الاوزان المعروفة اود مجهها في بعضها البعض ماولد لديهم محورا جديدة تماما منها المستطيل والمتوافر والمتند والمطرود والمنسرد والمتند ولم يكفهم كل هذا " فلجأوا الى اوزان اخرى حصرها الدنهورى في سبعة انواع هي : فن السلسلة والدوبيت والقوما والموشح والزجل وكان كان والمواليا . . . (٢)

لكن الذى يهنا من كل هذا هو هل كان للشعراء الشعبيين دور في هذه المحاولات التطويرية ؟ الجواب هو انهم لهم كل الفضل في ذلك لان التفسير الجوهري في مثل هذه المجالات لا ينتظر ابدا من الشعراء الرسميين لارتباطهم بالسلطة التي من اهم خصائصها المحافظة .

وهنا نريد ان نناقش قضية تبدو متناقضة للوهلة الاولى وهي :
بما ان الشعراء الشعبيين هم الذين حملوا لواء التطور في الاوزان فلماذا لم يبق اى دليل من شعرهم على ذلك ؟

ان بعض الاشارات المتناثرة هنا وهناك في طيات كتب الشعر والادب تجهينا على ذلك ، فقد كان الرواة لا يهتمون الا بالشعر الرصين الفصيح حسب رأيهم واهلوا ما سواه وان اخطأ احدهم مرة وذكره فمن اجل التفكه والتندر لاغير . من المؤكـد

(١) ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ص ٢١١

(٢) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر ص ١٢٥

ان الجماهير الواسعة في ذلك العصر كانت تتكلم لغة ليست كاللغة الفصحى التي بقيت من ذلك العصور ان كان فيها كثير من الالفاظ الفصيحة ، وهذا يعني حتما انه كان هناك شعراء يكتبون بتلك اللغة التي تفهمها الجماهير والتي يمكن ان نسميها عامية ذلك العصر ، فابن شعرهم ؟

هل ضاع لانه ضعيف لا يستحق البقاء ام انه كانت هناك ايد تعمل في الخفاء من اجل وادء وطمسه ؟ نرجح الشق الثاني من التساؤل لان كتب الادب واللغة التي وصلت الينا تدل على ذلك فمثلا نجد ان المواليا كان مشهورا في ذلك الوقت وهو ضرب من الازان قريب جدا من الروح الشعبية لان الشعراء قد استخدموا فيه العامية ولان بعض الروايات تقول ان الخليفة هارون الرشيد حين نكسب البرامكة منع الشعراء من رثائهم باى شعر لكن جارية من جواربهم كانت ترثيهم بهذا الشعر وهي تردد كلمة بالمواليا ، فسي بالمواليا ولانهم ذكروا ايضا ان المتأبى الشاعر قال على وزن المواليا : (١)

ياسقيا خصني بمتهواه لاتسج اقداحي رعاك الله
دعها صرفا فاني امزجها حين اشربها بذكر من اهواه

ولان كتب العروض تستشهد على الوزن المخترع الممتد بقول ابي العتاهية : (٢)

عتب ماللخيال خبيريني ومالي لا اراه اتاني زائرا مذ ليالي

وهذا ان دل على شي " فانما يدل على ان تلك الضروب من الشعر قد عرفت فعلا في العصر العباسي الاول اوعلى الاقل كانت لها فيه بدايات وارهاسات

(١) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر ص ١٢٥

(٢) محمد نبيه حجاب : المرجع نفسه ص ١٢٤

ساعدت على ظهورها جليا فيما بعد لكن ظروفنا عديدة حالت دون وصول الشواهد
الينا . ونحن نرجح ان السبب هو ان تلك الضروب كانت ذات صلة وثيقة
بالجماهير العريضة في ذلك العصر .

.....

ب - القوافي

=====

القافية هي انتهاء الجملة الموسيقية التي تحمل شحنة عاطفية معينة وقد عرفها الباحثون تعريفات عديدة ومتنوعة منها انهـل * الوحدة الصوتية التسيي تكرر في اخر كل بيت من القصيدة واليها تنسب القصيدة كلها (١) فيقال لامية فلان مثلاً .

ومثلاً جدد العباسيون في الازان فانهم قد جددوا في القوافي فتحـروا من الكثير من القيود لان القافية التي وصلت الى ذلك العصر من العهود السابقة لم تعد وحدها كافية للتعبير عن مستحدثات العصر بل ربما كانت تمثل احياناً حاجزاً امامهم من الصعب اجتيازه على غير المتضلعين في اللغة منهم . كان لابد من ايجاد قافية تتعدد فيها الحركة للدلالة على حركة الحياة الجديدة السريعة الخطى .

وتجدر الاشارة هنا الى ان بعض الشعراء قد استفادوا ما دخل الى الحضارة العربية من الحضارات والثقافات الاخرى في هذا الشأن من انواع شعرية وطرق لم تكن معروفة ومنها تعدد اشكال القصيدة ، وربما كان بعض الشعراء مازال محافظاً على لفته الاصلية كالفارسية مثلاً وربما نظم فيها الشعر وحاول ان يستغل خبرته في شعر لفته الاصلية ليزيده الى الشعر العربي وذلك يحدث التطور .

ان التجديدات التي احدثوها كثيرة منها المزدوج وهو ما اتفقت عروضه وضربه وهذا نوع انتشر بكثرة وكان للتعليم دور كبير فيه مع العلم ان المزدوج يختلف عن الارجوزة بكون المزدوج ليس من بحر الرجز كما قال ابو العتاهية من

(١) رجاء عيد : الشعر والنغم ، دراسة في موسيقى الشعر ص ٢٨٤

طبع دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٥ .

بحر السريع : (١)

لكل شيء معدن وجوهر
ما زالت الدنيا لنادأر اذى
واوسط واصغر واكبر
مزوجة الصفو بالوان القذى

ومنها المسط وهو عبارة عن قصيدة تدور حول المسط الذي يسمى المعود اى انها تتألف من ادوار يتركب كل منها من اربعة اشطر او اكثر على ان تتفق كلها فسي القافية ما عدا الشطر الاخير الذى يجب ان يوافق باستمرار قافية المسط او المعزود او القافية الثانية التي بدأ بها الشاعر (٢)

وبقي ان نشير الى ان الشعراء الشعبيين هم اقرب الى هذه التجديدات من الشعراء الرسميين لارتباط الاخيرين بالسلطة التي كانت تشجع الحفاظ على التقاليد الموروثة كما قلنا سابقا بينما الشعراء الشعبيون سريعوا التأثير بمختلف التيارات الفكرية والفلسفية والفنية الناتجة عن اختلاط الشعوب والعادات والثقافات الخ . . هذا على الرغم من ان شعرهم لم يصل الينا كله ولكن من المؤكد انهم تأثروا جدا بتلك الافكار التجديدية في ميدان الشعر .

ونقول هنا مثل الذى قلناه اعلاه من ان الشعراء الشعبيين هم اقرب الى هذه التجديدات على الرغم من ان الشواهد لم تصل اليها لاسباب عديدة .

وهناك تجديد اخر في القوافي اشتهر به ابو العتاهية خالصا لكن بعض الشعراء الاخرين قد استعملوه ايضا وهو النوع الذى يجعل الابهات كلها تتصل فيه اتصالا وتتداخل فيه تداخلا يجعل القصيدة كلها مترابطة متماسكة متمسدا بذلك عن الطريقة القديمة التي كانت تجعل كل بيت مستقلا بحاله في اطار القصيدة

(٢ -) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر واعلامه هي ١٢٦-١٢٧

الواحدة وان كان يمثل جزءا هاما في بنائها الكلي . ولقد عاب النقاد القدامى هذا الضرب الذي اشتهر به ابو العتاهية لكن ماجدوى كلاهم اذا كانت اسباب الحياة تدعو الى ذلك وتحبذوه وهو كقول ابي لامة : (١)

ووسوسوا بقران في سامعه مخافة الجن والانس لم يخف
شيئا ولكنه من حب جارية امسى واصبح موقفا على التلف

وكما نلاحظ فان هذين البيتين متصلان بعضهما ببعض اشد الاتصال بحيث انك لو قرأت بيتا دون ما يتبعه لما فهمت المراد .

وهناك نوع اخر من التجديد تبدو فيه اللفظة بكاملها قافية بحيث تتكرر هذه الكلمة على طول القصيدة ، وهو نوع طريف تتضح فيه الصنعة لانها ضرب من الجناس وسوف نرى ان كل كلمة تحمل معنى جديدا وتضيف اىحاءا جديدا مثل قصيدة دعبل بن علي في الفضل : (٢)

نصحت فاخلفت النصيحة للفضل	وقلت فسيرت المقالة في الفضل
الا ان في الفضل بن سهل لعبرة	ان اعتبر الفضل بن مروان بالفضل
وفي ابن الربيع الفضل للفضل زاجر	اذا ازدرج الفضل بن مروان بالفضل
وللفضل في الفضل بن يحيى مواعظ	اذا فكر الفضل بن مروان في الفضل
فابق جميلا من حديث تغرير به	ولاندع الاحسان والاخذ بالفضل
فانك قد اصبحت للحكم قبيحا	وصرت مكان الفضل والفضل والفضل
ولم اراياتنا من الشعر قبلها	جميع قوافيها على الفضل والفضل
وليس لها عيب اذا هي انشدت	سوى ان نصحي الفضل كان من الفضل

(١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٠ ص ٢٦٧ (صورة عن دار الكتب)

(٢) مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٣٣٨-٣٣٩

او مثل قول ابي النبيخي : (١)

الايا مالك الناس	وخير الناس للناس
اتنهاني عن الناس	فاغني عن الناس
والافدع الناس	ودعني اسأل الناس

ومن القوافي المبتكرة تلك التي لا قافية لها وان كانت تسير كلها على وزن واحد مسن بحور الشعر المعروفة كقول رزين الشاعر المروزي : (٢)

قربوا جمالهم للرحيل	غدوة احبتك الاقربون
خلفوك ثم مضوا مد لجين	منفردا بهمك ماودعوك

وهي محاولة جديرة وان لم يكتب لها النجاح في ذلك العصر الا انها وجدت بعثها في عصرنا هذا في ظاهرة الشعر الحر الذي يلتزم التفعيلة ولا يعطي القافية الواحدة اى اعتبار لاعتماده على الموسيقى الداخلية للاشطر الشعرية .

ان رزينا المروزي لم يبلغ الشكل العام للقصيدة في ذلك العصر فقد بقي البيت عنده مقسما الى شطرين متساويين الا انه الغى القافية بفهومها الشائع في ذلك العصر ولم يبلغ شكلها .

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣١

(٢) مصطفى هداره : اتجاهات الشعر ص ٥٤٢

ج - اللفاظ
=====

ان اللفظة ، اية لغة ، لاتعشيش بنأى عن المجتمع بل هي تتفاعل باستمرار بالمجتمع الذي نشأ فيه ومن هنا نجد ان اللغة العربية في العصر الاموي كانت اقرب الى لغة الجاهليين نظرا لبطء حركة التطور في تلك الحقبة من تاريخ العرب ، وهذا لايعني انها بقيت كما كانت من قبل لان التغيير - ولو كان طفيفا - قد حدث فعلا وواعلينا الا ان نذكر الالفاظ الاسلامية (١) اوعبارة اخرى تلك المجموعة الهائلة من الالفاظ التي لها علاقة بمصطلحات الدين الاسلامي الحديث لتعرف مدى التطور الذي طرأ عليها . الا ان العصر الاموي صار مع مرور الأيام حاجزا امام ذلك التطور لان القائم على الحكم ارادوا ان يحيوا سنن الماضي وتقاليدهم مثل العصبيّة القبلية والسلفية الخ . . . وكان لهذذه العملية انعكاس على مختلف مناحي الحياة ومنها اللغة . اما في العصر العباسي فان الامر يختلف . لقد كانت الثورة العباسية - قبل ان تتعرف - ثورة على الظلم والمعاصي والاضطهاد وثورة على كل ماله علاقة بالعهد السابق وحين نقول ثورة على كل ما يذكر بذلك العهد فان اللغة ايضا لكونها تتأثر باحداث المجتمع تدخل ضمن هذا . لم تكن اللغة اذا بمنأى عن تلك الثورة ، وحين نقول اللغة فنحن نقصد اشكالها ومعانيها معا ان الشكل لايتطور ابدا الا اذا تطوّر المحتوى الذي يحمله هذا الشكل ، والعكس صحيح ايضا لان العلاقة بينهما مترابطة . لم يعد معقولا ان تبقى اللغة على حالها بعد ان امتزجت حضارات عديدة مولدة بذلك حضارة جديدة تتفاعل فيها تلك المعطيات الجديدة وتنصهر بعضها ببعض لان اللغة هي " الواقع المباشر للفكر " (٢) وهي الصورة الخارجة منه وهي التي

-
- (١) جلال الدين السوطي : الزهر في علوم اللغة وانواعها ج ١ ص ١٧٢ وما بعدها طبع محمد علي صبيح واولاده بدون تاريخ .
 - (٢) مجموعة من الاساتذة السوفييت : في المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ٢٢٦ ترجمة خ . الضامن . دار التقدم موسكو ١٩٧٥ م

تنشره على ابناء جيلها وتنقله الى الاجيال القادمة .

وبسبب ذلك كله ظهرت العاميات في وقت مبكر اولا لصح ظهرت عاميات

جديدة لاختلاف المناطق التي كان يسكنها المسلمون العرب والمستعمرون .

ونحن نقول هذا لان اللهجات العربية في العصر الجاهلي مثلا لمست سوى صور

متعددة للغة العربية تكون في جعلها الفصحى التي نعرفها عن ذلك العصر ،

وهذا امر طبيعي لان الظروف التي تتعرض لها الجماعات تختلف باختلاف المناطق

ولهذا فلا غرابة ان تختلف بعض الاسماء عند هذه القبيلة او تلك وماشابه ذلك .

ويمكننا ان نقول باطمئنان ان العرب على اختلاف عصورهم كانت دائما تربطهم لغة

واحدة مشتركة .

اما اذا عدنا الى لغة الشعر الشعبي الذي وصل اليها من العصر العباسي

الاول فاننا سوف نلاحظ الامور التالية :

١- سهولة الالفاظ

اول ظاهرة تلقانا في هذا المجال هي ما نسميه موقنا بسهولة الالفاظ ، وذلك

ان الشعراء الشعبيين قد استعملوا الالفاظ المتداولة بين الناس والتي يسميها

احيانا بعض اللغويين القدامى والمحدثين على السواء بالالفاظ المبتذلة ، والسبب

في هذه التسمية ان جماعة المؤلفين من نحاة ولغويين وغيرهم - اي الخاصة -

هي التي كانت تتمسك بالقديم تمسكا استثنائيا وكانت ترى كل شيء حديث خروجا على

القواعد والاعراف فتحظ من قيمته لذلك السبب . ومن هنا ايضا جاءت صفة

الابتذال التي الصقوها بتلك الالفاظ الشائعة .

وكان جمهور الشعراء في نظرنا على حق في استعمالها لانهم بذلك يعيشون

عصرهم حقيقة فيخرفون من انتاجه اللغوي ما يفهم من جميع الناس ولنا فيما حدث

وكنا سمينا في البداية هذا الطبع من اللغة بسهولة الالفاظ موقتا لاننا نراها هي الفصيحة بينما يراها الآخرون غير ذلك . نراها هي الفصيحة ونسميها كذلك لانها تستوفي بعض الشروط قد لانجدها فيما سمي بالفصح (١) فهي اولا شائعة بين الناس وهي تانية مفهومة من قبلهم وهي ثالثا اقرب الى الروح الشعبية بينما كادت ان تصبح الالفاظ الفصيحة لغة صالونات بمفهوم عصرنا هذا . وما اصدق الجاحظ حين قال وهو الذي عاش ذلك العصر : " كلام الناس في طبقات كما ان الناس انفسهم في طبقات " (٢)

والامثلة على الالفاظ السهلة التي استعملها الشعراء الشعبيون في ذلك العصر كثيرة جدا نذكر منها مايلي : يقال ان امرأة اعترضت المأمون وكان قد غضبها ضيعتها فقالت له : (٣)

لا ايها الملك المرتجى	لريب المنون وصرف الزمن
بحق النبي وحق الوصي	وحق الحسين وحق الحسن
وحق التي غضبت حقها	ووالدها بعد ذما ما اندفن
شفعت اليك باهل الكساء	فان لم تشفع شيخي فمن ؟

وهذا شعر لانجد فيه لفظة غريبة حتى عن عصرنا الحاضر كل ذلك لان الفاظه سهلة بسيطة لم تنحتها صاحبها من صخر ولم تأخذها من قاموس للالفاظ الجاهلية بل استعدتها الشاعرة من واقعها اليومي ومن اللغة التي يتحدث بها البائع الجوال والجرار والفلاح والعامل البسيط في عصرها . ويقول الحمدوني في شاه سعيد : (٤)

-
- (١) جلال الدين السيوطي : الزهر في علوم اللغة وانواعها ج ١ ص ١١١ وما بعدها
 - (٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص : ٩٠
 - (٣) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادب ج ٢ ص ٤٨٥
 - (٤) سعد شلبي : الشعر العباسي ص ١٤٣

سلبها الضمر والمعجف	لسعيد شويبه
برء ما بي من الدنف	بأبي من بكفه
وأنته لتعتلف	فأناها مطمها
تغني من الاسف	فتولس فاقبلت
عذب القلب وانصرف	لينه لم يكن وقسف

وهذا ايضا شعرا لكلمة وعرة او حوشية فيه ولا لفظ غريبا بين جنبااته بل انه بسيط كساطة الناس حين يفرحون ويغضبون ويتألون ويشكون. وهذا ابو الهول الحميري يغضب لنفسه من بخيل كان مدحه ولم ينل من عطائها شيئا فقال فيه (١)

أصبحت محتاجا الى الضرب	في طلبي المعروف من كلب
قد وقح السباله وجهه	فصار لا ينحاش للضرب

ومن سهولة الالفاظ ايضا ما قاله محمد بن امية في شكل حكمة رائعة تدل على ان الرجل جرب الحياة فاعطانا هذه الابيات الجميلة: (٢)

اقطع الدهر بظن حسن	واجلي كرسية لاتنجلي
كلما املت وجها صالحا	عرض المكروه دون الامل
وكذا الايام لاتدني الذي	ارتجسي منها وتدني اجلي

وفوق هذا كله فقد استعمل شعراء ذلك العصر العبارات الموهلة في العامية وكان ذلك الشعر فيه مثل هذه العبارات لم يصل اليها منه الا القليل القليل كقول الفضل بن هاشم: (٣)

- (١) - ابن المعتز: طبقات الشعراء صفحة ١٤٣
- (٢) - الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء ج ٢ ص: ٤٥٥
- (٣) - ابن الجراح: الورقة ص: ١٢٩

قل لها ايها الرسول عساها ان ترد وصلنا نعيش بخير
ايش معنى لصوق صدغ بصدغ انما الشأن

نلاحظ اولا ورود لفظة (ايش) التي هي استعمال شعبي محض لعبارة
(اي شيء) وهذا ناتج عن تطور اللغة عموما وهذا ما يسمي ايضا بظاهرة
الاقتصاد اللغوي حيث يلجأ المرء عادة في حديثه اليومي الى اختصار
الالفاظ ودسجها او تبديل الحركات من الصعب الى السهل حتى يبذل اقل
جهد عضلي ممكن دون ان يضر بالمعنى المراد توصيله .

وثانيا نلاحظ عدم احترام قواعد الاعراب حيث جعل الشاعر جواب الشرط
غير مجزوم في الشطر الثاني من البيت الاول (نعيش) .

٢- المعرب والدخيل *

=====

نحن امام عصر تعددت فيه ناهل الثقافة ومشاربها اى تعددت في اللغات واللهجات بتعدد الاجناس الداخلة في الاسلام . وكان امرا طبيعيا ان تأخذ هذه الحضارات بعضها من بعض وان تتأثر كل واحدة منها بغيرها فتأخذ ما تراه مفيدا لها . وكانت اللغة بفرداتها وتراكيبها هي رقل تلك الخبرات والتجارب من مجتمع الى اخر . وليس هذا دليل ضعف اذا لجأت لغة ما الى مثل هذا الاسلوب في الاخذ ، بل هو رمز قوة بحيث ان لغة ما اذا استطاعت ان تستوعب محتويات لغة اخرى (اى حضارة اخرى) فهذا مؤشر صفة وهذا يعني ايضا انها مقتدرة ومتفتحة بشرط الاتذوب للغة المستقبلية في الوافدة .

وكانت اللغة العربية منذ عرفناها في العصر الجاهلي تلجأ الى هذا الاسلوب في الاستفادة من غيرها من اللغات ولنا خير دليل في القران الكريم الذي وجددت فيه بعض الالفاظ من اصل حبشي او فارسي او رومي الخ . . . وهو ماسي بالمعرب شرط ان يخضع لشروط وطرق معينة يتم بها ذلك النقل حتى يتلبس بزي العربية . لقد ظل الامر على تلك الحال في العصر الجاهلي وجزء كبير من العصر الاموي ، اما في العصر العباسي فقد تغيرت الامور كثيرا . فقد بقيت حركة التعريب مستمرة لكن الذي حدث حينئذ ان وابلا من المصطلحات والالفاظ دخلت العربية نظرا لانفتاحها على اصار جديدة وخاصة الفرس ، حتى اصبح التعريب المقنن غير كاف ماسح لعدد من الالفاظ ان تدخل العربية وتبقى على شكلها دون تغيير حتى وان خالفت النطق العربي وهذا في الالفاظ الفارسية بصفة استثنائية لظروف معروفة .

والامثلة على ذلك كثيرة جدا نذكر منها مايلي :

* انظر في باب المعرب : السيوطي : المزهج ١ ص ١٥٩ وما بعدها .

قال اسود بن ابي كريمة : (١)

بكرة في يوم سبت	لزم الغرام ثوبي
ميل زنكي بعست	فمايلت عليهم
او عقارا باهست	قد حسا الداذي صرفا
ويحكم ان خرقت	كم كفتهم ذو زيباد
اهل صنعا بعفت	ان جلدي دمغت
ان كور يذنت	وابو عمرة عندي
ايا عبد ينهشت	جالس اندر مكناد

وواضح ان هذا الشاعر يمشي ازدا واجبة رهبة قد توتت
على حياته كلها هذا ان لم يكن قاصدا ذلك قصدا .

وقال ابن منذر يعير قاضيا : (٢)

جعل الحكم بالناس من آل طليق
ضحكة يحكم الناس برأى الجاثليق

او كما قال الفضل بن هاشم : (٣)

حماقتي ليس تخفي	انا المخبل صرفا
وشججوا الرأس نقفا	فما جلوني بلطم
بالهشتانات قصفا	ثم اقصوا الظهر مني

فالهشتانات ليست عربية على الاطلاق وحتى تركيبها غريب على لغتنا .
لكننا اذا عرفنا ان عددا كبيرا من شعراء العصر العباسي الاول شعبيين ورسميين ،

(١) الجاحظ : البيان والتهيين ج ١ ص : ٩٠

(٢) سعد شلبي : الشعر العباسي ص ١٤٧

(٣) ابن الجراح : قصة ص ١٣٠

كانوا من الموالي فان الامر لا يصبح غامضا ولا موجبا للتساؤل ، فهو "لا" الشعراء لم يستطيعوا ان ينسوا لغاتهم الاصلية زيادة على بعض الامور الاخرى كالشعبوية التي تفرض عليهم احبانا ان يمزجوا العربية بلغتهم احيا لعاشرهم وحظا مسن قيمة العربية . لكن المدحش ان يلجا العرب انفسهم الى استخدام بعض اللفاظ غير العربية ، وقد تنبه الجاحظ لهذه القضية حين قال : " . . . قد يتلحح الاعرابي بان يدخل في شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العماني للرشيد في قصيدته التي مدحه فيها : (١)

من يلقه من بطل مسرود في زغفة محكمة بالصر
يجول بين رأسه والكرد *

ان الجاحظ يرى ان هذا من التلحح او بعبارة اخرى من عرض العضلات بمعرفة اللغات لكن الحقيقة ان هذا الاعرابي والاعراب اشد حفاظا على لغتهم لمسام اختلاطهم بغيرهم من الناص - يمكن الحال التي كان عليها عصره حيث اصبح للفرس مثلا نفوذ كبير فطغت لغتهم من جديد واللغة تتصرف وفق الجماعة التي تنتمي اليها .

ويعطينا الجاحظ صورة اخرى من تلك الشعوب التي دخلت الاسلام وتعابرت العربية بقوله : " وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظه متخييرا فاخرا ، ومعناه شريفا كريما ، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه انه نهطي وكذلك اذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فانك تعلم مع اعرابه وتخبر الفاظه في مخرج كلامه انه خراساني وكذلك ان كان من كتاب الاهواز . . . (٢)

(١) الجاحظ : البيان والتهمين ج ١ ص : ٨٩

* الكر : اي العنق .

(٢) الجاحظ البيان والتهمين ج ١ ص ٥١

وقد اشار الجاحظ هنا الى قضية اللكنات التي تبقى لدى الفرد حين يتعلم لغة جديدة لان من الصعب ان يتعلم الانسان خصائص لغة ما الا بعد طول مدة وممارسة ، فهما تعمق المرء في قواعد تلك اللغة وظواهرها فان لكنته الاصلية او بالاصح لغته الاصلية تبقى مسيطرة ~~في~~ في خارج بعض الحروف مثلا . ولكن الذي يهمنا هوان هذه اللكنة اذا كانت بكثرة ورددتها قوم هديون فانهم قد توارثوا في اللغة التي يستعملونها ان قد توارثوا في العربية وهذا ما حدث فعلا ومنه ما بقي حتى في عصرنا هذا فاننا نجد مجموعة قليلة من الناس هي التي تستطيع وسدها ان تعرف مليا بين حرفي الضاد والظاء .

وهذا الاختلاف مع هذه اللكنات من الاسباب المكونة للعواميات ، وما كلام الجاحظ سوى دليل على وجود تلك اللهجات ، فالغفلاق الذي تحدث عنه قد يلجأ حين يخونه مخزونه اللغوي العربي الى مخزون لغته الاصلية فيستعمله محاولا الياسه بلهوس عربي ، ومع التكرار وتداول الناس له يدخل ذلك اللفظ في العربية .

+++++

٣ - المصطلحات

=====

نشأ كثير من العلوم في صدر الاسلام وتواصل البحث فيها على امتداد العصر الاموي ، وكان للدين الاسلامي الاثر الكبير في نشوئها ، فقد كان من الضروري نشر الدين الجديد وتعليم تعاليمه وتحفيظ القران للداخلين في الاسلام من غير العرب وهذا من الاسباب التي اضطرتهم الى ايجاد النحو والصرف وعلوم اللغسة المختلفة زيادة على الامور التي تمس الدين مباشرة كالفقه والتفسير وماشابه ذلك لان انتشار الاسلام في اقاليم عديدة لاتعرف العربية جعل امرا كهذا حتميا .

وجاء العصر العباسي فازدهرت تلك العلوم ازدهارا عظيما كما ظهرت الى الوجود علوم اخرى نتيجة التطور الهائل ونتيجة الترجمة والاحتكاك بشعوب اخرى .

وقد كانت حركة الترجمة حثيثة الخطى في مجالات عدة كالغلسفة والطب والهندسة والزراعة وغيرها ولاضرب ان نذكر ان بضعة مئات من الكتب قد نقلت الى العربية منها* ثمانية في الفلسفة والادب لافلاطون و ١٩ كتابا في الفلسفة والمنطق والادب لارسطو وعشرة كتب في الطب لاقراط وثمانية واربعون في الطب لجالينوس وبضعة وعشرون كتابا في الرياضيات والنجوم لاقليدس وارخميدس وابولونيوس وسنالاوس وبطليموس . . . وغيرهم . . . * (١)

واما المنقولات الاخرى فمنها نحو* عشرين كتابا نقلت عن الفارسية فسي التاريخ والادب ، ونحو ثلاثين كتابا من اللغة السنسكريتية واكثرها في الرياضيات والطب والنجوم والادب ، ونحو عشرين كتابا عن السريانية والنبطية واكثرها في السحر والطلسمات الا كتاب الفلاحة النبطية . . . وهناك بضعة كتب نقلت عن اللاتينية والعبرانية . . . * (٢)

(٢) (١) جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٥

طبعة دار الهلال ، بدون تاريخ .

والذي حدث فوق هذا كله ان هذه المعارف وجدت طريقها الى الجماهير العريضة لان طريقة التدريس المتبعة في ذلك الوقت في المساجد تسرح لكل من اراد ان يتعلم ان يحصل ما يريد بحيث لم تعد هذه المعارف حكرا على المتخصصين في ذلك العصر بدليل ان بعض الشعراء ، شعبيين كانوا ام رسميين ، كانوا يستعملون مصطلحات تلك العلوم في شعرهم وهذا يدل من جهة اخرى على شيوع تلك العلوم بين الناس .

ومن امثله استعمالهم لتلك المصطلحات قول الخريبي متأثرا بالفلسفة وعام الكلام : (١)

اذا ماتت بعضك فابك بعضا فبعض الشيء من بعض قريب

لفظة (بعض) هذه قد اتخذت مدلولاً جديداً في ذلك العصر وهو فلسفي كما هو واضح .

ولذا فان هذا الشاعر قد تأثر بتلك المدارس الفلسفية والفكرية التي كانت موجودة في عصره وما اكثرها وكذلك فعل غيره من الشعراء وليس في هذا عيب ابداً لان تلك المدارس ساعدت على تطور اللغة في معانيها ومدلولاتها .

ويقول ابو الشمقق ايضا متأثرا بتلك المعارف واصفا البرغوث : (٢)

يا طول يومي وطول ليلته فليهن برغوشه بجلده
قد عقدت بندها على جسدي واجتهدت في اقتسام جعلته

فلا جتهاد معروف فهو احد ، عناصر التشريع في الاسلام والجملة هنا مصطلح فلسفي اي الكل .

(١) الثعالبي : خاص الخاص ص ١١٣ تقديم حسن الامين طبع مكتبة الحياة

بيروت ١٩٦٦

(٢) الراغب الاصبهاني : معاضرات الارباء م ٤٤٢ ص ٦٨٧

وقال احمد بن يوسف واصفا غلامه بعبارات بيد وفيها التأثر بالهندسة واضحا
جدا وذلك بقوله (١) :

كخط اقليدس لا عرض له .

ولي غلام طال دقة

فسار كالنقطة لا جزء له

وقد تناهى عقله خفة

وتكهننا هذه الامثلة لناخذ فكرة عن تداخل العلوم وتأثيرها على الناس .

(١) سعد شلبي : الشعر العباسي ، التيار الشعبي ص ١٥١

د - في ثنايا الشعر

=====

هناك جملة من الامور كان الشعراء يلجؤون اليها من حين لآخر كالاقتباس
والمحسنات اللفظية والصور الشعبية والمبالغة والصدق في التعبير ، والحقيقة
انهم لم يكن لهم خيار في اللجوء الى هذا اوزاك من هذه الامور بل ان الواقف
التي يتناولونها شعرا هي التي تفرض عليهم سلوكا معيناً وسوف نعرضها الان واحدا
فواحدا .

١- الاقتباس

لجأ الشعراء في كثير من الاحيان الى الاقتباس من التراث الموجود لديهم
من قران وحديث وشعر وامثال وخرافات واعتقادات حسب ما يتطلب منهم الموقف
الشعري بحيث يصبح لشعرهم عادة صيغة من الحكمة والجد ، معتبرين بالماضي
وتجاربه اضافة الى طابع الاخلاق الذي يهيمن على مثل هذا الشعر .

والاقتباس امر مشروع وليس سرقة ، ليس في الشعر فحسب بل في جميع مجالات
الحياة لان تطور الانسانية على مر العصور يتم بطريقة حلزونية اى ليس متجهها
دائما نحو الامام كالسهم او نحو الوراء كالصخر النازل من عل بل ان الانسانية تبدو
وكانها تخطو خطوة الى الوراء وخطوات عديدة الى الامام حتى يبقى هذا الريبساط
المتين بين الانسان واخيه الانسان في مختلف العصور وتبدو تلك الخطوة التي
تقوم بها الانسانية الى الوراء كنوثة جديد واخذ للنفس حتى تقفز الى الامام
تلك الخطوات التي يجب ان تسيرها .

وفي هذا الاطار يمكن ان نفهم فلسفة الاقتباس في الشعر وفي غيره . وهناك

امثلة كثيرة لدى الشعراء الشعبيين في هذا المجال منها قول اسماعيل القراطيسي (١) :

(١) نبيه حجاب: معالم الشعر واعلامه ص ١٢٠

الأقل للذي لم يهده الله إلى زرع
لئن أخطأت في مدحك أخطأت في شعبي
لقد انزلت حاجاتي بواد غير ذي زرع (١)

واثر القرآن الكريم واضح في هذه الأبيات .

وقول عبد الله بن المبارك : (١)

أرى أناسا بادننى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا بالعيش بالدون

فاستغنوا بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وهذا القول مأخوذ من كلام المسيح عليه السلام : " كما ترك لكم الملوك الحكمة

فاتركوا لهم الدنيا . . . "

أما دعلج بن علي فيقول : (٢)

وكان كالكلب ضراء مكلبه لهيده فعدا يسطاد كلابه

وهذا مأخوذ من المثل القائل : " أنا أجره الدالحراب وهو يجرنى إلى الخراب . "

وأما أبو الجهم أحمد بن يوسف فيقول في محمد بن حماد مستنبطاً كلامه —

الأمثال : (٣)

كان فبان والرزايما قسن بان تسوء من تراخي أجله

فهي كما أرسل حي مثلاً مالك من شنجك إلا عطسه .

وهو غني عن التعليق .

(١) ابن الجراح : الورقة ص ١٥

(٢) الثعالبى : خاص الخاص ص ٢٥

(٣) ابن الجراح : المصدر السابق ص ١٣٢

(٤) - سورة إبراهيم آية (١٧)

٢ - المحسنات اللفظية
=====

لقد بدأ الاهتمام باللفظ وتحسينه منذ مدة لا بأس بها قبل العصر الذي نتناوله بل منذ العصر الجاهلي فما مدرسة زهير بن أبي سلمى إلا اتجاه من تلك الاتجاهات التي تهتم بمقل القصائد وتجويدها أي تهتم بالالفاظ في اطار القصيدة العام ، لكن هذا الاهتمام لم يكن هدفا بعد ذاته وكثيرا ما كانت الصنعة بسيطة ، يأتي أغلبها عفواً خاطر . وإذا تقدنا قليلا في عصور الادب نجد ذلك الاهتمام يتزايد حتى يصبح في النهاية غاية خاصة تولى اشعار لابرازها وحدها دون الاهتمام بضمون تلك الاشعار .

ونجد في العصر العباسي الاول بعض معالم تلك الصنعة تبرز لدى شعراء كصريع الغواني ، مسلم بن الوليد ، وهو مثل واضح على بروزها ثم يتابع المسيرة بعده ابوتام والبحثري ، حتى يتفاقم امرها في عهد الدول المتتابعة .

لكن الذي يهمننا من هذا كله هو ان نبحث عن المحسنات اللفظية عند الشعراء الشعبيين وهل اهتموا بها مثلما فعل الشعراء الرسميون ام لا ؟ الحقيقة انه لا بد ان يكونوا قد اهتموا بها في اطار التأثير والتأثر بين الاتجاهين الرسميين والشعبي ولان كثيرا من الشعراء كانوا يختلفون الى هذين الاتجاهين . لم تكن الصلة معدومة بينهم ابداً وبكفي ان نتذكر ابا العتاهية الذي كان وسطا بين الاتجاهين فلا يجوز اطلاقا ان نحسبه على الاتجاه الرسمي كما لا يجوز ان نحسبه على الاتجاه الشعبي وحده .

وفي هذا المجال فان هناك قصيدة فريدة من نوعها قبل هؤلاء الاعلام جميعا وهي فريدة لانها غريبة فعلا على عصرها حيث نظمها شاعر مخضرم بين الدولتين الاموية والعباسية وهو ابن هرمة القرشي . وهي غريبة لانها تعتبر بحق بداية الصنعة الشكلية ، ان عند فيها ابن هرمة الى عدم اعجابها

كلها بحيث لا يوجد فيها حرف معجم الا تاء التأنيث وهي : (١)

معطل رده الاحوال كالحلـلـلـل	ارسم سودة حل دارس الطلل
رام الصدود وعاد الرد كالمهل	لما رأى اهلها سدوا مطالعها
وليودعاك طوال الدهر للرحل	وعاد ودك داء لادواء لـه
احلها الدهر دارا مآكل الوعل	ما وصل سودة الا وصل صارمة
سهم دعا اهلها للصرم والمـلـل	وعاد امواهبها سدما وطار لها
وحام للورد ردها حوسة العـلـل	صدوا وصد وساء المرء صدهم
ماما رده لعمر الله كالعسل	وحلوه رداها ماؤهنا عسل
لمدعاه رآه طاح الامـلـل	دعا الخنام حماما سد سمعه
ومرع السر سهل ماكد السهل	طوح سارحة حوم ملمعة
والصرح داء لاهل اللوعة الوصل	وحاولوا رد امر لمرء لـه
والله اعطاك اعلى صالح العمل	احلك الله اعلى كل مكرمة
مسود لكرام سادة حمـلـل	سهل موارده سيج مواعده

وبين ان هذه القصيدة لم تأت عفواً لانه الخاطر لان معالم الصنعة فيها واضحة لاتحتاج الى دلالة عليها ان لا يعقل ان تأتي قصيدة بكاملها على هذا النحو عفواً .

ان هذه القصيدة التي قبلت في وقت مبكر بالنسبة لعصرنا العباسي تحاول ان تبين تلك الازدواجية التي كان يحياها الناس بين تراث ما زال ماثلاً وبين نزوع نحو المستقبل الذي يحمل في طياته بوادر التغيير . انها تعبر عن ان العـسـرب بدأوا يخرجون من الاطار الضيق الذي كانت تحدهم به جزيرتهم بالرغم من فساحتها .

وانا سرنا قليلاً في العصر العباسي نجد هذا التيار ، تيار التجديد ، يتضح

(١) الاصبهاني : الاغاني ج ٤ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ (مصورة عن دار الكتب) .

اكثر فأكثر ولا داعي لذكر تلك الامور التي اهتم بها علماء اللغة كثيرا والتي تدل على هذا التجديد في الشعر الرسمي خاصة غير ان هذه الامور لم تأت من عدم ولم تكن غريبة على الشعر العربي كل الغرابة ، فالتشبيه والجناس والطباق وماشابه ذلك كانت موجودة كلها من قبل في الشعر الجاهلي لكنها كانت تأتي عفوا الخاطر كما قلنا . اما في العصر العباسي فقد حدث ان اهتم بها الشعراء اهتماما خاصا وليس ذلك لابرار مقدرتهم فقط بل هو امر فرضته المرحلة التي كانوا يهرون بها .

وقد يتساءل بعض الناس لم حدث ذلك في ذلك العصر بالذات ؟ ربما يسرد على هذا السؤال بان ازدهار المجتمع وتنوع الثقافات هو السبب ، وهذا صحيح غير انه لا يكفي لاننا نجد هذه الظاهرة تستفعل فيما بعد عندما ينحط ذلك المجتمع سياسيا واقتصاديا . ويبدو ان المجتمعات ، في عهد ركودها وانحطاطها تهتم بالشكل اكثر من المضمون وهذا ما حدث فعلا فيما يسمي بعصر الانحطاط . ومن هنا نعرف ذلك الولع بالبحث عن الالفاظ المبتكرة والصور المستحدثة والبراعات اللفوية . ويمكن ان يكون ذلك الولع ناتجا عن تأثر العرب وشعراء ذلك العصر عموما بالزخرفة الفنية الموجودة في انبساط الشعر الفارسي .

اما في العصر العباسي الاول خاصة فان الشعراء اتضح مليا بعد ان كان متشبها بالموروث القديم واصبح خالصا لعصره في الاغلب الاعم فبدأت مفارقة كبيرة هدفها البحث عن معان تلائم هذا العصر وبدأ السعي الحثيث وراء الصور الطريفة التي تدل على حضارتهم الزاهية ومفاهيمها المستجدة ، فقد صار العصر العباسي كما كان العصر الجاهلي من قبل عصر ابتكار في الاساليب الشعرية المختلفة .

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله
من فعل تلج جثته يخيط طلي
فعلته بهراوة كانت معي
ايشق ثوبي ثم يقعد أنا
فيا مضي من سالف الاحقاب
ثوبا فخرقه كفعل مصاب
ضربا فولى هاربا بالباب
كلا ومنزل سورة الاحزاب

ان هذا الاعرابي جاد عليه الزمن فاستطاع ان يحصل على قطعة من الثياب و اراد ان يخيط بها ثوبا لكن الخياط خرقها و افسدها ، و امر كهذا جدير باغضاب الاعرابي لانه من الناس ان يحصل على مثل هذه الامور .
انها صورة الفقر تتكرر مرة اخرى . الفقر الذي يجعل لمثل هذه الاشياء قيمة خاصة في نفوس اصحابها .

وصورة الفقر هذه تتكرر باشكال مختلفة كاختلاف مظاهرها من ذلك ما قاله ابو فرعون الساسي واصفا احد البخلاء ، وللخيل علاقة وطيدة بالفقر : (١)

هذا زمان عارم من ييسه
يصبح من صبيانه وعرسه
ثرى اللثيم ينتهي من جنسه
مستأثرا بخبزه و دبسه

لان سعادة الانسان كانت دائما في ان يجلب القوت لعياله فاذا خالف احد هم هذه القاعدة عد ذلك من اعظم الشائعات .

وكما رأينا من قبل صورة ذلك الخياط الذي افسد ثوب الشاعر فاننا سوف نجد ان الشعراء الشعبيين تناولوا الحرف في شعرهم لالتصاقها بالطبقات المحرومة لان الاغنياء كانوا يعدونها امرا مهينا ، وتناول الشعراء لهذه الصور يتخذ اشكالا مختلفة تدل عليها بالحق وكيف ينظر اليه الشاعر الشعبي وذلك في قول عبدة الاعور لابراهيم بن سيابة الذي كان ابوه حجاجا : (٢)

(١) ابن الجراح : الورقة : ص ٥٧

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٩٣

كم من كمي ادسى ومن بطسل
لم يسر من ناره على وجل
من بين حافله ومتسعل

ابوك اوهى النجاد عاتسه
ياخذ من ماله ومن دسه
ذلت رقاب الملوك خاضعة

ان الشاعر هنا يسخر من الحلاق لكنه يريد ان يدرى، اشارة الى ان الحلاق ملتصق بالناس وان مهنته شعبية بالدرجة الاولى .

ان حياة اولئك البسطاء تزخر بالمشاكل والامال والاعتقادات ولقد استطاع ابو نواس، الشاعر الرسمي، ان ينقل لنا صورة شعبية صادقة وذلك بقوله لاحد الناصم هاجيا : (١)

ياغراب البيبين في الشووم وميزاب الجنابه
ياكبابا بطلاق
ياغزاه بمصابه
يامثالا من هموم
ياتياريح كابه
يارغيفا رده البقال ببسا وصلاب

انها حقا مجموعة من الامور التي تجلب الغم للانسان البسيط فغراب البيبين طائر اعتقد الناس انه مفرق الاحباء وهذا ناتج عن طيرة موروشة عن العصور السابقة وربما كان لشكل الغراب ولونه وصوته دور في هذا الاعتقاد؛ وكذلك ميزاب الجنابه امر يتحسس منه الانسان البسيط الذي يكون الدين عنده عادة قويا، وكذلك كساب الطلاق الذي هو مصيبة عظيمة بالنسبة للمرأة البسيطة في ذلك العصر لانها تفقد بيتا ومعيلان وجودها في بيت ابها سوف يسبب لها المشاكل الكثيرة لكونها فردا غير منتج بل مستهلك فقط . والرغيف كان اكبر مصائبهم على الاطلاق في جميع حالاته .

(١) مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر ص : ١٩١

وهذا يجزنا الى صورة اخرى ذات علاقة بما سبق وهي من صميم الحياة الشعبية واليومية لاولئك الناس ، فقد ذكر الاصمعي انه كان على بعض الاعراب دين ثقيل فتعاق به غراموه وكان معدا ، فساموه ان يحلف لهم بالطلاق الايهرب ، فحلف لهم بطلاق امرأتين كانتا له ، ثم هرب وانشأ يقول : (١)

لو يعلم الغرام ماقتني لهم ما حلفوني بالطلاق العاجل
قدلتا وطلت من وجهيهما عجفاً مرضعة واخرى حاصل

ان هذا الشاعر مطارد من قبل غرامه وحين لم يستطيعوا ان يأخذوا مالهم من عنده حلفوه بالطلاق فصادف ان كان هو ايضا يريد في ذلك ، وبغض النظر عن السخرية الموجودة في هذه القصة التي ذكرها الاصمعي - كعادته - فان الجانب الثاني فيها هو الذي يبهنا وهوتكوين الاسرة في ذلك العصر وتركيبها مع وجود الغرام ، ونحن نشم في هذا الشعر رائحة سياسية وان كانت مغطاة بصفة اجتماعية واقتصادية وهذا ما يجعلنا نستشهد بقول شاعر اخر في وزير : (٢)

ومظهر نسك ما عليه ضميره يحب الهدايا بالرجال مكور
إخال به جينا وبخلا وشيمة تخبر عنه انه لوزير

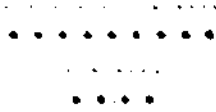
وهذا القول تعبير عن رأي الناس في الاوضاع السياسية والاقتصادية في ذلك الوقت فهو يرى مع الناس ان حكام ذلك العصر جشعون مرتاشون ، يتلاعبون بارواح الناس زيادة على تخليهم الفاحش وجبنهم المشين . وفوق هذا كله كانوا يحاولون الظهور بمظهر النساك امام الناس لكن سيماهم على وجوههم فهم اينما ذهبوا تخبر عنهم انهم حكام .

١ - الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ج ٢ ص ٤٨٥

٢) ابن طيفور : بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ص ٨٧ مطبعة مكتبة المتنبي

ببغداد ومكتبة المعارف ببيروت طبعة اولى ١٩٦٨ م

وخلصة القول ان الصور التي استعملها اولئك الشعراء الشعبيون
في شعرهم كانت ستمدة من واقعهم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وهي كثيرة
جدا ولذا نكتفي بما ذكرنا .



٤- المبالغة
=====

كانت المبالغة مظهرا من المظاهر المستمرة في الشعر العربي على امتداد عصوره لانها خاصية من خصائص الشعر وهي مقبولة في الشعر وغير مقبولة في سواه من الامور . ان المبالغة وليدة الخيال والشعر يحتاج الى الخيال دائما ولذا كانت المبالغة مرتبطة بالشعر فهي اذاً نوع من الصنعة فيه لا تأتي عفوية الا نادرا لانها تحتاج الى اعمال للفكر الذي يفوض وراء المعاني ويجزى خلفها ليكشف عنها الغطاء ايضا كانت . ان المبالغة مرتبطة ايضا بالصورة الشعرية بل لانكار نجد المبالغة الا مع الصورة الشعرية .

انها وسهلة من الوسائل التي يلجأ اليها الشاعر ليوثر في مستمعيه واهتمري انتباه المتلقي ويشده اليه فيتذوقها اولا لماعياها من خروج على ما ألف في حياته اليومية ويتأثر بها ثانيا . قلنا ان دور الخيال في المبالغة واضح جدا لكنها يجب الاتصال الى حد الاغراب الذي تندثر معه المعاني المطلوب ايصالها .

وقد لجأ شعراءنا الشعبيون الى هذه الوسيلة، والامثلة على ذلك كثيرة جدا نذكر منها ان احدهم تهكم على شخص فقير فرثاه برثائه الحال قائلا : (١)

يأتيك في جبة مخرقة	اطول اعمار مثلها يوم
وطيلسان كالآل يلبسه	على قميص كأنه غيـم

المبالغة هنا واضحة جدا وهي لا يشترط فيها ان تكون مطابقة للواقع والا لما سميت بالمبالغة . انها صورة جذابة فيها تشبيهات موفقة تجعل الانسان المستمع يرق الى عوالم يتععدم فيها المنطق ويزدهر فيها الخيال لان المهم فيها هو

(١) المبرد : الكامل في اللغة والادب، طبع مكتبة المعارف ببيروت تاريخ ا ج ٢ ص ١١٥

التأثير الفني الذي لا يحتاج التحليلات منطوية وتبريرات علمية لانها موجهة
بالدرجة الاولى الى الذوق .

ويقول ابو الشقق في زيد بن عمارة ، صاحب بريد الاهواز ، والذي كان اعرج
وكانت ساقه شديدة الاعوجاج : (١)

رجل زيد بن عمارة مثل مفتاح مناره

ان هذا البيت يذكرنا بما قلناه سابقا من ان الشاعر الشعبي محكوم عليه ان يستلهم
فته من محيطه اى من حياة الجماهير التي هوفرد منها ، ولذا فان المبالغات
التي يلجأ اليها هو "الاشعراء" مهما بلغت من الغرابة فانها ستبقى دائمة
مرتبطة بالجماهير فزيد بن عمارة هذا الذي يشبه ابو الشقق ساقه بمفتاح
منارة لم يعد وضعه غريبا اذا ما عرفنا قيمة المنارة بالنسبة للمسلمين فهي مرتبطة
اولا بهذا المكان المقدس الذي هو المسجد وهي ايضا تمثل عظمة المسجد من
حيث بناؤه فهو عادة بناء كبير شاهق واعلى مافيه المنارة وهذه المنارة التي تبلغ ارتفاع
هذا العلو كله لا بد لها من مفتاح عظيم والمفتاح عادة محذب ذو اسنان وهكذا
تهدو رجل زيد بن عمارة للشاعر .

ويقول جحظة البرمكي في احد البخلاء : (٢)

لا تمدلوني ان هجرت طعامه خوفا على نفسي من المأكل
فحتى اكلت قتلته من بخلسته ومتى قتلته قتلته بالمقتول

انها حقا مبالغة جميلة وظريرة ، وهذا النوع هو الذي اشتهر به الشعراء الشعبيون
عوما لانه يحمل طابع النكتة البسيطة التي تضحك لها الجماهير ولانها تحمل فوق
هذا كله محتوى وضمونا قريبا من هومئهم وشاكلهم .

(١) الجاحظ : البرصان والعميان والعرجان والحولان ص ٢٢١

تحقيق فوزى عطوى - دار صعب بيروت ١٩٦٨

(٢) سعد شلبي : الشعراء العباسي ، التيارات الشعبي ص ٥٤

انها صورة البخل تتكرر باشكال عديدة اولنقل انها صورة الفقر وماقاربه من امسور
اوتتج عنه . وانها فعلا لملاحظة جديدة بالذكر ان الشعراء الشعبيين يبدعون
كلما عاجوا القضايا الاقتصادية التي يعانون منها .

وبالمقارنة بهذه المبالغة الجميلة فاننا نلاحظ السخف الذي وقع فيه
الشعراء الرسميون والشعراء عندما يتناولون موضوعا رسميا مثل قول الهنازي عندما مدح
احد الخلفاء قائلا (١) :

ان السيوف اذا أقتضاها سخطه طالت وقصرت دونها الاعمار
ملك كأن الموت يتبع امسره حتى يقال : تطيمه الاقدار

لا احد يستطيع ان ينكر البراعة الفنية في هذا القول الا ان الذوق ينج مثل هذه
الامور لانها تعتمد على التعليقات المنطقية والعقلية وهذا يفسد من لنية الشعراء
وهنا نجد اشارة الى ان هناك فرقا بين المبالغة والمغالاة او الغلو فهذا القول
الاخير واضح فيه الغلو والاصطناع لان الشاعر لم يكن صادقا مع نفسه في قوله هذا .
وبقي ان نقول ان هذا الكلام يذكرنا بقرعة ابن هاني * الابدلسي حين قال :

ماشئت لاما شاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار

والتأثر بهنازي واضح في هذا القول .

(١) الطهرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٩٩

هـ - الصدق في التمييز

=====

ان الواقعية في شعر اولئك الشعراء تتمثل في مجموعة من الاورثتها وصفهم لما يحيط بهم من مشاكل وهموم وظواهر وغيرها ومنها ذلك الصدق الذي نلمسه في شعرهم حيث لا مكان فيه لنفاق او تدليس او تزلف . ولعلنا نذكر انهم حتى عندما اضطرتهم الحاجة الى التمول ومد الايدي ، وذلك بمدح الاغنياء ، لم ينحرفوا ابدا عن صدق مشاعرهم .

ويمكن ان ندرك صدقهم جليا من الامثلة التي سنذكرها فيما يلي فسي وصف احوالهم من حب وفراق ووصف للفقر ومدح وهجاء ورثاء الخ

يقول عبد الصمد بن المعذل في حبيب هجره : (١)

صرفت هواك فانصرفا	ولم ترع الذي سلغنا
وبنت فلم امت كلفنا	عليك ولم تمت اسفنا
كلانا واجد في النبا	س من مله خلفنا

لقد نالت عاطفة الحب عند شعراء العرب حظوة كبيرة سواء اكانوا شعبيين ام رسميين حتى غدا الحديث عنها يتبع تقاليد معينة ورثوها عن عصرنا من عصرنا لكننا من النادر ان نجد شاعرا في مثل صراحة عبد الصمد الذي خالف ذلك العسرف وذكر ما كان غيره من الشعراء يترددون في ذكره وان الناس ، لكونهم سبب كسسل الادواغفهم ايضا الدواء لها .

وانا انتقلنا الى نقض هذه العاطفة ، الى الكره فان شاعرا كعبد بن ابي امية كان يعقت الرقاشي ويغضه فصدف ان اجتمع الرجلان في مجلس واحد

فقال محمد : (٢)

(١) عبد الصمد بن المعذل : شعره ص ٤٤

(٢) الجاحظ : البيان والتهيين جزء ١ ص ٤٠٤

شهدت الرقاشي في مجلس
وقان الي بفيضا مقيتا
فقال : اقترح يا ابا جعفر
فقلت : اقترحت عليك السكوتا

اذا انهم لا يذرون شيئا في صدقهم لانهم اشتهروا بتلك الصراحة المعهودة فيهم
حتى وان تجاوزوا احيانا حد اللياقة والادب . انهم يطبقون المثل القائل : قل
الحق ولو كان مرا .

اما اذا انتقلنا الى لغز الالغاز ، الموت ، فاننا نجد شاعرا كابن يسير يبرني صديقه
داود بمالي : (١)

ثوب الدجى فهو في الارض سدود	زل والارض قد غشى وحللها
وكل فرج به في الارض مسدود	وسد كل فروج الارض منطبقا
دون المسير وباب الدار موصود	وفي الوداع وفي الابداع لي عنت
من لي بدادود في ذا الحال يرشدني	من لي بدادود في ذا الحال يرشدني
قدام رجلي فتلقاها الجلاميد	لهفي على رجله الاقدمها
حرف وجرف ودكان واخودود	ان لازلت ان اقبلت ينكنسي
اونكته من سواد الليل اوغود	فان تكن شوكة كانت تحل به

لا احد يستطيع ان ينكر العاطفة الجياشة التي ولدت هذه القصيدة ولا احد
يستطيع ان يقول ان هذا الشاعر كان محتضنا لان الحرارة المنبعثة منها تنفسي
ذلك وتؤكد ان الشاعر كان يتألم لفقد صديقه داود .

فأي صراحة وأي صدق بعد هذا القول نريد ؟ ان ابن يسير يكنسي
داود بخدمته لانه كان في حياته رادا عنه العصاب وحاميه من عشرات الطريق،
فالشاعر كان سكيما يقضي في الخانات وقتا طويلا حتى يتأخر الليل فلم يكن يجسد
من يسنده او يده الا داود هذا على ان يتقدم داود ليجنب ابن يسير الحفر والصخور

(١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٤ ص ٢٩-٣٠ (مصورة عن دار الكتب)

وماشابه ذلك . نلاحظ ان الشاعر لم يخجل ساكان يفعل بصديقه فهو يرى في ذلك نوعا من ضريبة الصداقة وعلى هذا الاساس فان الخجل يكون حين يقوم المرء بعمل ما ثم يذكر عكسه ولهذا كان لابي المخفف ، عاذرين شاكر ، دفتر يسجل فيه اسم كل من له عليه وظيفة ، وكان على الدفتر هذه الابيات : (١)

دفتر فيه اسامي كل قرم وهمام
وكريم يظهر البشر لنا عند السلام
يوجب النصف عليه حاتا في كل عام
او فلوسا كل شهر لثلاثين تمام

وهذا الدفتر يعكس موقف الشاعر من الناس وموقفهم منه بدون حرج فهو يذكر علاقاته بهم بكل وضوح فان اكرموه مدحهم وان خذلوه هجاهم .

ويتجلى صدقهم هذا ايضا في انهم كانوا يصفون حياتهم كما هي بخيرها وبشرها ، ولم يكونوا يظهرين من حياتهم ذلك الجانب المشرق فقط ، بل انهم كانوا ايضا يذكرون في شعرهم حتى تلك الجوانب السيئة فيهم فمن ذلك قول احسب الطفيليين : (٢)

كل يوم ادور في عرصة الحي اشم القطار شم الذباب
فاذا مارأيت اثار عرس اوختان او مجمع الاصحاب
لم اروع دون التعم لار هب دفعا ولا لكزة البواب
مستهيئا بما هجت عليه غير مستأذن ولا هباب
فتراني الف بالرغم منهم كل ما قدموه لف العقاب
ذاك ادنى الي من التكلف والغرم وغيظ البقال والقصاب

(١) ابن الجراح : الورقة ص ١٢٤

(٢) الشريف المرتضى : امالي المرتضى ج ١ ص ٥٠١

ان هذا الشاعر يصف اقتحامه ابواب الناس دون عجل او مواراة لان الفقر دفع به الى ذلك ، والفقر ليس عيبا عنده .

كان الشاعر الشعبي يحمر ان وضعه التعسر لم يكن شيئا مختارا بل ان ظروفه معينة هي التي فرضت عليه ذلك الوضع ولذا فانه لم يكن يتخرج من التعبير عن نفسه بمختلف الوسائل فمن ذلك قول جحظة الهرمكي يصف فقره : (١)

والاعلى باب منزلي حاجب	الحمد لله ليس لي كاتب
ركوبه قيل : جحظة راكب	ولا حمار اذا عزمت على
مخافة من قميصي اذا هب	ولا قميص يكون لي بدلا
اجفان عيني بالوابل الساكب	واجرة الميت فهي مقرحة
بيع الكتاب لشبعة الصاحب	ان زارني صاحب عزمت على

وبالرغم من فداحة واقع جحظة فاننا نلاحظ صدقه وصراحته في وصف حاله بيد ان بعض الناس كان ربما استحي لوشابه وضعه هذا الشاعر .

ان الشاعر الشعبي يتجلى صدقه ايضا في حبه للناس والخير ، ولذا نجده يركز كذلك على العلاقات الانسانية الشريفة كالقرايعة والمخبة والصدائقة وغيرها ويعرض بكل ما يخالفها فيقوم بهجوم عنيف على كل من اساء الى هذه العلاقات الحميمة كالذي يتنكر للصدائقة مثلا ، فهذا محمد بن حازم الباهلي يقول فسي شخص كان يظنه صديقه : (٢)

وفى الملوك من المحال	وصلى الملوك الى التعالي
----------------------	-------------------------

(١) سعد شلبي : الشعر العباسي ص ٢٢١

(٢) الاصفهاني : الاغانى ج ١٤ ص ١٠٥ (مصورة عن دار الكتب)

مالي رأيتك لاتدرو م على المودة للرجال
ان كان ذاك ارب وظر ف قلت ذاك اخوضلال
او كان ذاك ودين قلت ذاك من الثقبــال
او كان في وسط من الامرين قلت يريغ مالــي
فبمثل ذاــك شكلك امكــة تبتغي رتب المعالــي ؟

وكان هذا الصديق قد نال مرتبة عند السلطان فتغير وتنكر لمعارفه القديمة
وجفا اصدقاءه ايام الشدة فما كان من ابن حازم الا ان يذكره ان الملوك لاتدوم
على حال وان وفاقها محال . ان ابن حازم في هذه الابيات ، زيادة على اعطاء
رأيه في هذا النوع المتقلب من الرجال ، فانه يبدى رأيه في السلطة التمثيلية
في الملوك ورأيه هذا ناتج عن تجربة عاشها او سمع عنها بمر الاجيال السابقة .
وهنا تجدر الاشارة الى ان الشعراء الشعبيين عموما كانوا يبدون آراءهم في مثل هذه
الامور بكل صراحة وبشجاعة نادرة ، فاننا نجدهم باستمرار يتصدون للسلطان وينتقدونه
دون خوف من قوته وجبروته وكل ذلك لانهم كانوا صادقين مع انفسهم اولاً . اننا
نجدهم في اغلب الاحيان يتخذون مواقف واضحة من السلطة فيتصدون لها بكل
الوسائل لمحاربتها او لمقاطعتها ومن ذلك قول اسماعيل بن عمار عندما عرض عليه
ان يعمل للسلطان : (١)

رأيت صبيحة النهروز امرا فظيما عن امارتهم نهاني
فرت من العمالة بعد يحيى وبعد النهشلي ابي ابيان
وبعد الزورين ابي كتيــر وفيقداشجع وابي بطيان
فحاب بها ابا عثمان غيري فماشان الامارة لي بشأن
احاذر ان اقصر في خراجي الى النهروز او في المهرجان

ان ابن عمار هذا يرفض ان يعمل عند السلطان لان هو "لا" العمال محكوم عليهم اما بقهر الجماهير للحصول على الاموال ارضاء للسلطان او السجن في احسن الاحوال ان لم نقل القتل في اغلب الاحيان .

ويعد فان المجال لا يسمح بذكر كل الشواهد عن صدقهم ولذا نكتفي
بما ذكرنا حتى الان .

.....

هد - بناء القصيدة

=====

ان قصيدة الشعر العربي مرت بمراحل عديدة الى ان وصلت الى ما هبني عليه الان ، وكان لابد لها ان تتطور حسب العصر الذي تجنازه . فكانت في العصر الجاهلي تمثل تجربة حياة كاملة تتكرر باستمرار في مناخ متشابه . كان الشاعر الجاهلي في اغلب الاحيان يصب كل همومه في قصيدته وكأنه يخشى ان تغيبه الايام فجأة لان الطبيعة المحيطة به غير آمنة الجانب فهو معرض للهلاك في اى وقت اما بفارة او جرب وما شابه ذلك .

كان عادة يصف الاطلال في البداية وذلك ان القبائل كانت ترحل من حين الى اخر بحثا عن العشب ويكون الانسان قد الفمكنا ما وكون فيه علاقات ممتدة فيتعلق بذلك المكان فاذا ما ارتحل ترك ذلك في قلبه حزنا وكندا . بما ان الشاعر كثير التطواف ، فكثيرا ما يصادف ان يمر على مكان كان له فيه شان فيطفو حنينه ومن هنا جاء وصف الاطلال . ثم يصف الشاعر رحلته وراحلته معا بشيء من الاسباب لان السفر في حياته جزء هام بل انه كان اغلب حياته مسافرا متنقلا . وكثرة السفر هذه تجعله يكون علاقة حميمة مع راحلته ، علاقة صداقة والفة تكونت مع الايام ثم يمدح او يهجو الخ . . . ان القصيدة الجاهلية لم تكن مفككة كما يظن البعض وانها تتكون من اجزاء عديدة لا يربطها رابط بل ان تلك القصيدة كل متكاملة لان الشاعر صب فيها حياته كلها .

ان الذى يوحد تلك القصيدة ليس الموضوع الواحد بل ان حياة الشاعر هي التي توحدتها وتعطيها قيمتها الفنية .

ولم تتغير الامور كثيرا في العصر الاموي مع نزوع طفيف الى التحرر من تلك الطريقة الموروثة عن العصر الجاهلي . اما في العصر العباسي الاول فتبعا لمجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع فان الامور اكتست طابعا جديدا شمل

جميع ما كان موجودا من قبل، ولم تنج القصيدة الشعرية من قدرها المحتوم، فكما رأينا من قبل التفسير الذي حدث في الاوزان والقوافي والاعراض والموضوعات فان ذلك كان لابد ان ينعكس على البناء العام للقصيدة .

كان الانسان من قبل يعيش في اطار القبيلة الذي يضمن نوعا من الوحدة اما في العصر العباسي فان هذا الانسان وجد نفسه في مجتمع تغيرت هيكله كلها فصار وحيدا غريبا بين الناس . ان هذا التجزؤ في الحياة فرض عليه ان يجزىء همومه وان يتصدى لها واحدا فواحدا .

ويجد ربنا قبل ان نمطي سمات القصيدة العباسية ان نستمع الى محمد بن حازم الباهلي وهو يقول حين عاتبه يحيى بن اكر على تقصيره الشعر: (١)

ابى لي ان اطيل الشعر قصدي	الى المعنى وعلمي بالصواب
واجازى بمختصر قريب	حذفت به الفضول من الجواب
وابعشهن اربعا وست	مشقة بالفاظ عذاب
وهن اذا وسمت بهن قوما	كأطواق الحمام في الركاب
وهن ، وان اقمت ، مسافرات	تهادها الرواة مع الركاب

ان اول ظاهرة نلاحظها اذا هي قصر القصائد ونسجها بالمقطوعات والسبب في ذلك ان الحياة لم تعد تسمح بتلك المطولات كما كانت الحال من قبل . ان وثيرة التطور اصبحت سريعة ولا بد ان يواجهها نهض سريع في القصائد فنتج عن ذلك هذا النوع الذي سيمناه المقطوعات التي تتكون من مجموعة قليلة من الابيات تدور كلها حول موضوع واحد فقط في اغلب الاحيان . ان الشاعر اصبح ينظر الى الامور نظرة تحليلية بعد ان كان ينظر اليها نظرة كلية . ولا يخفى ما في هذه المقطوعات

(١) القفطي : المحمدون من الشعراء ج ١ ص ٢٨٠ تصحيح محمد عبدالستار ، طبع

مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدرآباد - الهند طبعة اولى ١٩٦٦

من دقة وايجاز لان الشاعر يحصر همه كله في موضوع واحد، ثم ان عقلية المستمع
ايضا تغيرت فهو لم يعد يملك الوقت الكافي لينفقه في الاستماع الى الشعر وهـذا
ما يذكرنا بالاراجيز التي كانت تقال اثناء الحروب في العصر الجاهلي او اثناء المبارزة
فحين لم يكن المقام يسمح بتضييع الوقت فقد كان الشاعر المعادل يرتجز بيتين او ثلاثة
لاغير ثم يهجم على خصمه .

اذاً هذه هي اهم سمة في القصيدة العباسية الشعبية لان التيار الرسمي
استمر على الطريقة القديمة بكل تفاصيلها .

واما ثاني الصفات فهي تبعا للاولى وحدة الموضوع المطروح في القصيدة الشعبية
وهي صفة نجدها حتى في بعض القصائد الطوال مثل قصيدة بفسلة ابي دلامة
او عنزة ابي محمد القاسم بن يوسف او هرتة اوسراج ابي الشبل البرجمي ، وهي
كلها قصائد طويلة تصل احيانا الى الخمسين بيتا .

واخيرا فان القصيدة الشعبية اصبحت تحمل دائما مشكلة حياتية يومية
في اغلب الاحيان نظرا لما لتلك المشاكل من تأثير على نفسيات الشعراء .
على ان هناك سمة اخرى كنا قد اشرنا اليها من قبل الا وهي تلك الموضـة
التي ظهرت في العصر العباسي الاول ونعني بها محاربة الاساليب القديمة
وخاصة الوقوف على الاطلال الذي هو عنصر هام في بناء القصيدة القديمة . وقد
وجدنا هذه الظاهرة عند عدة شعراء من ذلك العصر ويبدو ان هذه الظاهرة قد
صارت موضـة وضربا من التطرف يحاول الشاعر ان يتفرد به بابتكار معين . لم نلمس
في تلك المقطوعات والقصائد اية خلفية سياسية كما يظن البعض اى ان محاربة
النمط العربي للقصيدة لم يكن في حد ذاته محاربة للعرب انفسهم وخطا من شأنهم ،
ولكننا لانفي ان هذه الظاهرة ربما كانت في البداية مرتبطة بالظروف السياسية .
ولم تكن هذه الظاهرة مقتصرة على محاربة النمط العربي القديم للقصيدة وحده بل
ان المحاربة كانت لضمون تلك القصائد نفسها بدليل ان بعضهم حارب اسلوب

ابى نواس الذى جعل الخمره مطلقا لقصائده ونقصد به ابا المخفف عازر بن شاكر
الذى وقف شعره كله على وصف الرغيف . (١) وهكذا نرى ان الشعراء اصبحوا
في ذلك العصر يفتشون عن موضوع معين ثم يركزون عليه وكأنه نوع من التخصص كما
فعل اساعيل بن ابراهيم الحمدوني الذى وصف طيلسان ابن حرب بمقطوعات
عديدة او ابو غلاله الذى نظم قصائد عديدة في حمار طياب . (٢)

ونلاحظ كذلك ان هذا التطرف كان نتيجة صراع بين الشعرين الرسميين
والشعبي ، فالرسمي ظل متمسكا بالطرق والاساليب القديمة بينما راح الشعراء
الشعبي يبتكر الموضوعات والاشكال تحشيا مع بيئته الجديدة . وكانت الموضوعات
التي استبدلوا بها الاطلال كثيرة جدا منها ان منهم من وصف الدفتر او القرطاس
او الهرة الخ كل هذا كان استعاضة عن وصف الاطلال بأشياء لها قيمة
في حياتهم كما كان للاطلال قيمة في حياة الشعراء الجاهليين . وهذا امر طبيعي
لان الغريب هو ان لا يفعلوا ذلك نظرا لاختلاف عصرهم عن سبقهم .

(١) انظر ص ٨٢ - ٨٣ من هذا البحث

(٢) انظر ايضا ص ١٠٦ وما بعدها من هذا البحث .

الفصل الثالث

=====

مواقف شعراء الاتجاه الشعبي :

=====

١- الموقف الساخر (اللامبالسي)

٢- الموقف الحمادي (الزاهد)

٣- الموقف المتمرد (الثائر)

xxxxxxxx

xxxx

مواقف الاتجاه الشعبي :

=====

نقصد بالموقف ذلك السلوك العام الذي التزمه الشاعر في حياته والذي ينعكس بالضرورة على شعره ، وهذا الموقف يأتي طبيعا نتيجة مكونات ذلك الشاعر — العلم ان كل شخص فريد من نوعه ضمن حدود معينة ان يستحيل ان نجسد شخصين متشابهين في كل شي الا ان هذا لا ينفي وجود سميات تجمع البشر في جماعات معينة .

ومن هنا فاننا نقسم الشعراء الشعبيين في العصر العباسي الى ثلاثة اقسام اولها زمر انطلاقا من شعرهم الذي وصل الينا . ففي الزمرة الاولى الشعراء اللامبالون او الذين يظهرون بهذه الصفة ، واللامبالاة تتخذ اشكالا عديدة منها السخرية التي يمكن ان نضع فيها مجموعة من الشعراء كابي فرعون الساسي وابي الشفق وابي الينهي وابي المخفف عاذر بن شاكر وأساعيل بن ابراهيم الحمدوني وغيرهم كثير . وسوف نأخذ لهم مثلا ابا دلامة .

اما الزمرة الثانية فهم الشعراء الثائرون المتمردون الذين لم يكتفوا بالكلام بل رفعوا السلاح في وجه مضطهدهم مثل دعبل الخزاعي وابي عطاء السندی وشعراء الشيعة كلهم وشعراء الخوارج كلهم . والثورة لدى هؤلاء الشعراء اتخذت ايضا اشكالا عديدة انطلاقا من الصنادي التي دفعت بهم الى سلوك هذا الامر ، فمنهم من انطلق من خلفية حزبية سياسية كدعبل مثلا ومنهم من كان الوضع الاجتماعي ككل دافعه الاول كابي العطاء السندی الذي سوف نتخذه مثلا لهذه الزمرة .

اما الزمرة الثالثة فهم شعراء الزهد الذين كانوا ينادون بسلوك معين فطبقوه اولاً على انفسهم حتى يكونوا مثالا لغيرهم من الناس الا ان الزهد قد اتخذ

هو الآخر شكلين ظاهرين : واحد ايجابي والثاني سلبي ، ويمكن ان نمثل للايجابي
بعبد الله بن المبارك الذي كان يخرج الى الشفور غازيا وكان يقوم بالتجارة ايضا
دون ان يؤثر ذلك على زهده . واما الزهد السلبي فاعلامه كثر منهم محمد بن
حازم الباهلي وابو العتاهية و فهرهما . وسوف نمثل لهذا النوع بمحمد بن
حازم الباهلي .

ولكن قبل ان نتعرض لهؤلاء الشعراء لابد من توضيح بعض الامور التي قد تشيـر
اللبس حول هذه المواقف :

اولا : من الصعب علينا ان نجد شخصا يسلك السلوك نفسه منذ البداية
حتى النهاية وهذا يعني اننا لن نجد موقفا خالصا مئة بالمئة ، فمن صفة الانسان
التغير حسب الظروف المحيطة به وليس في هذا الامر اى عيب .

ثانيا : نحن لانقصد بالموقف نموذج اديبا معين لان هناك فرقا في نظرنا
بينهما ، فالموقف هي " متغير والنموذج شيء ثابت ، والموقف هو الذى يتماشى فـي
نظرنا مع الادب لانه مظهر من مظاهر الحياة المتغيرة .

.....

١- الموقف الساخر: (اللبالي) :

ابودلامة زند بن الجسون -

ان الضحك من صفات الانسان المميزة وهوياتي لاسباب عديدة وفي ظروف عديدة ، لكن هذا الضحك يكسب قيمة اضافية عندما يستفله شاعر ما ليجعل منه وسيلة يقنات بها ويعمل بها ذويه ، فيتخذ به موقفا متميزا عن غيره من الشعراء بحيث يصبح الضحك ، وبالتالي الاضحاك ، هادفا وليس مادي كما هي الحال في الظروف العادية .

ان ابودلامة هو ذلك الانسان الذي استطاع ان يجعل من الضحك وسيلة يتكسب بها ، فمن هو هذا الرجل ؟ تجمع المصادر على ان اسمه زند بن الجسون (بالنون) (١) ماعدا اليافعي الذي ذكرانه زيد (بالياء) (٢) ويبدو انه تصحيف وقع فيه الكاتب . اما كنيته ابودلامة فلا خلاف حولها .

ولد ابودلامة في اسرة فقيرة لاتحدثنا المصادر عنها الا انها تذكر كونها تدين بالولاء لبني اسد فتختلف في اسم مولى هذه الاسرة ، فالخطيب وابن خلكان يسميانه قضاقص (٣) (بالقاف والصاد) بينما يسميه الاصفهاني قضاقص (بالفاء والصاد) (٤) . وهو اختلاف طفيف وربما كان تصحيفا من احد الطرفين . واختلفوا ايضا في العصر

(١) الاصفهاني: الاغاني ٢٣٥/١٠ (مصوره عن دار الكتب) وابن خلكان : وفيات

الاعيان ٣٢٠/٢ ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر بيروت ، وياقوت

الحموي : معجم الادباء ١٦٥/١١ ، طبع دار المأمون .

(٢) اليافعي : مرآة الجنان ٣٤١/١

(٣) وفيات الاعيان لابن خلكان ٣٢٠/٢

(٤) الاصفهاني: الاغاني : ٢٣٥/١٠ (مصورة عن دار الكتب) .

الذي عاش فيه قصاص وفضاض هذا ، فالاصفهاني يذكر ان هذا الرجل اسلم وكان من الصحابة وكان شاعرا فاعتق والد ابي دلامة . (١)

اما الخطيب البغدادي فيذكر ان هذا الرجل كان مولى ابي دلامة مباشرة وان اباد دلامة كان عبدا فاعتقه ، وان الشاعر لم ينس هذا الجميل بدليل انه لما التحق بالخليفة ابي جعفر المنصور كلمه فيه فاجابه وصيره من صحابته اي من صحابة ابي جعفر (٢) .

وتجمع المصادر انه كان اسود من اصل حبشي وانه كان اعرابيا ، التحق بالكوفة كعادة اعراب ذلك الوقت اذ كانوا يذهبون الى المدن الكبيرة اما مادحين لوجهائهم واما لتسويق اغلالهم ومواشيهم وشرا ما ينفعهم منها . وربما يكون الشاعر قد عاش فيها مدة طويلة او ولد بضواحيها لان الاصفهاني وياقوتنا ينسبانه اليها (٣) .

وشاعر كابي دلامة لابد ان يكتنف الغموض ولادته فزيادة على عادة المصادر القديمة التي لم تكن تهتم بولادة الشعراء فكونه اسود واعرابيا جعل المؤلفين لا يهتمون به الا بعد اشتهار امره . ان بخل المصادر بهذه المعلومات ليس خاصا بأبي دلامة فاعلم الشعراء لانعرف سنة ولادتهم ولهذا سبب وجيه وهو ان المؤرخين والمشتغلين بمثل هذه الامور لم يكونوا يهتمون بأجدد الا بعد نبوغه او بروز شأنه كأن يكون شاعرا وكاتبنا اوقائدا او ماشاهم ذلك ، ونجدهم في الغالب يذكرون سنة الوفاة فقط .

لكن من المؤكد ان ابا دلامة ولد في العصر الاموي ، فقد اتفق ياقوت والاصفهانسي وابن خلكان على انه ادرك آخر ايام بني امية وانه لم يكن له شأن انذاك (٤)

(١) الاصفهاني الاغانى : ج ١ / ص ٢٣٥ (صورة من دار الكتب)

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٨ / ص ٤٨٩

(٣) الاصفهاني الاغانى : ج ١٠ / ص ٢٣٥ وياقوت : معجم الادباء ١١ / ١٦٥ - ١٦٦

(٤) الاصفهاني الاغانى : ج ١٠ / ص ٢٣٥ وابن خلكان : وفيات الاعيان ٢ / ٣٢٠

وياقوت : معجم الادباء ١١ / ١٦٥ - ١٦٦

اما وفاته فقد كان سنة (١٦١ هـ) امام الخليفة المهدي الا ان الخطيب
البغدادي يذكر انه ربما ادرك خلافة الرشيد وان كان لا يجزم بهذا الرأي (١) .
لقد عاصر ابو دلامة ثلاثة خلفاء عباسيين هم السفاح والمنصور والمهدي
وكان من صحابتهم ، منقطعاً اليهم وكانوا * يقدمونه ويفضلونه ويستطيرون ثوابه * . (٢)

وبعد هذه النبهة القصيرة فاننا سوف نحاول فيما يلي ان نعرف ماهي الاسباب
التي دفعت ابا دلامة الى ان يصبح مضحكا للخلفاء . ان المصادر القديمة
لاتشير ابدا الى ذلك فهي تكفي بوصفه انه صاحب نادرة فقط ، بحيث لاتدلنا على
اي عنصر اخر يمكن ان ننطلق منه ، ولهذا لم يبق امامنا الا شعره الذي نحاول ان
نستشف منه شخصيته .

وهناك سؤال ملح يطرح نفسه علينا وهو : هل كان ابو دلامة ضاحكاً
ساخرًا من كل شيء ؟ فعلا ام انه كان مضحكا فقط ؟ وبعبارة اخرى هل كان الضحك
من سجايه ام انه اتخذ هذه الطريقة وسيلة للكسب ؟ ليس في حياة ابي دلامة
ما يشير الى انه من النوع الاول ، فهو اسود حبشي واعرابي فقير لا يملك شيئا ولا نظن
ان شخصا في ظروفه هذه يجرد وقتا للضحك . وهكذا لم يبق امامنا الا الشيق
الثاني من السوال الانف الذكر اي ان ابا دلامة اتخذ من الضحك وسيلة يتكسب
بها . لقد نظر الرجل من حوله فوجد نفسه فقيرا وصاحب عيال لابد من
تغذيتهم وتوفير القوت لهم ووجد ان الشعراء الاخرين قد سبقوه الى جميع الوسائل
من مدح وهجاء وتكسب بمختلف الطرق .

فكر الرجل في حيلة يدخل بها الى قصر الخلافة او عبارة ادق يصل بها الى
مال الاغنياء من زوى السلطان ، فما وجد امامه الا هذا المنهج الذي نحاول

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٨ / ٤٨٨ - ٤٨٩

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢ / ٣٢٠

ان يوهنا به وان يوهم نفسه ومعاصره بانه منهج طبيعي . اراد ان يبدو امام
الناس جميعا بانه يسخر من كل ما في الحياة ، وراح يتحدى في هذا التظاهر بمختلف
الوسائل حتى انه كان احبانا يظهر بمظهر الابله ومن ذلك ايضا انه كان يتظاهر
بالسخرية من تعاليم الدين فمن ذلك ان السفاح امره بلزوم مسجده الذي كان
يصلى فيه ، فقال ابو دلامة : (١)

الم تعلموا ان الخليفة لذي	بمسجده والقصر مالي وللقصر
اصلي به الاولى مع العصر آيسا	قولي من الاولى وويلي من العصر
ويحييني عن مجلس استلذته	اعل نفسي بالسمع وبالخمر
ووالله مالي نية في صلاته	ولا البر والاحسان والخير من امري
وماضره والله يصلح امره	لو ان ذنوب العالمين على ظهري

ويقول مرة اخرى موجهها كلامه الى المهدي : (٢)

ادعوك بالرحم التي جمعت لنا	في القرب بين قريتنا والابعد
الاسمت وانت اكرم من مشي	من منشد يرجو جزاء المنشد
حل الصيام فضته شعبدا	ارجو ثواب الصائم المتعبدا
وسجدت حتى جبهتي مشجوجة	ما اكلف من نطاح السجدا

صحيح ان اباد لامة كان يعرف سبعا ان هؤلاء الخلفاء سوف يتفاضون عما يقول
بدليل انه لم يصبه من قوله هذا اي مكروه او ضرر الا ان هذا لا يفي انه يتحدى

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٦١ وجمع الجواهر للحصري ١١٢ - ١١٣

ووفيات الاعيان ٣٢٢/٢ وتاريخ بغداد ٤٩١/٨

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٨٣/٨ - ١٨٤

في تمثيل دور اللامبالاة الذي اشرنا اليه من قبل . ويتضح من هذا الكلام ان ابا دلامة كان دائما يظهر عكس ما يريد حتى يعين في الغربة ، لكن هناك اشارة في المقطعة الثانية لابد من التنبه اليها وهي ماجاء في البيت الاول (١)

ادعوك بالرحم التي جمعت لنا في القرب بين قريتنا والابعد
تقول الرواية ان الخليفة غضب لدى سماعه هذا البيت وسأله عن نوع القربة هذا فما كان من ابي دلامة الا انه قال ان الذي يجمعنا هو ادم ابو البشرية . يبدو ان ابا دلامة كان صادقا في البيت ، فما الذي يفسر بين هذا الخليفة وهذا الشاعر ؟ كلاهما انسان الا ان الظروف لعبت دورها فجعلت هذا بخليفة وجعلت ذاك شاعرا مهرجا .

ان ابا دلامة ذكي والا لما استطاع ان يبقى في القصر وان يواجه خلفاءه بمثل ذلك الكلام ، ويتجلى هذا الذكاء من جهة اخرى في انه باستمرار يخرج مطلوبه امام الناس بأمر لا يمكن لهم ان يرفضوها فهو يقول للمهدي مرة : (٢)

اني حلفت لئن رأيتك سالما بقرى العراق وانت ذو وفر
لتصلين على الرسول محمدا ولتعلان دراهما حججري

فقد ربط هنا بين الصلاة على الرسول (ص) وبين الدراهم التي يطلبها من الخليفة وهو يعرف ان الخليفة لا يمكن ان يفرط في هذا الامر على رأى من الناس ومسمع منهم وبالتالي سوف يضطر اذا صلى على الرسول ان يعطيه ما يطلب .

وبعد هذا فان ابا دلامة رجل مداحة كغيره من الشعراء لكن بأسلوب جديد ذلك لانه لم يكن بعيدا عن عصره ، وإنى له ان يبتعد عنه وهو يمانى هذا

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ١٨٣ / ٨ - ١٨٤

(٢) الياقعي : مرآة الجنان ١ / ٣٤١ - ٣٤٢ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان

العصر وكل ما جدد فيه ؟ ونحن نعرف ان اغراض الشعر تطورت في ذلك العصر في محتواها وفي شكلها ، وبما ان ابولامة كان مداحة مدفوعا من قبل فقره الى المدح ، فمن الضروري ان تكون له في هذا المجال بعض الاجتهادات التي لا يستطيع فيها ان يخرج على عصره . ان تطور الاغراض الشعرية لا بد ان يكون قد سبقه تطور في مناحي الحياة المختلفة لان الفن كما صار واضحا يتأثر بما تأثر بكل ما يجرى في الحياة من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية الخ ولذا فان المدح في هذا العصر بصيغة جديدة اولنقل ان المدح اتخذ مظهرا جديدا قريبا على تلك الصفات التقليدية التي كان الشعر ينعت بها المدوح فان الشكل اختلف كثيرا لدى بعض شعراء الانجاه الشعبي في العصر العباسي . لقد اصبح الشاعر يدخل مباشرة في الموضوع دون التطويل في المقدمات كما كانت الحال من قبل ، لكن الشيء الجديد حقا هو ان الشعراء قد اصحوا يركزون على وصف فقرهم اكثر من قبل بحيث اصبح المدح استجدا واضحا بعد ان كان مقتضا من قبل . اصبح الشاعر يلج في الطلب ويصف حاله وظروفه الاقتصادية السيئة الى الغاية فيذكر بؤسه وشقاءه ومن هنا كانت كثرة ذكرهم لعيالهم وذويهم ، فقد رأينا من قبل ما كان يفعله ابو فرعون الساسي او ابو الشمقم او غيرها من الشعراء الفقراء فقد كانوا باستمرار يركزون على وضعهم المرير وكانت حالة عيالهم موجودة دائما في مدايحهم .

والشيء نفسه فعله ابولامة الا انه اضاف عنصر الفكاهة وذلك محاولة منه للالتزام بالموقف الذي اتخذته في الحياة ومنها . وتتجلى هذه السخرية في الوصف الكاريكاتوري الذي يصف به اهله كقوله في والدته : (١)

(١) الاصفهاني : الاغاني ، ١٠ / ٢٥٩ - (مصورة عن دار الكتب)

مثل البلية درعها في المشجب
ابصرت غولا اوخيال القطرب
جعلوا عليها طينة كالمقرب
ففككتها عن مثل ربح الجورب
يوعدنني بتلمظ وتشسوعب
لزيها فهل لك في عيال لـزب
تغشاهم من سيلك المتحلب *

هاتيك والدتي عجوز همة
مهزولة اللحمين من يرهايقل
كتبوا الي صحيفة مطبوعة
فعلت ان الشرعند فكاكها
واذا شبيه بالافاعي رقت
يشكون ان الجوع اهلك بعضهم
لايسألونك غير كل سحابة

انه يرسم لوحة محزنة لاولاده ويبين ان الجوع اهلكهم وانهم يرتجون من هـذا
المدوح مايرد اليهم الحياة والافسوف يموتون جوعاء، ويصف زوجته مرة اخرى بالطريقة
نفسها : (١)

وزودوك خبالا بعن ماصنعوا
يوم الفراق حصة القلب تنصدع
ام الدلامة لماهاجها الجزع
هبت تلوم عيالي بعد ما هجموا
سود قباج وفي اسمائنا شنع
ماهاج جوعك الا الري والشبع
لك الخلافة في اسبابها الرفع
دوني ودون عيالي ثم تضطجع
وفي المفاصل من اوصالها قذع

ان الخليط اجد البين فانتجعوا
والله يعلم ان كادت لبينهم
عجبت من صيبي يوما وامهم
لابارك الله فيها من منبهسة
ونحن مشتبهوا الالوان اوجهننا
اذا تشكت الي الجوع قلت لها
لا والذي بالميرالمؤمنين فخصي
مازلت اخلصها كسبي فأكله
شوعاء مشناة في بطنها ثجل

* همة : عجوز فانية . اللحي : عظم الحنك . القطرب : ذكر الغيالان
او الصغير من الجن .

(٢) الاصفهاني : الاغاني ٢٣٧/١٠ (صورة عن دار الكتب) وجمع الجواهر
للحصرى ص ١٠٠-١٠١ وطبقات ابن المعتز ص ٦٢
ثجل : عظم البطن وارتخاؤه - القذع : الامواج .

ذكرتها بكتاب الله حرمنا ولم تكن بكتاب الله تنتفع
فاخرنطمت ثم قالت وهي مصفية انت تتلو كتاب الله بالكعج ؟
اخرج لتبع لنا مالا ومزرعة كما لجيراننا مال ومزرع
واخذع خليفنا عنها بمسألة ان الخليفة للشوال ينخدع

نلاحظ ان الشاعر يستغل هذه الطريقة الجديدة في المدح ليحصل على ما يريد وليس في هذا اى كذب او نفاق لان الشاعر ليس مطالبا بان ينقل الواقع كما هو ، وان فعل فليس بشاعر بل هو تصور لاغير . وورا هذا القناع الساخر كان الشاعر يخفي حياة مريرة ونفسا كثيبة تحولت من كثرة كآبتها الى التهريج تبعا للمثل القائل : " شر البلية ما يضحك " . وعلى الرغم من هذا الحاجز الكبير الذى وضعه الشاعر امام نفسه فإنها كانت احيانا تخرج عن صتها وتغلت من الطوق المحيط بها فترسال اشارات تبدو عادية في سياق القصيدة لكنها تعني الشيء الكثير .

وهناك اشارات كثيرة نجدها في بعض القصائد منها ما جاء في القصيدة السابقة حين قال :

ونحن مشتبهو الالوان اوجهننا سود قباج وفي اسمائنا شنيع

انه هنا يشير الى قضية اللون فقد كان الشاعر اسود حبشيا كما قلنا ، ومثل هذه الاشارات نجدها لدى الشعراء الذين اتخذوا السخرية سبيلا مع اختلاف في العقدة التسيي يعانون منها فبعضهم يشير الى الموالاة وبعضهم يشير الى انه اعراي وهكذا .

ولقد كانت نظرة العرب قديما الى السود نظرة احتقار وانتقاص ، فالاسود في نظرهم مواطن من الدرجة الثانية وما علينا هنا الا ان نذكر المتنبى وقوله فيسي

المبيد . (١)

١ - اشارة الى قصيدته في كافور الاخشيدى : عيد باية حال عدت يا عيد
ولمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر : عبده بدوى : الشعراء السود .

من الاشارات الاخرى التي استطاع ابودلامة من خلالها ان يخبرنا بموقفه الحقيقي ما يدور حوله قوله في حكم العباسيين الذي اشرنا اليه من قبل حين تصدى للبس السواد الذي فرضه الخلفاء على الرعية . وهذا منه موقف سياسي واضح يدل على انه اكتشف زيف الدعوة العباسية وخطاها وانهم كما بقيهم طلاب سلطة لا غير .

ونستنتج من هذا ان ابودلامة كان يظهر عكس ما يبطن ، فهو اذاً يتبع مبدأ التقية الذي ساد في ذلك الوقت لاسباب سياسية . وكان هذا الموقف ينطبق على جميع الاحداث والامور التي عاشها لانه كان مضطراً ومدفوعاً الى ان يطرق ابواب الخلفاء وهو غير راض على طريقة حكمهم . لكنه قبل ذلك ان كان يتفاعل بما يدور حوله ويتأثر به وهناتجدر الاشارة الى موقفه من القضاة الذين يمثلون جانباً من الحكم العباسي في ذلك العصر حيث كان الخليفة ونوابه هم الذين يعينون القضاة ، لقد بينا من قبل ان القضاء تطور كثيراً في العصر العباسي بحيث اصبح للقاضي سلطات اكثر من ذي قبل وبالعقاب لم يعد بعضهم يحكم حسب الشريعة الحنيفة بل صاروا يتبعون في كثير من احكامهم شيئاً من الهوى بحيث يوثر ذلك في اغلب الاحيان على المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة .

كان القضاء في ذلك الوقت رمزاً من رموز السلطة العباسية وهيمتها على جميع الامور فاما كان من ابى دلامة الا ان ينتقد السلطة نفسها في هذا الجانب الحساس ، ولم يستطيع ان يفعل ذلك مباشرة كما فعل غيره من الشعراء فلجأ الى طريقة وهي السخرية والتصوير الكاريكاتوري ليدل على فساد القضاء في ذلك العصر حين يلجأ الى احياء اذكية بحيث يكشف ذلك الفساد دون ان يعرض نفسه لكرهه اوضحه ومن ذلك موقفه من القاضي ابي ليلي . (١)

(١) الاصفهاني : الاغاني ٢٣٨/١٠ مصورة عن دار الكتب والخطيب البغدادي :

تاريخ بغداد ٤٨٠/٨ وابن خلكان : وفيات الاعيان ٣٢٢/٢ وما بعدها

واليافعي : مرآة الجنان ٢٩٠/١

ان من يتخذ مثل هذا الموقف من الشعراء يكون في الاغلب مسالما وهذه ظاهرة عامة نجد عا لدى اغلب شعراء هذه الزمرة . وهذه الملاحظة تسوقنا الى ان نحكم عليهم بالسلبية وعدم الثقة في انفسهم . ان الخوف احد اسباب هذا الموقف ولا نعني الجبن لان نقد هم لبعض الظواهر حتى وان كان ذلك في اطار من السخرية يدل على انهم ليسوا جبناء . وهذا يعني ان الخوف لم يكن متأسلا فيهم بل نتج لاسباب اخرى ، فهم كما نعلم اصحاب عيال وفقراء اي ان ارتباطهم اقتصاديا بالاغنيا وبالتالي بالسلطة ، جعلهم يخافون من فقدان مصدر الرزق الوحيد الذي وجدوه ، مع العلم ان فرض العمل كما ذكرنا من قبل لم تكن متوفرة . ولهذا كله اكتفى اولئك الشعراء من زمرة ابي لاسمة بالاشارة الى الوضع الاجتماعي السائد وغير العادل نتيجة الظلم والفهر والحمران الذي سئلوه من ذلك المجتمع لكن دون ان يرفموا السلاح لانهم لم يجدوا الاطار الذي يستطيعون ان يثوروا من خلاله لان ايسة ثورة لا بد ان تتوفر لها ظروف كالسخط الاجتماعي العام مثلا زيادة على وجود قيادات تستطيع ان تصل بتلك الجماهير الى غاياتها . لم تسنح لهم الفرصة حتى يجتمعوا ولم تقيض لهم الظروف رجلا اورجالا يجمعونهم تحت لواء واحد ويوحدون كلماتهم ، وبالتالي يقودونهم الى الثورة بالسلاح على تلك الاوضاع . ان غيرهم قد سحت لسه تلك الظروف فثاروا كالأعراب في مناطق عديدة وكالمصريين في الحوف وكالزط وشورة الزنج وماشابه ذلك .

يتضح مما سبق ان من طبيعة من يتخذ هذا الموقف اللايمالي الساخر ان يكون مسالما وبالتالي ان يأنف من الحرب والقتال ، فهذا ابود لاسمة يشير صراحة الى ذلك في صيغة ساخرة ، فهو لم يثر ايدا في وجه واقعه ، ولاننس ان هذا الموقف ربما نتج ايضا عن تلك الفكرة السائدة في ذلك الوقت والتي كان يعتقد بها قطاع كبير من الناس وهي ان هذا الواقع مقدر عليهم وان ما يحدث لهم هو من مشيئة الله . مع العلم ان السلطة كانت تروج مثل هذه الامور حتى تستب لها الاوضاع .

لقد كان ابود لاسمة يكره الحرب كما ذكرنا في بعض المصادر ليس جبناء ولكنه كان

يرى انهالان تعود عليه وعلى امثاله بالفائدة لان الحرب التي شارك فيها لم يكن
مؤمنا بها وهي حرب الخلافة ضد الخارجين عليها من شيعة او خوارج ، وهذا موقف
حيادي منه ، ويمكن ان نستغل امتناعه عن القتال هذا لنشير الى انه ربما كان قسي
قرارة نفس ينصر اولئك الخارجين على السلطان الذين وجدوا الشجاعة الكافية
لاعلان الثورة صراحة عكس ما فعل ان بقيت ثورته جيشا نافي صدره فقط .

ان ايا دلامة يرى بعد هذا ان الحرب ليست حلا للمشاكل لانها مهلكة
للنفوس لا غير ، فها هو ذا مرة يرفض العبارة التي فرضت عليه بأسلوب ساخر كعادته
وذلك بقوله : (١)

اني اعوذ بروح ان يقدمني	الى القتال فيخزي بي بنو اسد
ان المهلب حب الموت اورثكم	ولم ارث قط حب الموت من احد
ان الدنو الى الاعداء اعلمه	ما يفرق بين الروح والجسد

وهذا الموقف عموما يتسم بالسلبية لانه في النهاية بقي متفرجا على ما يجري من
امور في ذلك المجتمع الهائج . كان اصحاب هذا الموقف يوهمون انفسهم بانهم
سيتمليون على معاناتهم بالتجائهم الى هذه الطريقة التي تجعلهم لا يشعرون بما
حولهم ولكنهم لم يستطيعوا لان مشاكل المجتمع لحقتهم وارقتهم وجعلتهم يشيرون
اليها بالرغم من انفسهم التي لم ترد ذلك .

.....

(١) الاصفهاني : الاغاني ١٠ / ٢٤٤ (مصورة عن دار الكتب) وهاقوت : معجم
الادباء ١١ / ١٦٧-١٦٨ وابن خلكان : وفيات الاعيان ٢ / ٣٢٣
واليافعي : رآة الجنان ١ / ٣٤٣

٢ - الموقف الحمادي (الزاهد) : محمد بن حازم الباهلي :

والآن ننتقل الى الموقف الثاني الذي اتخذته مجموعة من شعراء ذلك العصر وهو موقف كان في الغلب الاعم موقفا سلبيا متفرجا على ما يدور من احداث . لقد كان الزهد عبارة عن انسلاخ عن المجتمع حيث كان الزاهد يحاول دون جدوى ان يخرج من هذه الدنيا وهو مازال فيها ، ولهذا الظاهرة كثيرة هي نفسها التي اوجدت النوع الاول او الموقف الالمبالي .

ويمكن ان نعد الزهد نقيضا للموقف الاول ، كلاهما هروب من الواقع الا ان الاول ، اي الالمبالي ، كان هروبا الى الامام وهذا كان هروبا الى الخلف . ان الزاهد يجسد ظاهرة الخضوع وقابليتها ايما تجسيد : الخضوع لما يحدث له في هذه الدنيا دون مقاومة ولا حتى محاولة للخروج من الورطة التي وجد نفسه فيها .

ان الزهد ظاهرة نتجت في البداية ردا للاحداث السياسية التي شهدتها المنطقة اعقاب مقتل الخليفة عثمان بن عفان لكن هذه الظاهرة تطورت في العهدين الاموي والعباسي بحيث اصبحت ذات مدلول اجتماعي اضافة الى بعدها السياسي . (١)

وسوف نحاول ان نكشف هذه الامور في موقف محمد بن حازم الباهلي بن عمرو

المكنى ابا جعفر والذي سكن بغداد وكان مولده ومنشؤه بالبصرة . (٢)

لانعرف شيئا عن حياته سوى انه كان زاهدا وكان قليل المدح للناس ولم يمدح من الخلفاء الا الامون . (٣) لانعرف متى ولد ولا متى توفي الا انه عاش عمره كله في العصر العباسي الاول على ما يبدو .

(١) : انظر : حسين مروة : النزعات المادية ج ٢ / ص ١٤٩ وما بعدها

(٢) الاصفهاني : الاغاني ١٤ / ٩٢ والقفطي : المسحودون من الشعراء ١ / ٢٧٩ تحقيق محمد عبدالستار ط اولي - مط مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدرآباد الهند ١٩٦٦ وتاريخ بغداد ٢ / ٢٩٥ والورقة ص ١١٧

(٣) الاصفهاني : الاغاني ١٤ / ٩٢ وتاريخ بغداد ٢ / ٢٩٥

ولكي نعرف جنوحه الزهد لا بد ان نضع بالحسبان حالة البصرة في ذلك الوقت والتي ولد بها الشاعر وترعرع فيها . فقد كانت البصرة في ذلك الوقت تمثل خليطا من الاجناس تتصارع فيه المصالح والمذاهب والاهواء وتتمثل فيه جميع الطبقات التي عرفها ذلك العصر من اغنياء وفقراء وما يلحق ذلك من المعبرين عن هذه الطبقات اوتلك . (١)

ومجتمع كمجتمع البصرة لا بد ان يخلق مختلف الانماط والانواع والاشكال التي يفرزها مثل تلك المجتمعات . ولعل محمد بن حازم كان من اسرة فقيرة لان الزهد ارتبط في اغلب الاحيان بالطبقات الفقيرة التي لم تستطع ان تجد لنفسها موضعا في خضم المضاربات الاقتصادية فطأها الا ان تعلن انهزامها امام ذلك المد المادي الذي اجتاحت الدولة الاسلامية في ذلك الوقت كنتيجة للتطور الذي عرفه ذلك العصر .

ان الظروف الاقتصادية والسياسية اضافة الى التيارات الفكرية والدينية هي من اهم الاسباب التي ولدت ظاهرة الزهد التي هي تعبير سلبي عن السخط العام . ونحن نستثني من السلبية هذه اولئك الشواذ الذين لم يكتفوا بالزهد على الطريقة المعهودة ، اى بطريقة النزوع عن كل شيء ، بل كانوا يجمعون بين الزهد وبين طلب الحياة وذلك بالمشاركة الايجابية في حياة المجتمع كعبد الله ابن المبارك الذي ذكرناه سابقا . (٢)

ان لشعراء الزهد السلبي جميعا صفات مشتركة وتشابهة ، فهم بالدرجة الاولى يشتمدون عن المجتمع وكأنهم يقفون من احدائه وما يجرى فيه موقف المهزوم المنسحب من المعركة ، ولذا اکتفوا بنقده بطريقة تخففة تتجلى في الحكم التي اشتهروا بها .

(١) انظر : احمد كمال زكي : الحياة الادبية في البصرة .

(٢) انظر شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ٤٠٣

ان الحكمة هي عنوان الزهد في ذلك العصر بحيث لا يوجد شاعر زاهد الا وكان يحاول ان ينقل الينا تجاربه واحاسيسه في اطار من الحكمة رصين ، فمحمد ابن حازم هذا كغيره من الزهاد اشتهر بحكمه المتعددة التي تتناول القناعة والحرص والطمع والشرف وكرامة النفس والحلم ودم الدنيا والناس والفقير والعقسل والجهل والصداقة وماشبه ذلك من قضايا وامور .

اننا نستطيع ان نصل الى نفسية هؤلاء الشعراء من خلال الموضوعات التي تناولوها في حكمهم ، وسوف يتضح لنا ذلك في شعر محمد بن حازم الباهلي فهو يقول مثلا في القناعة : (١)

جعلت مطية الامال ياسا	فأواني الى كنف وسيع
فتلك مطية الآمال ففيل	بالارجل يشد ولا نسوع
لعمرك للقليل أصوب وجهي	به في الاوحدين وفي الجميع
أحبب الي من طلبني كثيرا	تمد اليه اعناق الخضوع
فعشربا القوت يوما بعد يوم	كص الطفل فيقات الضروع
ولا ترغب الى احد بحرص	رفيع في الانام ولا وضيع

ويقول في القناعة مرة اخرى : (٢)

الله احمد شاكرا	فبلاؤه حسن جميل
اصبحت مستورا معافى	ما بين انعمه اجـول
خلو من الاحزان خف	الظهر يقنعني القليل
لم يسقني طمع ولا	حرص ولا امل طويل
سيان عندي ذو الغنى	العتلاف والرجل البهيميل

(١) الشاهشتي : الديارات : ص ١٨٢ تحقيق كوركيس عواد . مط المعارف بغداد

١٩٥١

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٢

ونفيت بالناس المنسى
والناس كلهم لمن
هني فطاب لي العليل
خفت موؤنته خليل

ان هذا الشاعر ، دون ان يريد ، يساعد الظروف التي انشأته على ان تبقى لاننا لوحللنا شعره هذا لوجدنا القناعة في الحقيقة دعوة الى الركود والى الرضى بكل ما يجرى للانسان ، ولكن تجدر الاشارة هنا الى ان هؤلاء الزهاد كانوا فعلا شديدى الدين وهذا بالطبع ينفي عنهم التهمة التي توجه اليهم من الوهلة الاولى اى انهم دون وعي منهم ، دعاء للحكم القائم الذى كان هو الاخر يروج للقناعة ويشجع انتشارها بين الناس . كان هدف هؤلاء الشعراء مخالفا لاهداف السلطات القائمة لكن موقفهم هذا كان من الناحية العملية يساعد السلطة وذلك بتشجيع تلك الاوضاع على البقاء على ما هي عليه . وبالطبع فان موقفهم هذا كان مناقضا لحالتهم لكن دون ان يدركوا ذلك كما اشرنا سابقا .

ان هذا الموقف المرتكز على الدين ، يشل هؤلاء الشعراء الزهاد بالدرجة الاولى ثم يشل باقى الناس المتأثرين بهم . انهم ساخطون على وضعهم لكنهم لم يجدوا حلا الا فى سلوك هذا السبيل اى فى الابتعاد عن هذا الوضع قدر الامكان ولو ان عملهم هذا لم يغير شيئا فى النهاية لانهم لم يستطيعوا اهدا ان يبتعدوا عن هذا الوضع او ان يفلتوا من قبضته . ان سلوكهم هذا اجتاج الكرامة الانسانية التي طحتها كلال الظروف الاجتماعية المتداخلة ، ولذا راحوا يراجهون ذلك الموقف المزرى بهذا السلوك السلبى . ان القناعة هي بكل بساطة اعتراف بذلك الوضع وتقبل له ولو على مضض . لقد حدث لهؤلاء الشعراء ما حدث لغيرهم من النوع الاول اى اللامبالين الذين لم يجدوا مخرجا الا فى السخرية من ذلك الوضع والقفز فوقه . ان السلبية هي صفة هذين الموقفين وهي فى النهاية لن تغير شيئا لان التغيير لن يكون الا بالحركة . لكن الخطر فى هذه القضية يأتي من كون هؤلاء الشعراء الزهاد متدينين ومن هذا يوثقون فى الجماهير من ناحيتين :

اولا من ناحية كونهم شعراء والشاعر كما نعرف كان له في ذلك العصر صدى كبير في نفوس الناس ، وثانيا من حيث كونهم متدينين لان الجماهير تحترم الدين ورجاله احتراما كبيرا وتتأثر بهم ايمانا ، والذي يشفع لهؤلاء الشعراء ان دعوتهم لم تكن مبيته هذا الغرض بل كانوا يفعلون ذلك عن حسن نية .

ان القناعة التي يدعو اليها هؤلاء الشعراء تدعو في بعض جوانبها الى اليأس من وجود مجتمع احسن مما هو كائن ، فهذا محمد بن حازم الباهلي يقول في هذا المجال : (١)

من اعلم اليأس كان اليأس جاعله معظما اهدا في اعين الناس
اليأس خير ومال الناس من شر هات امرا ذل بعد اليأس للناس

من هنا تأتي اشارة الخطر لان هؤلاء الشعراء كان لهم نفوذ كبير على الناس زيادة على اهمية دور الشعر في ذلك العصر وتوجيهه للجماهير .

والناس عادة يقيسون الامور بعضها ببعض فحين يرون هؤلاء الشعراء يذمون الجري وراء الدنيا فان هذا الذم عندهم سوف ينتقل الى مختلف سواحي الحياة بحيث تصبح هذه الدعوة دافعة للناس الى الركود في جميع انشطتهم والسكوت من الظلم والقهر والرضى بالحرمان والفقر .

ان دعوة هؤلاء الشعراء كانت تدفع الى الخمول وتقلل بطريقة غير مباشرة من اهمية العمل ، هذا العمل الذي يعطي الانسان قيمته الاجتماعية .
لقد اتخذت هذه الدعوة اشكالا متعددة وصيفا كثيرة فهم مثلا يحبذون الصبر ويمدحونه ويعلون من قيمته وشأنه ، وصحيح ان للصبر فوائد كثيرة لكن ليس في جميع المجالات .

(١) الشابشتي : الديارات ص ١٨٢

ان كلام محمد بن حازم يدعو عليها الى الكسل حتى وان كان الشاعر لا يقصد ذلك ان ماذا تفهم او ماذا يفهم الانسان البسيط في ذلك العصر والذي كان يتأثر بالشعر ويحترم اقوال الشعراء ويطبقها احيانا وخاصة اذا كانوا زهادا ، ماذا يفهم من بيت كهذا : (١)

وفي اليأس من ذل الطامع راحة وفي الناس من لا تحب بديل

والشطر الاول هو الذي يهنا في هذا البيت ، لان الانسان كان دائما يسمى السبي تلبية حاجاته المتعددة من ملابس ومأكل ومسكن وماشبه ذلك . وان هذه الامور لم يكن يحصل عليها بسهولة او تنزل عليه هبة من السماء بل كان لابد من شقاؤه وتمسه حتى يجلبها لنفسه وهذه الحاجات تكون في مجموعها طموح الانسان في الحصول عليها وكلام الباهلي يرفض هذا السعي ويدعو الى الصبر والقناعة وبعبارة اخرى يدعو الى الكسل والخمول .

ان خطورة شعرهم تكمن في انه صادق فعلا وفي انه مرتكز على تجارب واقعية فعلا عاشها الناس وبعاشونها باستمرار ، اذ من مناعترض على الصبر ومن مناعترض على القناعة ؟ ان كلامهم صحيح من عدة نواح لكن كان من المفروض ان يدعم بالحسنى على العمل والتحرك والمواصلة لا ان يجعل الناس وكأنهم متفرجون على ما يحدث لهم . هذه النظرة عندهم ربما كانت من رواسب المذاهب والتيارات الفكرية والفلسفية السابقة مثل الرواقية والابيقورية وغيرها .

وانا بحثنا عن الاسباب المعنوية التي دفعتهم الى هذا المسلك زيادة على الاسباب الاجتماعية التي ذكرناها فسوف نجد ان الجانب العاطفي عندهم كان له دور كبير في هذه الظاهرة . ان هؤلاء الشعراء معتزون جدا بانفسهم وبعبارة اخرى

(١) : الشابشتي : الديارات ص ١٨٠

كانت الكرامة النفسية عندهم فوق كل شيء وهم لا يرضون ابدا ان تذلل نفوسهم
لاحد ما اولامرنا . انهم حساسون الى درجة ان ابسط الامور التي تجرى ضمن
حياتهم تؤثر فيهم تأثيرا كبيرا .

ان هؤلاء الشعراء وجدوا انفسهم في مجتمع معقد العلاقات متشابك المصالح
ظروفه الاقتصادية صعبة الوطء عليهم وظروفه السياسية قاهرة لهم وكان عليهم
اما ان يواجهوا هذا المجتمع بمختلف الاساليب الموجودة فيه او ان يندحروا امامه
فاختاروا الطريق الثاني وبذلك ضمنوا لانفسهم كرامتها وصانوها عن كدام يمكن ان يلحقها
من اذى في الطريق الاول .

ولمحمد بن حازم تجارب من هذا النوع ، فقد سأل مرة صديقه سعيد بن مسعود
القطري حاجته فردته عنها فأثر ذلك في نفس الشاعر تأثيرا شديدا فانقطع عن
هذا الصديق لكن ذلك الرجل رجع وبعث الى الشاعر بالف درهم يتراض بها الا انه
رفضها وقال : (١)

بضيق منه الحول القلب	تسع الصدر رحيب لصا
وربا اعتبك المذنب	راجع بالعتبي فعاتبتك
موكل بالبين ، مستعتب	اجل وفي الدهر على انه
كفني وسهم الشامت الاخيب	سقيا ورعيا لزمان مضى
اعرض له والحر لا يكذب	قد جاء منك موئل فلم
والسخط الا مشربا يعذب	ابيت ان اشرب عند الرضا
ارجوسوى الله ولا ارهب	اعزني اليأس واغنى ، فسا
وهتي ما فوقها مذهب	قارون عندي في الغنى معدم
اصو الى مالك اوارغب ؟	فأى هاتيك تراني بها

هذه القصيدة تبين مدى احساس محمد بن حازم فهو لا يرضى ان تهان نفسه حتى وان جاء ذلك من صديق له .

ان الانسان الحساس لا يستطيع ان يحيا حياة عادية بين الناس لان اختلاطه بالناس سوف يسبب له حتما مشاكل عديدة ولان شعوره سوف يتأثر لاول معارضة من المحيط ولذا نتج عن هذا الاحساس المرهف انطواء على النفس حاد جدا . وهذه صفة نجد ها لدى اغلب شعراء الزهد ، فهم يتزهدون من الدنيا وكل ممن فيها وينعزلون بعيدا عن الناس في جميع الاور . انهم بعبارة اخرى قطاع من الناس مشلول لا يقدم للمجتمع اى فائدة ، بل عكس ذلك نجد هم يوءثرون في المجتمع تأثيرا سلبيا لانهم يودون ان يقلد هم الناس في تصرفاتهم هذه .

ان رد الفعل الحاد من الاوضاع السائدة التي قهرتهم جعلهم ينطـوون على انفسهم وينغرون من الناس الذين لا ينهجون نهجهم ، ولذا اكثر ذم الدنيا والناس في اشعارهم ، فها هو ذا محمد بن حازم يقول في ذم الناس : (١)

وقالوا قد مدحت فتى كريما	قلت : وكيف لي بفتى كريم ؟
بلوت الناس مذ خمسين عاما	وحسبك بالمجرب من عليهم
فما احد يعد ليوم خيرا	ولا احد يعود على حميم
ويعجبني الفتى واظن خيرا	فاكشف منه عن رجل لثيم

ولقد كان ابوالعتاهية يذم الكلام نفسه في صيغة اخرى وكذلك معظم شعراء الزهد . انها صفة النفور البشر وعبارة اخرى انه الانطواء الناتج عن خوفهم من مواجهة الواقع بكل مشاكله .

لكن القضية عند بعضهم لاتقف عند هذا الحد بل تتعداه الى كراهية

(١) الشاهشي : الديارات : ص ١٧٨-١٧٩

الناس جميعا، وربما كانت هذه الكراهية ناتجة عن انهم رأوا ان الناس استطاعوا ان يفعلوا ما كان هؤلاء الزهاد يمتنون في قرارة انفسهم ان يفعلوه اي انه حسد على شجاعة اولئك الذين استطاعوا ان يواجهوا الواقع ويقفوا امامه متحدين جبروته .

ان محمد بن حازم من هذا النوع الاخير الذي جعله موقفه السلبي يكره الناس، فقد طلب منه الحسن بن سهل مرة ان يكف عن هجاء الناس فقال : (١)

وهبت القوم للحمن بن سهل	فعضني الجزيل من الثواب
وقال : دع الهجاء وقل جميلا	فان القصد اقرب للصواب
فقلت له : برئت اليك منهم	فليتهم بمنقطع التراب
ولولا نعمة الحسن بن سهل	علي لستهم سوم العذاب
اكيدهم مكيدة الاعادي	واختلهم مخالطة الذئاب
وما مسخوا كلابا غير اني	رأيت القوم اشباه الكلاب

ان الشاعر لم يستطع هنا ان يتحكم في زمام نفسه الباطنية ولم تستطع اصباغ الحكمة ان تخفي مشاعره الحقيقية . انها كلمات انسان عاجز لم يجد من وسيلة يقلل من شأن تلك الجماهير الشجاعة الا بوصفها بأحقر الصفات .

وبعد هذا فان هؤلاء الشعراء كانوا يقللون ايضا من قيمة الدنيا ويرون انها فتنة يستحسن بالانسان ان يعتمد عنها وعن كل مغرياتها . وربما كان هؤلاء الشعراء صادقين فيما يقولون لان قوة الايمان عندهم قد تجعلهم ينفرون من متع الحياة ويرون فيها منقصة لدينهم الا انه يجب الا ننسى ان الحياة في مفهوم الدين الاسلامي نعمة من عند الله لا بد للانسان ان ينعم بها وكأنه يعيش ابدادون ان يقصر في واجباته الدينية .

(١) الشاهستي : الديارات ص ١٧٩

لكن هؤلاء الشعراء يدون الدنيا فتنة في جميع حالاتها فهذا ابن حازم يقول : (١)

الا انما الدنيا على المرء فتنة

على كل حال اقبلت ام تولت

ان عجزهم هو الذي جعلهم يصلون الى هذه النتيجة .

وسال شك فيه ان هؤلاء الزهاد كانوا فقراء محرومين ، دفع بهم فقرهم الى اتخاذ هذا السبيل في الحياة بعد ان اكتشفوا ان جميع الطرق التي جربوها لم تنفعهم شيئا . لم يستطيعوا التكيف مع تلك الاوضاع ولم يالفوا ذلك المجتمع ولم يتأقلموا معه . ولنستمع الى شاعرنا وهو يقول : (٢)

رزقت عقلا ولم ارزق مروءته

والمروءة الاكثرة المال

اذا اردت مسامة تقاعد بي

عما ينوه باسمي رقة الحال

كانوا فقراء اذا ولكنهم لم يدركوا تمام الادراك ان المجتمع الذي نفروا منه هو السبب الرئيس في حالهم تلك . تنبهوا طبعاً الى هذا الامر فراحوا يشيرون الى ذلك في شيء من الغموض وتجلي ذلك في ذم المال .

ومن هنا يمكن ان نعرف لماذا اشتهر الزهاد بالبخل ، فما يخلهم هذا الا نتيجة لمجمل ظروفهم ، فقد اعلنوا انهزامهم كما اشرنا من قبل وتجلي هذا الانهزام في الابتعاد عن الناس وفي الهروب من متع الحياة ومنها المال طبعاً . ونتيجة لذلك كله بقوا مكتوفي الايدي امام تلك الاوضاع ، يرضون بالقتيل اليسير . ولذا راحوا كلما جاءهم مال بطريقة ما ، يحافظون عليه اشد المحافظة لانهم يعرفون اولا صعوبة الحصول عليه وثانياً ضرورته لعيشهم .

(١) النويري : نهاية الارب في فنون الادب : ج ٣ ص ٨٨ (مصورة عن دار الكتب)

(٢) الشابشتي : الديارات : ص ١٨٢

ان مجمل هذه الظروف قد جعلت نفوسهم تضطرب وتتعمد ونستنتج ذلك من كثرة التناقض في تصرفاتهم واقوالهم ، فقد رأينا محمد بن حازم وهو يدعو الى الصبر والقناعة لكنه يقول مرة اخرى (١) :

اخلق بذى الصبر ان يحظن بحاجته ومد من القرع للابواب ان يلجا

ففي الشطر الثاني يناقض كل ما قال من قبل لانه هنا يدعو الى المواصلة والاستمرار وبهارة اخرى يدعو الى الحث على العمل وان من يواصل دون ملل ولا كلل سوف يصل الى ما يريد .

ان هذا التناقض انتشر الى جميع الموضوعات التي طرقها الشاعر ، وقد تنبئه ابن المعتز لهذه القضية وان عسها على مجموعة من الشعراء ، فقد قال فيما يخص شاعرنا : " كان محمد الباهلي من الحف الناس اذا سأل والحهم اذا استماح مسبح كثرة ذكره للقناعة بشعره ، وهو احد جماعة كانوا يصفون انفسهم بضد ما هم عليه حتى اشتهروا بذلك وابن حازم يصف نفسه بالقناعة والنزاهة وكان احصر من كلب " (٢)

لاندرى اكان وراء كلام ابن المعتز هذا امر شخصي ام لا ؟
الا انه قد اصاب الموضوع فعلا ، فهو لا اله الناس كانوا يظهرون عكس ما يبطنون ولنتذكر ابا العنابية الذي اشتهر ببخلة على كثرة ذمه للحرص ومدحه للكرم . ويشار هنا الى انه قد مات وترك مبلغا كبيرا من المال .

ان هؤلاء الشعراء جربوا جميع الوسائل ، كما قلنا ، للتلاؤم مع مجتمعهم ولتوفير القوت لاولادهم ان كان لهم اولاد ، فقد هجوا ومدحوا وتقلبوا في امور كثيرة وحين لم يجدهم ذلك شيئا انعطفوا على انفسهم وتقوموا وراء الزهد وراحسوا يثبون حقد هم على المجتمع في تلك الحكم التي نالت اعجاب الناس .

ومحمد بن حازم كان يمدح هو الآخر فقد مدح المأمون بقوله : (١)

وإذا الكرم أنتيته بخديعة فرأيته فيما يروم يسارع
فاعلم بانك لم تخادع جاهلا ان الكرم بفعله يتخادع

وكانني به اراد ان يقول ان هؤلاء الاغنياء الذين يصدقون الاموال على المادحين يتظاهرون بالكرم حتى ينالوا ثناء الشعراء .

ويقول فيه مرة اخرى : (٢)

انت ساء ويدي ارضها والارض قد تأمل غيث السما

وهو هنا ايضا يشير الى الفكرة السابقة اي ان الكرم عند هؤلاء الناس لم يكن سجية بل كانوا يفعلون ذلك ليحصلوا على ثناء الناس لان العطاء لم يكن ابدا بالمجان عندهم .

وليس في هذه المدح ، عدا ذلك ، اي جديد فهو يكرر الافكار والصفات المتداولة بين جمهور المادحين كالكرم ووصف الكرم بالغيث الخ . . .

وكان ايضا كثير الهجاء للناس (٣) فقد مر به مرة احمد بن سعيد بن سالم وهو جالس على بابهم فلم يسلم عليه سلاما مقبولا فكتب اليه رقعة وبمسها خلفه وجاء فيها : (٤)

وباھلي من بني وائل افاد ما لا بعد افلاس
قطب في وجهي خوف القرى تقطيب ضرغام لدى الياس
واظهر التيه فتايهتـــــــــــــــــه تيه امرى لم يشق بالناس
اعرته اعراض مستكـــــــــــــــــر في موكب مر بكنــــــــــــــــاس

(٢-١) الشاهستي : الديارات ص ١٨٣

٣ - الاصفهاني : الاغاني ج ١٤ ص ٩٢ (مصورة عن دار الكتب)

(٤) - المصدر نفسه ج ١٤ ص ٩٣

ثم أن هذا الشاعر كان يشرب الخمر على ما يبدو قبل أن يتحول إلى الزهد ويصاحب
الندمان وماشابه ذلك ، حين قال : (١)

ابعد خصين اصبو	والشيب للجهل حرب ؟
سن وشيب وجهل	امر لعمرك صعب
ياهن الامام فهلا	ايام عودي رطب
وشيب رأسي قليلا	ومنهل الحب عذب
وان سهامي صباب	ونصل سيفي غضب
وان شفاء الغواني	مني حديث وقسرب
فالان لما رأى بي العذال ماقد احبوا	
وانس الرشد مني	قوم ، اعاب واصبو ؟
البت اشرب كأسا ما حج لله	ركب

لم نورد هذه الامثلة من مدح وهجاء وغزل ولهوا لا لنبين ان هذا الشاعر
جرب كغيره من الشعراء امورا كثيرة قبل ان يتخذ الزهد مذهباً بعد ان رأى/تلك
الامور لن تجديه فتيلاً . ويمكن ان نقول ان شعراء الزهد فعلوا مثله فهم لم يتخذوا
الزهد مذهباً مذ ولدوا لان الزهد يأتي كرد فعل لاوضاع لايد ان يعاني منها
الانسان اولا حتى يتحول هذا التحول .

لكن هذا لا يعني ان كل من يعاني تلك الاوضاع يتحول إلى زاهد كهؤلاء
الشعراء بل تدخل هنا خصوصيات كل شاعر منهم ونفسيته المتميزة . وهذا ناتج
عن تلك الفروق الفردية بين الناس بحيث تجعل بعضهم يتأثر وبعضهم الاخر
لا يتأثر مطلقاً . ان وقع احداث ذلك المحيط الخارجي - وما اكثرها تنوعاً - تختلف
من فرد إلى اخر وربما اختلف ذلك في الشخص الواحد بين حين واخر فهذا ابونواس
يقال انه كان فقيها ثم تحول إلى ماجن مشهور .

وفي النهاية نكرر اننا لانعم كل ما قلناه على جميع شعراء الزهد بحيث
نجعلهم جميعا على شاكلة محمد بن حازم الباهلي بل هناك استثناءات لا يسد
من الاشارة اليها لكنها لا تؤثر في التيار العام لهذا المذهب ولهذا الموقف
من الشعراء .

.....
.....

٣- الموقف التمرد (النائر) : ابوعطاء السندی

=====

وبقي الموقف الاخير للشعراء الشعبيين في العصر العباسي وهو موقف تلك المجموعة من الشعراء التي تمردت فعلا وقولا على الاوضاع السائدة ، لان تلك الاوضاع هي التي دفعتها الى هذا السلوك ، ان التمرد حصيلة تناقضات يعيشها الانسان ويرى بعدها ان الحل هو الا يكتفي بالنقد العادي كما فعل الشعراء الاخرون بل يحمل سلاحه القوي والخطير ليحقق اهدافا يصبو اليها وهي اقرار العدالة بين الناس في جميع المجالات لان القول ، وان كان احيانا ايجابيا كتوعية الناس وتبصير الجماهير بأمورها وحقوقها ، لن يغير شيئا كبيرا في قضية الكارحين .

ان الشاعر ، وهو انسان ، قد يتحول من موقف الى اخر ومن صف الى اخر ولكن لا بد من وجود هزة عنيفة في حياته حتى يتم ذلك التغيير ولا بد ان يكون شعراء هذا الموقف عانوا من مثل تلك الهزات فأبو عطاء السندی والذي يمثل هؤلاء قد شهد الانقلاب العباسي وانتقال السلطة من بني امية الى بني العباس وكان هذا بمثابة الانقلاب في حياته وفكره وسلوكه مع العلم انه كان من قبل من شعراء بني امية فقد مدحهم وكان من نصبي الهوى اليهم (١) . وشاركهم في حربهم ضد بني العباس حتى ان غلامه الذي تكلم به قتل مع ابن هبيرة . (٢)

لانريد ان نتطرق للاسباب التي جعلته يحارب في صفوف بني امية لكن المهم ان الشاعر حضر شخصا ذلك الانقلاب وقد كان شجاعا وربما كان السبب المباشر

(١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٧ ص ٣٢٩ تحقيق علي محمد الجاوي ، طبع الهيئة

المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة . ١٩٧٠

(٢) المصدر نفسه ج ١٧ ص ٣٣٠

في ذلك هو خوفه من الفقر والافلاس فقد قال في هذا المعنى : (١)
اذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه
وصار على الدينين كلا واوشكت
فسر في بلاد الله والتبس الغنى
ولا ترض من عيش بدون ولا تنس
شكا الفقر اولام الصديق فأكثر
صلات ذوى القربى له ان تنكرا
تمش ذابسا راتمت فتعذرا
وكيف ينام الليل من كان معسرا

في هذه الآيات جواب على الاسباب التي جعلته يشارك في تلك الحرب.

ولكن بعد انتصار العباسيين كان من المباركين كغيره من الشعراء وكان
يأمل خيرا من هذا العهد الجديد فراح يمدح الحكام الجدد الا انهم نبذوه و
حاول عدة مرات وعاود الكرة ولكن بدون جدوى (٢) .

من هنا انطلق ابو عطاء واطهر كل سخطه على الحكام الجدد فقد قال : (٣)

بني هاشم عود والى نخلانكم
فان قلتم رهط النبي وقومه
فقد قام سعر التمر صاعا بدرهم
فان النصارى رهط عيسى بن مريم

ان الشاعر هنا بدأ بموضوعين حساسين للغاية وهوان العهد الجديد لــــم
بحق ما كان منتظرا منه فقد قام العباسيون بدعاية كبيرة قبل انتصارهم وراحوا
ينتقدون الوضع السائد ايام بني امية وخاصة الظروف الاقتصادية المتردية
التي كان يعاني منها الانسان . وهذا من اهم الاسباب التي تركت الناصب يد خلــــسون
في حزب العباسيين ويحاربون الى جانبهم املا في تحسن تلك الاوضاع بعد ان يتولى
العباسيون الحكم . لكن الخيبة كانت كبيرة جدا ويكفي البت الاول الذي قاله
ابو عطاء ليعطينا فكرة عن تلك الخيبة . فقد ارتفعت الاسعار عوض ان تنخفض
وهذا في حد ذاته مصيبة كبيرة لاولئك الفقراء والمستضعفين الذين ما شاركوا في

(١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٧ ص ٣٢٦ (طبع الهيئة المصرية ١٩٧٠)

(٢) الاصفهاني : الاغاني ج ١٧ ص ٣٣٢-٣٣٣

(٣) يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة ص ٤٣٩

الحرب الا لكي يحصلوا على ما كانوا يظالبون به وهو الرخاء العام .

و يتناول بعد ذلك اهم عنصر في الدعاية العباسية بالنقد ويقوضه وهو قرابتهم من الرسول (ص) ، ونفهم من كلامه ان الرجل كان مقتنعا بان القرابسة لا تنفع في شيء بل الاعمال هي التي تقرر قيمة هذا الفرد اذ انك . وقد كانت الحرب الدعائية قائمة بعد انتصار العباسيين بينهم وبين عمومتهم حول هذه القضية بالذات قضية القرابسة من الرسول والتي تخول لهم حق استلام السلطنة دون غيرهم .

ونجد ابا عطاء يشارك في كل امر لينقد الحكام الجدد ، فعندما فرض العباسيون

لهم السواد على الناس قال في ذلك : (١)

كسيت ولم اكفر من الله نعمة سوادا الى لوني ودنا ملهوجا
ويايحت كرها بيمة بعد بيمة مبهرجة ان كان امر مبهرجا

وهو هنا يثير قضية الاكراه في البيعة التي كان يفرضها العباسيون على الناس .

ان السبب الرئيس الذي ثار من اجله هذا الشاعر هو انعدام العادل في فترة حكم بني العباس وخاصة بعد تلك الدعاية الضخمة التي قام بها دعابة بني العباس بين الناس من ان الرضا من آل محمد الذي يجب ان يحكم هو الذي سيلاء الارض عدلا كما ملئت جورا وهذا ما ذكرناه سابقا . الا ان الواقع كذب هذه الدعاية فقد كشف الناس هذه اللعبة في وقت مبكر من العهد العباسي واكتشفوا انهم كسابقهم يطلبون السلطة فقط لينعموا بالخيرات التي تصبح ملك من يتولاها . وهكذا ضاع الامر مرة اخرى على يد سلطة شارك الشعب في ارسائها

(١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٧ ص ٣٣٥ (طبعة الهيئة المصرية ١٩٧٠)

الدين : القانسوة المحدودة الاطراف ، الطهوج : غير المحكم .

لكنها تنكرت له ولم تغب بعودها وفي هذا يقول ابو عطاء : (١)

اليس الله يعلم ان قلبي يحب بني امية ما استطاعا
وما بي ان يكونوا اهل عدل ولكني رأيت الامراضا

وهنا تجدر الاشارة الى ان الجماهير التي شاركت في تلك الحرب والتي انتصرت على بني امية كانت تنتظر من الحكام الجدد ان يمنحوها العدل والمساواة والرخاء تعميضا على ما لعنتها في الايام السابقة من قهر وظلم وحرمان ، لكن هيئات لم يكن بنو العباس الابني امية جددا ولذا فلا غرابة ان نجد بعض الناس يندبون العهد السابق كما فعل ابو العطاء وغيره من الشعراء مع ما اشتهر به ذلك العهد من بطش وجبروت ، لكن الذي يشفع لهم هذا التفكير الغريب ان السلطة التي كانت تثقل كواهلهم من قبل لم يشاركوا في وضعها في ذلك المكان اما السلطنة الجديدة فقد وجهت اليهم الطمعة مرتين لانهم هم سبب وجودها ، ولان السلطة السابقة لم تكن تخدمهم بل كانت تواجههم صراحة وتستغلهم صراحة ومن هنا نفهم جيدا قول ابي عطاء السندی : (٢)

فليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

ان ثورته على بني العباس لم تكن فقط لانه يحب بني امية ، وهم اعداء بني امية ، بل لان الشاعر كان قبل كل شيء من الفئة المستضعفة فهو مولى وهذا يعني انه كان يشعر بالقهر منذ البداية وخاصة في عصر بني امية الذين كانوا فعلا لا يعطون الموالي ان ينصب هام وزاد الطين بلة ان العباسيين لم يغفوا بعودهم فما كان من هذا الشاعر الا ان يثور لانه لم يجد حلا احسن من الثورة على تلك الاوضاع .

وهنا تجدر الاشارة الى اننا ذكرنا من قبل ان الشعر الشعبي عموما كان مهملا ولم يرد منه في المصادر الا القليل لكن الاهمال الكامل لحق هذا الجانب الثوري المتمرد منه لانه يمس السلطة الحاكمة انذاك مباشرة . ولولا الحصار الذي ضربته السلطة على الشعر المتمرد لتبين لنا بوضوح موقف الناس من العباسيين .

ان شعراء الموقف المتمرد كانوا شجعانا لان من يتجرأ على نقد الحكام في ذلك الوقت كان مهددا بالموت المحتسب ، فعلى الرغم من علمهم بهذه الحقيقة فانهم لم يسكتوا ، وتتمثل هذه الشجاعة ايضا في صبرهم في الحروب واحتقارهم لمن يفر منها كما فعل رجل من بني مرة كان يحارب المسودة مع ابي عطاء واسمه ابو زيد وكان قد عقر فرسه فطلب من الشاعر ان يحطبه فرسه ليقاتل به لكن هذا الرجل مضى على وجهه هاربا فقال ابو عطاء في ذلك : (١)

لعمري اني و ابا يزيد	لكالسامي الى لع السراب
رايت مخيلة فطمعت فيها	وفي الطمع المذلة للرقاب
فما اعياك من طلب و رزق	وما اغناك عن سرق الدواب

واخيرا فان هذا الجزء من الشعر الشعبي قليل جدا لاسباب التي ذكرنا وحسبنا منه هذه اللع المتناثرة التي تدل على ان الشعراء استطاعوا ان يتكلموا بالرغم من القمع والجبروت .

وطبعي ان تلجأ السلطة في ذلك العصر الى محاربة هذا النوع من الشعر وحصاره حتى لا يؤثر في الجماهير ويؤهلها عليها .

(١) ابن شاعر الكندي : فوات الوفيات ج ١ ص ١٣٥-١٣٦

تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - طبع دار السعادة - بدون تاريخ .

وفي ختام هذا الفصل نقول ان تلك الظروف التي تحدثنا عنها في الباب الاول
كان لها وقع ، مهما كان نوعه ، على مواقف الشعراء هذه انما ان مواقفهم هي نتيجة
انصهار تلك الاوضاع مع نفسيات الشعراء ، وتكيف هذه النفسيات مع تلك الاحداث ،
وهذا من ذاك .

*

الخاتمة

ان بحثنا هذا يهدف في مجمله الى نفي تهمة كانت ومازالت توجه الى شعرنا العربي القديم على انه شعر مناسبات وبلاطات وان حضور الشعب فيه كان غائبا . ولهذه التهمة اساس صحيح ذلك ان الشعر المعروف والمتداول بين الناس كان اقلية من نوع المناسبات ، ولكننا نعرف ان هذه التهمة باطلة لان شعرنا القديم لم يكن كله من هذا الطراز بل كان شعرا يتناول جميع هموم الانسان وكانت تنعكس فيه جميع القضايا المطروحة على فكر العربي القديم ووجد انه .

ان هذه التهمة لم تكن وليدة عقلية ساذجة للمبادئ العربية ومجمل حضارتهم فحسب بل الادهى ان نجد العرب انفسهم يوجهونها الى شعرهم القديم والدليل على ذلك ان بعض طلبة الجامعات واساتذتها يؤكدون هذه التهمة باستمرار . ولقد ساعدت المناهج التعليمية في الاقطار العربية على انتشار هذه التهمة لان الشبان يتعلمون في مدارسها ذلك الشعر الذي سميها شعر البلاطات من مدح وهجاء وفخر وما الى ذلك . وهذا كله على حساب جانب اخر من ذلك الشعر وهو الشعر الشعبي .

ليست هذه التهمة جديدة علينا ان نجد لها حتى في اقدم عصورنا حيث كانت النخبة المثقفة آنذاك والتابعة للعقلية السائدة في ذلك العصر تضرب حصارا كبيرا على الشعر الشعبي ، فقد كان مؤرخو الادب يترفعون عن ذكره طنا منهم بانه ليس في مستوى النقل والتدوين وهذا ما ادى الى قلة نصوصه التي وصلت الينا وتخطت كل الحواجز .

ونحن لا نلوم القدامى بقدر ما نلوم المحدثين لان الاولين كانوا شددوا دين بتلك العقلية السلفية التي اشرنا اليها سابقا ولا يمكن ان نطلب منهم اكثر مما قدموا . اما في عصرنا فان الامور قد تطورت والعقول قد تفتحت وتنورت واصبح لفكرة الشعب مكانة هامة في تفكير هذا العصر ووجب معها ان يهتم الباحثون بكل اناجيه الفكرى .

ويمكن ان نعم هذه الفكرة على مجالات اخرى غير الادب كالتاريخ مثلا ، فقد دون هو الاخر على طريقة الشعراء ان كان المؤرخون ينتقون مناسبات واحداثا معينة ليجزوها اكثر من

غيرها فكان ان اصبح ذلك التاريخ تاريخ مناسبات واشخاص وحوادث مجردة من كل معانيها .
واللوم هنا يوجه الى المؤرخين المحدثين كذلك لانهم تشبعوا بالمناهج العلمية الحديثة
ولانهم ساعدت الاكتشافات الحديثة على تزويدهم بمعطيات لم تكن متوفرة لدى القدامى الامر
الذي يفرض على هؤلاء المؤرخين ان يورثوا للنجتمعات وليس للأشخاص ، وان يمللوا حدوث
تلك الحوادث والاحداث والا يكتفوا بنقلها عارية من كل محتوى اجتماعي او سياسي او اقتصادي .
والحقيقة ان هناك بعض الدراسات حاولت ان تخرج من تلك الطريقة القديمة لكنها غير
كافية لانها تاتي مبتورة وسط خضم من تلك المناهج القديمة ولذا وجب ان تعاد كتابة تاريخنا
العربي كله على ضوء المناهج الجديدة حتى تأخذ كل تلك الامور التي حدثت حقها ومكانتها
وقيمتها اللازمة .

ان المصادر القديمة تحتوي على اشارات بالغة الاهمية في هذا المجال بدليل ان
الشعر الشعبي استطاع ان يصمد امام المواجهات العديدة بالرغم من الحصار الذي قوسل
به لسبب بسيط وهو ان الجماهير حافظت عليه لما فيه من امور تمن حياتها وواقعها .
وتجدد الاشارة هنا ان الشعر الشعبي الذي نقصد له ليس ذلك الشعر العامي وحده كما نفهم
اليوم من هذا المصطلح بل ان فهمنا له يتعدى الى كل ما بين الجماهير سواء كتب بالعربية
الفصحى ام بغيرها من اللهجات المحلية التي ان هي الا امتداد للفصحى وتطور طبيعي
وحتى لها لان مجتمعا كالمجتمع العربي الاسلامي المتنوع في مكوناته البشرية والطبيعية كان
لابد ان يفرز مثل هذه اللهجات ، فرقته كانت واسعة جدا في ذلك العصر وهذا يعني ان
الناطق والاقاليم التي انضوت تحت راية الخلافة العباسية كان من المنتظر ان تطبع اللغة
والعادات العربية بعادات وطبائع جديدة بالرغم من ان تلك الاقاليم تتقارب في هوموميا
- اي تنطبق عليها الظروف نفسها تقريبا - وهذا التنوع كان له دور كبير في تطور الحضارة
العربية في جميع ميادينها ، والذي يهينا في هذا ان الشعر الشعبي الناتج عن ذلك
المجتمع المتنوع اسهم في تطور الشعر العربي عموما فقد اصبح الشعر يتسع ليتناول جميع
الموضوعات التي يفرزها ذلك المجتمع الجديد ، وهذا ما ولصد بدوره القصيدة الجديدة .

التي تختلف عما قبلها في العصرين الجاهلي والاموي ، فقد صارت قصيرة ولم تعد بذلك الطول الذي اشتهرت به قصائد العصرين السابقين . والسبب في هذا ان العقلية قسدت اختلف كثيرا ، فقد كان الشاعر الجاهلي وتبعه الاموي في ذلك ، ينظر الى الامور نظرة شمولية ولذا كانت القصيدة تأتي عنده بلحظة لكل تجاربه في الحياة . وكان بإمكان الشاعر ان يكتب قصيدة واحدة لانه ان نظم غيرها فيوف يكرر ما قال من قبل في صيغة جديدة . اما الشاعر العباسي فقد اصبح ينظر الى الامور نظرة تفصيلية اذ لم يعد يصب في القصيدة كل ما عنده من تجارب بل صار يكتب بتناول الموضوعات واحدا واحدا ، وهذا بدوره يجعل القصيدة العباسية وحيدة الموضوع وهذا لا يعني طبعا ان القصيدتين الجاهلية والاموية لم تكونا وحيدتي الموضوع بل انهما كانتا كذلك الا ان الموضوع فيهما ينطلق من تلك النظرة الشمولية لدى الشاعر .

كانت الوحدة اذا وحدة نفسية تخرج في اطار متنوع فيما كانت العباسية وحدة حالة تخرج في اطار واحد لان تلك المقطوعتنا تناول موضوعا واحدا او فكرة واحدة وهذا ناتج عن ان تطور الحياة في العصر العباسي الاول لم يعد يسمح بتلك المطولات التي تشبه امتداد الصحراء . ان وتيرة التطور اصبحت سريعة جدا مما انتج اشكالا فنية تتسم بالسرعة هي الاخرى وهذا ما طور الاوزان بحيث طوعت حتى اصبحت تتماشى مع هذا النمط الجديد من القصيد ، ولذا كثرت الاوزان القصيرة والجزالة والضمهوكة الخ . .

كانت القصائد الجاهلية عامة في نظرتها الى الامور اما العباسية فقد صارت تأخذ الموضوع وتشير اليه دون توسع وتكتفي بذلك في بيتين او اكثر قليلا . . . هذا اضافة الى عوامل اخرى شاركت في ظهور هذه الاوزان كالموسيقا والغناء الذي ازدهر هو الاخر في العصر العباسي ازدهارا كبيرا فقد صار الشاعر ينتقى الاوزان الخفيفة والكلمات الجميلة وهو ينظم القصيدة لانه كان يدرك انها قد تغني من قبل الناس بعد ان يلحنها احد الملحنين . ونحن هنا لا نتحدث عن الغناء الذي ازدهر في القصور بل الغناء الاخر الذي كان حتما موجودا بين الجماهير .

ومن هنا فلا غرابة اذا وجدنا أن خصائص الشعر الشعبي لذلك العصر تتشابه مع خصائص شعره الرسمى ولهذا اسباب كثيرة منها ان الفاصل بين الشعريين لم يكن دائما واضحا وثابتا فكم من شاعر يتقلب بين عشية وضحاها بين الاتجاهين وهنا يجب ان نتذكر اولئك الشعراء الذين كانوا يأتون الى بغداد لينشدوا الخليفة مدائحهم فيه ثم يعودون الى قبايلهم ومدنهم ليعاودوا حياتهم كما كانوا من قبل . ان الاختلاف في المحتوى هو الذى يجعل شعر الشاعر شعبيا أو رسميا وليس في الشعراء فالقسمة اذا قسمة شعر وليست قسمة شعراء . لان الاتجاهين ولدا مجتمع واحد تتفاعل فيه طبقاته وتؤثر بعضها في بعض تأثيرا متبادلا .

ان الاختلاف في المحتوى يولد بطبيعة الحال اشكالا مختلفة لكنها ليست منفصلة أو متناقضة الى درجة تنعدم فيها المقارنة بينهما .

ومن خصائص الشعر الشعبي المفرقة له عن غيره من الشعر ان اهم موضوع يدور حوله هو تلك الازواح الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي كان حضورها مستورا فيه ، ففي جميع الاغراض التي تناولها الشعراء الشعبيون تطل علينا تلك الازواح ، سواء في المدح أم الهجاء أم الرثاء أم الوصف الخ

وبعد نرجو ان نكون قد وفقنا بعض الشيء في ابراز هذا الاتجاه الذى كان مطموسا والذى لم يعط حقه الا قليلا ، ولا ندعى ابدا اننا بلغنا الغاية فيه بل نحن نعرف مسبقا ان هناك بعض النقص في جوانب عديدة نرجو ان يغفرها لنا القارىء .

طاهر حجار

شرح من المصادر والمرجع

حرف الالف -

- ١ - ابراهيم ، نبيلة : اشكال التعبير في الادب الشعبي .
طبع دار نهضة مصر - بدون تاريخ .
- ٢ - الابشيهي : ابوالفتح شهاب الدين محمد بن احمد : المستطرف
في كل فن مستظرف .
طبع دار الفكر - بيروت ، مصورة عن طبع الاستقامة ،
مصر ١٣٧٩ هـ
- ٣ - ابن الاثير : ابوالحسن عزالدين علي بن محمد (- ٦٣٠ هـ) - الكامل
في التاريخ . طبع دار صادر بيروت ١٩٦٥ م
- ٤ - ابن آدم القرشي يحيى : كتاب الخراج ، تحقيق احمد محمد شاكر
طبع المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٧ هـ .
- ٥ - الاصفهاني : ابوالفرج علي بن الحسين بن محمد الاموي (- ٣٥٦ هـ) -
كتاب الاغانى - طبعة مصورة عن دار الكتب .
- (ج ١٧) طبع الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف
تحقيق علي محمد الهجاوي القاهرة ١٩٧٠
- (ج ٢٠) طبع دار الثقافة - بيروت ١٩٦٠
- ٦ - الالوسي ، محمد شكرى : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، شرح وتصحيح محمد
بهجة الاثرى ، طبع المكتبة الاهلية ، طبعة ثانية - مصر
١٩٢٤ م

٧ - انيس ، ابراهيم : موسيقى الشعر ، طبع مكتبة الانجلو المصرية ، طبعة
خامسة ، القاهرة ١٩٧٨ م

حرف الياء -

٨ - بازيار العزيز بالله الفاطمي : ابو عبد الله الحسن بن الحسن : البيهزة .
تعليق محمد كرد علي . طبع مطبوعات المجمع العلمي
العربي بدمشق - ١٩٥٣ م

٩ - بدوى ، عبد الله : الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ، طبع
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣ م .

١٠ - البيهقي ، محمد نجيب : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري
طبع دار الكتب - القاهرة ١٩٥٠ م

١١ - البيهقي : ابراهيم بن محمد (٣٨٥ هـ - ٤٧٠ هـ)

أ - تاريخ البيهقي ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت (عن الفارسية)

طبع مكتبة الانجلو المصرية - ١٩٥٦ م

ب - المحاسن والمساوي ، طبع دار صادر بيروت ١٩٧٠ م

حرف التاء -

١٢ - ابن تغرى بردى : جمال الدين ابو المحاسن يوسف (- ٨٧٤ هـ) -

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبع دار الكتب

المصرية ، طبعة اولى ، القاهرة ١٩٣٠ م

١٣ - تيزيني ، طيب : مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط

طبع دار دمشق ١٩٧١ م

- حرف الثاء -

- ١٤- الثعالبي : ابو منصور عبد الملك محمد بن اسماعيل (- ٤٢٩ هـ)
أ- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم
طبع دار نهضة مصر القاهرة ١٩٦٥ .
ب- خاص الخاص تقديم حسن الامين طبع مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٦

- حرف الجيم -

- ١٥- الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (- ٢٥٥ هـ)
أ- البرصان والمرجان والعميان والحولان ، تحقيق محمد مرسي الخولي
طبع دار الاعتصام للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٢ م
ب- البيان والتبيين ، تحقيق فوزى عطوى ، طبع دار صعب ، بيروت ١٩٦٨ م
ج- الحيوان ، تحقيق عبدالسلام هارون طبع البابي الحلبي ، طبعة
ثانية القاهرة ٦٥ - ١٩٦٦
د- القول في النغال ، تحقيق شارل بللا طبع مصطفى البابي الحلبي
طبعة اولى القاهرة ١٩٥٥ م
- ١٦- ابن الجراح : ابو عبد الله محمد بن داود (- ٢٩٦ هـ) الورقة ، تحقيق
عبدالوهاب عزام وعبدالستار فراج ، طبع دار المعارف بمصر
طبعة ثانية القاهرة ، ١٩٥٣ م .
- ١٧- الجمال ، احمد صادق : الادب العامي في مصر في العصر المملوكي ، طبع
الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٦ م
- ١٨- الجهشياري : ابو عبد الله محمد بن عبدوس : الوزراء والكتاب ، تحقيق
مصطفى السقا وجماعته ، طبع مصطفى البابي الحلبي ، طبعة
اولى القاهرة ١٩٣٨ م .

- حرف الحاء -

- ١٩- حجاب ، محمد نجيب : معالم الشعر واعلامه في العصر المباسي الاول ،
طبع دار المعارف بمصر ، طبعة ثانية ، القاهرة ١٩٧٣ م
- ٢٠- حسن ، ابراهيم حسن :
آ- تاريخ الاسلام الاجتاعي والسياسي والثقافي الخ . . .
طبع مكتبة النهضة المصرية ، طبعة رابعة القاهرة ١٩٦٤
ب- النظم الاسلامية لطبع النهضة المصرية طبعة اولى
القاهرة ١٩٣٩ م
- ٢١- الحصرى القيرواني : ابواسحاق ابراهيم بن علي (- ٤٥٣ هـ) ؛ جمع الجواهر
في الملح والنوادر (دليل زهر الاداب) تحقيق علي محمد
البحاوي طبع الباي الحلبي ، طبعة اولى القاهرة ٢٩٥٢ م
- ٢٢- ابوحيان التوحيدى : (٤١٠ او ٤١٤ هـ) - الامتاع والموءانسة - تحقيق
احمد امين واحمد الزين - طبع مكتبة الحياة (بصورة عن
دار الكتب) - بدون تاريخ

- حرف الخاء -

- ٢٣- الخطيب البغدادي : ابوبكر احمد بن علي بن ثابت (= ٤٦٣ هـ) تاريخ
بغداد ، طبع مكتبة الخانجي طبعة اولى القاهرة ١٩٣١ م
- ٢٤- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) المقدمة ،
تحقيق علي عبدالواحد وافي ، طبع لجنة البيان العربي
طبعة اولى القاهرة ١٩٥٧ م

- ٢٥- ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (٦٠٨ - ٦٨١ هـ) - وفيات الاعيان وانباء ابناؤ الزمان . تحقيق احسان عباس - طبع دار صادر بيروت بدون تاريخ .
- ٢٦- خليف ، يوسف : حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني الهجرى . طبع دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ م
- ٢٧- ابوخليل ، شوقي : هارون الرشيد ، طبع دار الفكر طبعة اولى ، دمشق ١٩٧٧ .

حرف الـدال -

- ٢٨- دعلج بن علي الخزاعي (١٨٤-٢٤٦ هـ) - ديوانه . جمع عبدالكريم الاشر - طبع مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .

حرف الراء -

- ٢٩- الراغب الاصبهاني : ابو القاسم حسين بن محمد (- ٥٠٢ هـ) ؛ محاضرات الادياء ومحاولات الشعراء والبلغاء - بدون ذكر للتاريخ او للطبع .
- ٣٠- ابن رشيق القيرواني : ابو علي الحسن بن رشيد (٣٩٠-٤٥٦ هـ) ؛ العمدة في صناعة الشعر - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد طبع حجازى ، طبعة اولى القاهرة ١٩٣٤ م
- ٣١- رفاعي ، احمد فريد : عصر المأمون ، طبع دار الكتب المصرية ، طبعة رابعة القاهرة ١٩٦٨ م
- ٣٢- الرفاعي ، انور : الاسلام في حضارته ونظمة طبع دار الفكر ١٩٧٣ م

- ٣٣- الرقيق القيواني : ابراهيم بن القاسم : المختار من قطب السرور في
اوصاف الانبذة والخمور ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ،
طبع مؤسسات عبد الكريم عبد الله - تونس ١٩٧٦ م
- ٣٤- رياض حسين مظلوم ومصطفى محمد الصباحي : تاريخ ادب الشعب ، طبع
مطبعة السعادة ١٩٣٦ م
- ٣٥- ريجارد كوك : بغداد مدينة السلام ، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ،
طبع مطبعة شفيق ، طبعة اولى بغداد ١٩٦٢ م
- ٣٦- الرئيس ، محمد ضياء الدين : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ،
طبع مكتبة الانجلو المصرية ، طبعة ثانية القاهرة ١٩٦١ م

حرف الزين -

- ٣٧- زكي ، احمد كمال : الحياة الادبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني
الهجرى ، طبع دار المعارف بمصر القاهرة . ١٩٧١ م
- ٣٨- زيدان ، جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية ، طبعة دار الهلال - بدون تاريخ

حرف السين -

- ٣٩- سيديو : خلاصة تاريخ العرب ، ترجم بأمر علي باشا مبارك ، طبع محمد
افندى مصطفى ، طبعة اولى ، القاهرة ١٣٠٩ هـ
- ٤٠- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (- ٩١١ هـ)
أ- تاريخ الخلفاء ، طبع دار الفكر ١٩٧٤ م
ب- المزهر في علوم اللغة وانواعها ، طبع محمد علي صابح
واولاده ، بدون تاريخ .

حرف الشين -

- ٤١- الشابشتي : ابو الحسن علي بن محمد : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ،
طبع المعارف ببغداد ١٩٥١ م
- ٤٢- ابن شاکر الکلبی : محمد بن شاکر بن احمد (- ٧٦٤ هـ) وفوات الوفیات ،
تحقیق محمد محي الدين عبد الحميد ، طبع دار السعادة ،
بدون تاریخ .
- ٤٣- الشریف المرتضى : علي بن الحسين : امالي المرتضى (غرر الفوائد -
ودرر القلائد) تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، طبع
دار الكتاب العربي ، طبعة ثانية بيروت ١٩٦٧ م
- ٤٤- شعبان ، بهيج : اثر المعدة في الادب العربي ، طبع منشورات عويدات ،
طبعة اولی بيروت ١٩٦٦ م
- ٤٥- الشکمة ، مصطفى : الشعر والشعراء في العصر العباسي ، طبع دار العلم
للعلمين طبعة ثانية بيروت ١٩٧٥ م
- ٤٦- شلبي ، احمد : في قصور الخلفاء العباسيين - طبع مكتبة الانجلو
المصرية القاهرة ١٩٥٤ م
- ٤٧- شلبي ، سعد اسماعيل : الشعر العباسي ، التيار الشعبي ، طبع مكتبة
غرب - بدون تاریخ .

حرف الصاد -

- ٤٨- صالح ، احمد رشدي : الادب الشعبي ، طبع دار المعارف ، بدون تاریخ .
- ٤٩- الصولي : ابوبکر محمد بن يحيى (- ٣٣٥ هـ) - كتاب الاوراق ، نشره
هيورث دن ، طبع مطبعة الصاوي ، طبعة اولی ، القاهرة

- حرف الضاد -

٥٠ - ضيف ، شوقي :

أ- العصر العباسي الاول - طبع دار المعارف ، طبعة سادسة

القاهرة ١٩٧٦ م

ب- الشعر وطوايحه الشعبية على مر العصور . طبع دار المعارف

بمصر طبعة اولى القاهرة ١٩٧٧ م

ج- الفكاهة في مصر طبع دار الهلال ، العدد ٨٣

- حرف الطاء *

٥١ - الطبرى : ابو جعفر محمد بن جرير (٣١٠ هـ) : تاريخ الرسل

والملوك - تحقيق محمد ابى الفضل ابراهيم طبع

دار المعارف ١٩٦٧ م

٥٢ - ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبدا : الفخرى في الاداب السلطانية ،

طبع المطبعة الرحمانية مصر ١٩٢٧ م

٥٣ - ابن طيفور : ابو الفضل احمد بن طاهر (٢٨٠ هـ) : بيفداد في تاريخ

الخلافة العباسية ، طبع مكتبة المثنى بيفداد ومكتبة

المعارف ببيروت ، طبعة اولى ١٩٦٨ م

- حرف العين -

٥٤ - ابن عبد البر القرطبي : (٣٦٨ - ٤٤٣ هـ) : بهجة المجالس ، تحقيق محمد

مرسي الخولي . طبع دار المصرية للتأليف والترجمة -

بدون تاريخ .

٥٥ - عبد الحكيم ، شوقي : الفولكلور والاساطير العربية ، طبع دار ابن خلدون

طبعة اولى بيروت ١٩٧٨ م

- ٥٦ - ابن عبد ربه : احمد بن محمد (- ٣٢٨ هـ) : العقد الفريد ، طبع
لجنة التأليف والنشر والترجمة .
- ٥٧ - ابو المناهية : (اسلميل بن القاسم) (- ٢١٠ هـ) : الديوان ، تحقيق
شكري فيصل . طبع جامعة دمشق ١٩٦٥ م .
- ٥٨ - ابن عروس ، محمد بن محمد : كتاب تاريخ القضاء في الاسلام ، طبع المطبعة
المصرية الاهلية الحديثة بصربدون تاريخ
- ٥٩ - عصور ، جابر احمد : مفهوم الشعر ، دراسة في التراث النقدي ، طبع
دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٨ م
- ٦٠ - عطوان ، حسين : مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الاول ، طبع
دار المعارف القاهرة ١٩٧٤
- ٦١ - ابن المناد : ابو الفلاح عبد الحي (١٠٨٩ هـ) : شذرات الذهب في
اخبار من ذهب ، طبع مكتبة القدسي القاهرة . ١٣٥٠ هـ
- ٦٢ - عبارة محمد : نظرة جديدة الى التراث ، طبع المؤسسة العربية للدراسات
والنشر ، طبع ثانية بيروت ١٩٧٩ .
- ٦٣ - عيد ، رجا : الشعر والنغم ، دراسة في موسيقى الشعر ، طبع دار الثقافة
للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٥ .

- حرف الفين -

- ٦٤ - غزنيوم ، غوستاف : شعراء عباسيون ، ترجمة محمد يوسف نجم ، طبع مكتبة
الحياة ، بيروت ١٩٥٩ م

حرف الفاء

٦٥- ابو الفداء : الحافظ بن كثير الدمشقي (- ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ،
طبع مكتبة المعارف ببيروت ومكتبة النصر بالرياض - طبعة
اولى ١٩٦٦ .

٦٦ - فهد، بدرى محمد : العاة ببفداد في القرن الخامس الهجرى - طبع
مطبعة الارشاد - بغداد ١٩٦٧ م

٦٧ - فريضة : انيس : الفكاهة عند العرب ، طبع مكتبة رأس بيروت ، طبعة
اولى ١٩٦٢ .

حرف القاف

٦٨ - القالي : ابو علي اسماعيل بن القاسم (- ٣٥٦ هـ) : كتاب الامالي وكتاب
ذيل الامالي والنوادر - طبعة مصورة عن بولاق ١٣٢٤ هـ

٦٩ - ابن قتيبة : ابو محمد بن عبد الله بن مسلم (- ٢٧٦ هـ) : الشعر والشعراء ،
طبع ليدن طبعة اولى (١٩٠٢ م)

٧٠ - القفطي : ابو الحسن علي بن يوسف ، (- ٦٤٦ هـ) المحمدون من الشعراء ،
تصحیح محمد عبدالستار ، طبع مجلس دائرة المعارف

العثمانية ، حيدرآباد ، الهند - طبعة اولى ١٩٦٦ م

حرف الكاف

٧١ - كراتشكو فسكي ، اغناطيوس : دراسات في تاريخ الادب العربي (منتخبات)
ترجمة محمد المعصراني - دار النشر ، موسكو ١٩٦٥ م

٧٢ - الكندي : ابو عمر محمد بن يوسف : القضاة والولاة ، تهذيب رفرن كست
طبع الابهاء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ م

حرف الـلام -

- ٧٣ - لوبون ، غوستاف : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، طبع البايي الحلبي ،
بدون تاريخ .

حرف الميم -

- ٧٤ - ماجد ، عبدالنعم : العصر العباسي الاول - طبع مكتبة الانجلوالمصرية ،
طبعة اولى القاهرة ١٩٧٣ .
- ٧٥ - المبرد : ابوالعباس محمد بن يزيد (- ٢٨٥ هـ) : الكامل في اللفظة
والادب ، طبع مكتبة المعارف ، بدون تاريخ .
- ٧٦ - مجموعة من الاسانذة السوفيتية : بحوث سوفيتية في الادب العربي ، ترجمة
خيرى الضامن - دار التقدم ، موسكو ١٩٧٨ .
- ٧٧ - مجموعة من الاسانذة السوفيتية : في المادية الديالكتيكية والمادية
التاريخية ، ترجمة خيرى الضامن ، دار التقدم ، موسكو ١٩٧٥
- ٧٨ - المرزباني : ابو عبد الله محمد بن عمران (- ٣٨٤ هـ) : الموشح ، تحقيق
علي محمد الهجاوى - طبع دار النهضة مصر ، القاهرة
١٩٦٥ م
- ٧٩ - مروة ، حسين : النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ، طبع دار
الغرابي طبعة اولى بيروت ج ١ / ١٩٧٨ - ج ٢ / ١٩٧٧
- ٨٠ - المرزوقي ، محمد : الادب الشعبي في تونس ، طبع الدار التونسية للنشر -
تونس ١٩٦٧ م
- ٨١ - السمعوى : ابو الحسن علي بن الحسين (- ٣٤٦ هـ) : مروج الذهب ومعادن
الجواهر - طبع المطبعة البهية المصرية القاهرة ١٣٤٦ هـ

- ٨٢ - مصطفى ، شاكر : دولة بني العباس (ج ١) طبع وكالة المطبوعات ، طبعة
اولى ، الكويت ١٩٧٣ م
- ٨٣ - ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم (- ٧١١ هـ) : لسان العرب .
- ٨٤ - ابن المعتز : عبدالله بن التوكل بن المعتصم (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) : طبقات
الشعراء ، طبع دار المعارف بمصر ، طبعة ثانية القاهرة
١٩٦٨ م
- ٨٥ - ابن السعدي ، عبدالصمد : شعر عبدالصمد بن السعدي ، تحقيق زهير
غازي زاهد ، طبع مطبعة النعمان - النجف - العراق -
١٩٧٠ م
- ٨٦ - القدسي ، انيس : امراء الشعر العربي في العصر العباسي ، طبع دار العلم
للملايين ، طبعة حادية عشرة بيروت ١٩٧٧ م
- ٨٧ - المنجد صلاح الدين : مآكل الخلفاء العباسيين ، مجلة الرسالة عدد ٦٥٨

حرف النون -

- ٨٨ - النويري : احمد بن محمد بن عبدالوهاب (- ٧٣٣ هـ) : نهاية الارب
في فنون الادب ، طبعة مصورة عن دار الكتب .
- ٨٩ - النيسابوري : ابو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب (- ٤٠٦ هـ) :
عقلاء المجانين ، طبع المطبعة العربية بمصر - ١٩٢٤ م

حرف الهاء -

- ٩٠ - هدارة ، مصطفى : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، طبع
دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦٣ م

٩١ - هل - ي : الحضارة العربية ، ترجمة ابراهيم احمد العدوى ، طبع مكتبة
الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ م

- حرف الهاء -

٩٢ - اليافعي : ابو محمد عبدالله بن اسعد بن علي (-٧٦٨ هـ) : مرآة الجنان
وصحة اليقظان ، طبع دائرة المعارف النظامية ، طبعة اولى
حيدرآباد - ١٣٣٧ هـ .

٩٣ - ياقوت الحموي : ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله (-٦٢٦ هـ)
معجم الادباء ، طبع دار المأمون .

٩٤ - ابويوسف : يعقوب بن ابراهيم : كتاب الخراج ، طبع المطبعة السلفية
القاهرة ١٣٤٦ هـ

٩٥ - يونس عبد الحميد : دفاع عن الفولكلور ، طبع الهيئة المصرية للكتاب -
القاهرة ١٩٧٣ .

XXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXXXX

XXXX